العثمانيون
بين أوروبا والعرب ومحمد على

بحوث ودراسات فى تاريخ الدولة العثمانية والعالم العربى

اعداد
د . عبد المنعم ابراهيم الدسوقى الجميعى
أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر

القاهرة ١٤٢١ هـ / ٢٠٠١ م

تمهيـــــــد

تختلف الروايات حول أصل الأتراك العثمانيين ، وإن كان العديد من المؤرخيـن يرجع نسبهم إلى إحدى قبائل "غز الخزر" وهى قبيلة "قابى خان"[1] التى كـــان يتولـى أمورها سليمان شاه وكان موطنها الأصلى أواسط آسيا ثم نزحت تحت الضغط المغولـى صوب آسيا الصغرى والأناضول فى القرن السابع الهجرى الثالث عشـر الميـلادى . وخلال ذلك توفى "سليمان شاه" ، وتولى ادارة هذه القبيلة ابنه "أرطغرل" . وفى أثنـــاء تنقل هذه القبيلة بحثاعن المأوى ومصادر العيش شاهدت جيشين يقتتلان ، وأدركـت ان أحد هذين الجيشين ليس ندا للآخر فانضمت القبيلة إلى جانب الجيش الضعيف الذى كـاد يلقى هزيمة مروعة – من جانب باب النجدة – وكان انضمامها إليه سببا فى انتصاره . وبعد المعركة تبين أن هذه القبيلة تدخلت لنصرة بنى جلدتها وهم الأتراك السلاجقة الذين كانوا يحاربون تحت قيادة سلطانهم علاء الدين ، وأنهم كانوا يحاربون إحـــدى الفـرق المغولية التى أوكل إليها استكمال فتح آسيا الصغرى[2] . ونتيجة لذلك استجاب السـلطان علاء الدين لطلب "أرطغرل" بأن يمنح قبيلته مكانا تستطيع العيش والاستقرار فيـــه[3] ، فأمر باقطاعه عدة أقاليم ومدنا ، وصار يعتمد عليه فى حروبه . وكان يقطعه أراضـــى جديدة عقب كل انتصار يتمكن من تحقيقه ويمنحه أموالا جزيلة . يضاف إلى ذلك أنـــه لقب قبيلته بمقدمة السلطان لوجودها دائما فى مقدمة جيوشه . وظل "أرطغرل" فى خدمة السلطان علاء الدين إلى أن توفى فى عام ٦٨٧هـ الموافق ١٢٨٨م فعين علاء الديـــن أكبر أولاد أرطغرل مكانه وهو عثمان مؤسس الدولة العثمانية[4] .

---

١ – عبد السلام فهمى : السلطان محمد الفاتح فاتح القسطنطينية وقاهر الروم ، دمشق ، الطبعة الثالثة ، ١٩٨١ ص ١١

٢ – عبد العزيز الشناوى : الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ، القاهرة ، الأنجلو المصرية ١٩٨٠ ص ٣٣-٣٤ .

٣- Edward , S. Creasy : History of the ottoman Turks , Beirut, 1968 , P. 2-4 .

٤- محمد فريد : تاريخ الدولة العلية العثمانية – تحقيق إحسان حقى ، بيروت ، دار النفـائس ، الطبعـة الأولـى ١٤٠١ هـ/١٩٨١م ص ١١٥-١١٦ .

وقد نهج عثمان نهج والده في الجهاد حيث استولى على قلعة "قوجه حصار" التي كانت تابعة للروم وذلك في عام ١٢٨٩م ، وقد كافأه السلطان علاء الدين على ذلك بأن سمح له بضرب "السكة" باسمه ، وأمر بأن يذكر اسم عثمان بجانب اسمه في خطبة الجمعة ، ومنحه كل الأراضي التي تم له فتحها ، وكذلك الأراضي التي سيتمكن من فتحها بعد ذلك مما تسبب في ذيوع صيت عثمان . ولعل السبب الذي دفع السلطان علاء الدين إلى ذلك هو أنه أراد أن يجعل من عثمان وقبيلته قوة للدولة السلجوقية التي بدأ الضعف يتسرب إليها .

وبعد سقوط دولة سلاجقة الروم على يد المغول في عام ٦٩٩هـ ، ووفاة السلطان علاء الدين انفتح المجال أمام "عثمان بن أرطغرل" الذي استقل بما تحت يده من بلاد ، واتخذ من مدينة "يني شهر" عاصمة له ودعا نفسه "باد شاه عثمان(١)" أي سلطان العثمانيين.

وهكذا بدأت الدولة العثمانية على يديه ، واعتنق العثمانيون في عهده الإسلام ، وأصبح عقيدتهم الدينية الرسمية ، وبعد وفاة عثمان في عام ١٣٢٦م واصل ابنه أرخان، ومن جاء بعده السير على سياسته ، واستطاع العثمانيون أن يملأوا التاريخ أحداثا ، ومرت عليهم مظاهر عديدة من الحضارات ، وأصبحت امبراطوريتهم مترامية الأطراف حيث امتدت أقاليمها وولاياتها في آسيا ، وأوربا وافريقية ، وأصبحت أكبر دولة إسلامية يشهدها التاريخ فكانت حدودها تمتد شمالا إلى بلاد المجر في أوربا وتشمل أراضيها كلا من بلاد اليونان والبوسنة والهرسك والجبل الاسود وألبانيا وبلغاريا والمجر والبغدان ، وتمتد شرقا من حدود ولاية جورجيا إلى حدود داغستان وما يلي ذلك من الشرق والجنوب والغرب أرمنيا والأناضول وما بين النهرين وبلاد العرب وسورية ومصر والسودان وبرقة وطرابلس وتونس .

وفي تاريخ الدولة العثمانية الكثير من الدروس سواء أكان ذلك في مجال الحرب أو في مجال السلم . لقد توالى على عرش الدولة العثمانية ستة وثلاثون سلطانا كان منهم

---

١ – سالم الرشيدي : محمد الفاتح ، بيروت ، دار العلم للملايين ، الطبعة الثانية ، ١٩٦٩م ص ٢١ – ٢٢ .

من لا يأتى الدهر بمثلهم إلا على فترات من الزمن ، وكان منهم بين بين ، كما كـــان منهم من لا يصلح مطلقا لتولى هذا المنصب الخطير الذى وصل إليـــه عـــن طريـــق الوراثة مما ساعد على هدم هذه الدولة ودك أركانها .

وسيلاحظ االقارئ لهذا الكتاب انه يحوى العديد من البحوث والدراسات العلميـــة لبعض القضايا والمشكلات التى لازمت تاريخ الدولة العثمانية ليس خلال فترة قوتـــها فحسب بل وخلال فترات ضعفها أيضا .

فقد شملت هذه الدراسة موضوعات متعددة بدأت بفتح القسطنطينية على يد محمد الثانى فى عام ٨٥٧هــ/١٤٥٣م وتطرقت إلى موقف الدولة العثمانيـــة مـــن ســقوط الأندلس ، وإلى الانكشارية ودورهم فى الفتوحات التى قامت بها الدولة حتى تم القضاء عليهم كما تطرقت إلى معركة ديوالبحرية وأثرها على حركة التجارة العربيـــة وإلـــى الفتح العثمانى للعالم العربى والحركات الانفصالية ضد الدولة العثمانيـــة ، وتنـــاولت معركة نفارين البحرية ، ومحمد على والخليج العربى كما تنـــاولت موقـــف القـــوى الأوربية من حكم محمد على لبلاد الشام ، وموقف الدولة العثمانية من توسعات محمـــد على فى بلاد الشام ، والسلطان عبد الحميد ودغوته لفكرة الجامعة الأســـلامية حتـــى اسقاطه ذا الحركات السياسية والفكرية فى العالم العربى والدولة العثمانية خلال الحرب العالمية الأولى وظهور أتاتورك .

وتأتى البحوث إلى نهايتها مع دراسة نقدية بعنوان "الدولة العثمانية ما لها وما عليـــها" أوضحنا فيها المناقب والمآخذ التى أخذت على العثمانيين بشكل يتمشى مـــع منـــهاج البحث التاريخى .

والله ولى التوفيق ..

أ. د. عبد المنعم الجميعى

القاهرة – مدينة المهندسين

١٨ / ١٢ / ٢٠٠٠

الموضـــوع الأول
السلطان محمد الثاني وفتح القسطنطينية

تسابق المسلمون إلى فتح القسطنطينية منذ أن فتح العرب بلاد الشام[1] ، وذلـــك مصداقا للحديث الشريف "لتفتحن القسطنطينية ، فلنعم الأمير أميرها ، ولنعم الجيـــش ذلك الجيش[2]" ولكن كل محاولاتهم لم يتحقق لها النجاح حتى قيض الله الأمر للسلطان العثمانى محمد الثانى فتمكن من فتحها ، وفيما يلى نعرض لهذا السلطان ، ولذلك الفتح.

أولا : السلطان محمد الثانى : -

ولد السلطان محمد الثانى فى السادس والعشرين من شـــهر رجـب ٨٣٣هـــ الموافق للعشرين من أبريل ١٤٢٩م ، وقضى أيام طفولته الأولى فى "أدرنـــه" تحـت رعاية والده السلطان مراد الثانى الذى اهتم بتكوينه عسكريا فعلمه فنـــون الفروسـية والحرب ، كما اهتم بتلقينه مبادىء الدين الإسلامى حتى يزيل تأثير أمـــه النصرانيـة عليه[3] .

وقد تولى محمد الثانى السلطة فى عام ٨٥٥هـ الموافق ١٤٥١م بعد تنازل والده عنها ، ومبايعة أهل الحل والعقد له فأصبح بذلك السلطان السابع الذى يعتلى عرش السلطنة العثمانية[4] ، وكان عمره وقتئذ لا يزيد عن الثانية والعشرين[5] .

وقد تميز محمد الثانى بكفاءته ، وشجاعته ، وذكائه ، وشدة حرصه على الثقافـة ، وحبه للعلوم والفنون ، ومما يذكر عنه أنه كان يجيد عددا من اللغات منها التركية لغتـه

---

١ - لتفاصيل ذلك انظر : محمد فريد : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، بيروت ، دار الجبل ، ١٣٩٧هـ/١٩٩٧م ص ٦١

٢ - ورد فى مسند أحمد ، وفى مستدرك الحاكم (حديث صحيح) .

٣ - د. عبد السلام فهمى : السلطان محمد الفاتح فاتح القسطنطينية وقاهر الروم ، دمشق ، دار القلم ، ١٩٧٥م ص ٣١

٤ - محمد فريد : المرجع السابق ص٥٨ .

٥ - ابراهيم حليم : التحفة الحليمية فى تاريخ الدولة العلية ، القاهرة ، ١٩٠٥م ص ٦٣ .

الأصلية والعربية والفارسية والعبرانية ، واليونانية ، واللاتينيـــة ، واتصــف أيضـــا بالموهبة الشعرية وبأنه كان نصيرا للعلوم ، هـــذا إلـــى جـــانب قدرتـــه العســكرية والميدانية[1] فقد خاض محمد الثاني العديد من المعارك والحروب ضد أعداء الدولـــة ، واستولى على الكثير من البلدان ، وحاصر العديد من المدن ، وكان حلمه الذى يراوده دائما هو فتح القسطنطينية[2]، ولعل السبب المباشر والرئيسى الذى دفعه إلى الإســراع فى ذلك هو أن الامبراطور البيزنطى "قسطنطين باليولوجس" كان قد انتهز فرصة وفاة والد محمد الثانى وقام بأعمال استفزازية رشح من خلالها أحد أمراء آل عثمان لكـــى يتولى عرش أدرنة . ونتيجة لذلك شيد محمد الثانى قلعة كبيرة سميت "روميلى حصار" لمحاصرة القسطنطينية، كما أخذ فى فتح العديد من البلـــدان المجـــاورة للقســـطنطينية ليجعل جميع أراضى سلطنته متصلة ببعضها ، لا يتخللها أى حاجز ، هذا إلى جـــانب قيامه بتحصين مضيق البسفور لمنع أى امدادات تأتى من مملكة طرابزون لمســـاعدة البيزنطيين على فك الحصار[3] .

ثانيا : فتح القسطنطينية ٨٥٧ هـ / ١٤٥٣ م :

جذبت القسطنطينية أنظار العالم من كل حدب وصوب نظرا لموقعـــها الجغرافـــى الهام الذى كانت تشغله والذى يربط آسيا بأوربا عن طريق مضيق البسفور الذى يصــــل البحر المتوسط بالبحر الأسود عن طريق بحر مرمرة ، ويشكل مضيق البســفور أهميـــة كبيرة حيث إن أقرب مسافة فيه بين الشاطئين ألف متر فقط .

قال نابليون بونابرت عن مدينة القسطنطينية "لو كانت الدنيا مملكة واحدة لكـــانت القسطنطينية أصلح المدن لتكون عاصمة لها[4]" .

وقال عنها مؤلف كتاب دليل الآستانة "إن المسافر إلى تلك العاصمة بحرا لابد لـــه من المرور فى أحد البوغازين : بوغاز القلعة السلطانية الذى يقال له الدردنيل ، وبوغـاز الآستانة الذى يقال له البسفور ، والآستانة قائمة على مفرق البرين أوربا وآسيا ، ويفصل بينهما من الجنوب بوغاز الدردنيل ومن الشمال البسفور الجميل .. وبين البوغازين بحـر صغير هو بحر مرمرة ، وهذا البحر يتصل شمالا بالبحر الأســـود ... وجنوبـــا ببحـــر الأرخبيل – وهو جزء من البحر الأبيض المتوسط[5] .

---

١ – أحمد عبد الرحيم مصطفى: فى أصول التاريخ العثمانى ، بيروت ، دار الشروق ، ص ٦٥ .
٢ – عبد العزيز نوار : الشعوب الإسلامية ، بيروت ، ١٩٧٣م ص ٤٨ .
٣ – محمد فريد : المرجع السابق ص ٥٩ .
٤ – على حسون : تاريخ الدولة العثمانية ، دمشق ، المكتب الإسلامى ، ١٤٠١هـ/١٩٨٢م .
٥– م . شكرى : دليل الأستانة ، الاسكندرية ، ١٩٠٩م ص ٣-٤ .

وتميزت القسطنطينية أيضا بحصانة أسوارها العديـــدة إذ إن هنـــاك ســورين مــن أسوارها طولهما أربعة أميال بين شواطيء بحر مرمرة والقـــرن الذهبـــى ، أمـــا الســور الداخلى فارتفاعه يبلغ خمسة وعشرين قدما ، ويوجد بين الســورين الداخلـــى والخـــارجى فضاء ترابى يصل عرضه إلى ستين قدما ويوجد بالسور الخارجى عدة أبواب منـــها بـــاب أدرنة وباب المدفع (طوب قبو) والباب العسكرى[1].

ولقد مر فتح القسطنطينية بعدة مراحل هى : -

أ - مرحلة الحصار :

وقد بدأ السلطان محمد الفاتح التأهب والاستعداد التام لفتح القسطنطينية قبـــل عـــام كامل من بداية حصاره لها حيث قام بمحاصرة أبواب المدينة الثلاثة الكبرى[2] . وعقد محمد الفاتح عدة اتفاقيات مع حكام الدول المجاورة له ، ثم قام ببناء قلعة هامة علـــى شـــواطيء البسفور فى يابس أوربا وأطلق على هذه القلعة اسم "روم إيلى حصار" وكان موقعها علـــى مسافة تقدر بسبعة كيلو مترات قرب القسطنطينية . وقصد الفاتح من بناء هـــذه القلعـــة رد أى محاولة لوصول الامدادات للبيزنطيين ، وقد شارك الفاتح عمال البناء فى تشـــييد تلـــك القلعة التى انتهى العمل بها فى شهر شعبان من عام ٨٥٦هـــ الموافق ١٤٥٢م ، وكـــانت هذه القلعة مثلثة الشكل ، وفى كل زاوية منها برج كبير للمراقبـــة ، كمـــا نصبـــت عليـــها المجانيق، والمدافع الضخمة لمنع السفن المعادية من المرور إلا بعد تفتيش دقيـــق ودفـــع الضريبة المقررة[3] . ونتيجة لذلك بدأ الامبراطور قسطنطين الحادى عشر يشـــعر بـــالخطر المحدق، وأن زوال عاصمته فى طريقه إلى التحقيق ، فحاول تدارك الأمر بأن أرســـل إلـــى محمد الفاتح بموافقته على دفع الجزية ، وبأن يتزوج مـــن والدتـــه[4] ، ولكـــن الســـلطان العثمانى رفض كل هذه المساومات وآثر عليها فتح المدينة ، مما اضطر قســـطنطين إلـــى طلب المعاونة من ملوك وحكام أوربا لردء الخطر المحدق على بلاده[5] .

---

١ - عبد السلام فهمى : المرجع السابق ص ٨٦-٨٨ .

٢- سيد رضوان على : السلطان محمد الفاتح بطل الفتح الإسلامى فى أوربا الشرقية ، جدة ، الدار السعودية للنشر ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م ص٢٤ .

٣- عبد السلام فهمى : المرجع السابق ص ٧٣-٧٧ .

٤- أرملة مراد الثانى التى ظلت على نصرانيتها ، وكانت آنذاك تناهز الخمسين من عمرها .

٥- على حسون : المرجع السابق ص ٣٣-٣٤ .

ب - مرحلة الاستعدادات :

طاف المخترع المجرى المدعو "أوربان" أشهر صانع للمدافع فى زمانه ببعض بلـدان أوربا يعرض على حكامها وملوكها اختراعاته[1] فلم يلتفت إليه أحد بما فى ذلك الامـبراطور البيزنطى قسطنطين المحاط بالخطر الإسلامى .

ولما عرض أوربان اختراعاته على السلطان محمد الفاتح مده بالمال ، وقبل تنفيذ اختراعـه ، ووفر له كل متطلباته فقام أوربان بتصميم مدافع ضخمة كان من أبرزها مدفع كبير يـزن ٧٠٠ طن ، وتزن قذيفته ١٢ ألف رطل ، ويجره ١٠٠ ثور ، و ١٠٠ رجل من الأقويـاء[2] ليتمكنوا من سحبه ، وكان مدى مرماه أكثر من ميل[3] ، وكان يلـزم لـه نحـو سـاعتين لسحبه[4] . وقد قطع هذا المدفع المسافة بين أدرنة والقسطنطينية فى شهرين.

وقد أسمت المصادر الافرنجية هذا المدفع باسم المدفـع السـلطانى أو "المحمديَّـة" "Mohametta"[5] . يضاف إلى ذلك أن محمد الفاتح تمكن من بناء مجموعة من السـفن، ووضعها فى بحر مرمرة لتكون حاجزا لسد مضيق الدردنيل ، ووصل عددها ما بيـن ٢٥٠-٤٠٠ سفينة . وأمام هذه الاستعدادات الواضحة من قبل العثمانيين اضطر قسـطنطين إلـى الاستنجاد بملوك أوربا وحكامها وكان من بين الذين لبوا طلبه أهالى جنوة، فأرسـلوا إليـه أسطولا بحريا بقيادة جستنيانى[6] ، وقد كلفه الامبراطور قسطنطين بمهمـة الدفـاع عـن الأبواب الهامة والنقاط الخطرة .

وخلال ذلك الوقت تمكن محمد الفاتح من عقد الصلح مع أمراء المناطق المجاورة لـه ، وظل حوالى ثمانية أشهر كاملة يجمع المواد والمـؤن والرجـال ويدربـهم ، واسـتعان بمجموعة من الصناع ليصنعوا له الأسلحة والمدافع ثـم بـدأ بعـد ذلـك فـى محاصرتـه للقسطنطينية بواسطة مائة وأربعين ألف مقاتل[7] .

١- سالم الرشيدى : محمد الفاتح ، بيروت ، دار العلم للملايين ، ١٩٦٩م ص ٩٠ .

٢- على حسون : المرجع السابق ص ٣٤ ، وذكر لوثروب ستودارد أن العدد كان ٧٠٠ رجلا . انظر حاضر العالم الإسلامى - ترجمة عجاج نويهض - المجلد الأول جـ٢ ، البابى الحلبى ١٣٥٢هـ ص٢٢٠.

٣- محمد فريد : المرجع السابق ص ٥٩ .

٤- لوثروب : المرجع السابق جـ٢ ص ٢٢٠ .

٥- سيد رضوان على : المرجع السابق ص ٢٤ .

٦- محمد فريد : المرجع السابق ص ٦٠ .

٧- ول ديورانت : قصة الحضارة ، جـ٢٣ - ترجمة عبد الحميد يونس ، القاهرة ، الادارة الثقافية للجامعة العربية ص ٣٦ . وقيل إن عدد المحاصرين بلغ ثلاثمائة ألف مقاتل .

انظر لوثروب ستودارد : المرجع السابق جـ٢ ص ٢٢٠ .

جـ - مرحلة بدء القتال :

بدأ زحف الجيش الإسلامي صوب أسوار القسطنطينية بقيادة محمد الفاتح الذى كــان فى طليعة جنوده ، وقد قسم جيشه إلى ثلاثة أقسام :

١ - الميمنة : وكانت مؤلفة من جنود الأناضول بقيادة إسحاق باشا ومحمود بــك ، وكان مركز عملياتها يمتد من الساحل الجنوبى عند بحيرة مرمرة حتى باب "طوب قبو" .

٢ - الميسرة : يتألف مجموع جنودها من جنود أوربا والمتطوعين وغير النظـاميين ويقوده "قره جه باشا" ويكون امتداد هؤلاء الجنود عند سور القســطنطينية الشـمالى فــى ميناء القرن الذهبى حتى "باب أدرنة" .

٣ - القلب : وهو مؤلف من جنود الإنكشارية إضافة إلــى الفــرق الخاصــة التــى اختارها محمد الفاتح وهى فرق انتحارية ، وكان يقود هذا الجزء من الجيش محمد الفــاتح بنفسه ، ومكان هؤلاء الجنود أمام الجزء الأوسط من السور ، ويمتد من باب طـــوب قبــو حتى يصل "باب أدرنة[1]" . وتمركز أفراد هذا الجيش أمام بوابات القسطنطينية . هــذا إلــى جانب قيام الأسطول العثمانى بتطهير بحر مرمرة من السفن البيزنطية ، واحتلالـــه لبعــض الجزر .

وبعد كل ذلك بدأت المدافع العثمانية تدك بقذائفها أسوار القسطنطينية حتــى أحدثــت فيها ثغرة تمكن البيزنطيون من سدها . وقد حاول الأسطول العثمانى محاولات جادة لتحطيـم السلسلة الحديدية التى تقع فى مدخل القرن الذهبى ولكن تلك المحاولات بــاءت بالفشــل ، إضافة إلى فشله فى التصدى لعدد من السفن التى أرسلها بابا روما محملة بالعتاد الحربــى والمؤن حيث نشبت معركة بحرية بين الطرفين كانت الهزيمة فيها فى جانب العثمــانيين[2] . وأمام هذا الفشل لم تلن عزيمة المسلمين عن السعى إلى تحقيق النصر ، وكان ذلك الفشــل دافعا قويا لهم للتمسك بالعزيمة ، ومواصلة العمل ، وهذا كان من أبرز الصفات التى اتصف بها العثمانيون[3] ونتيجة لذلك فكر السلطان محمد الفاتح فى طريقة أخرى يدخل بها ســفنه إلى داخل القرن الذهبى دون أن تعوقها السلسلة الضخمة الموجودة هناك وذلك عن طريــق نقل سفنه برا بمقدار ثلاثة أميال من بحر مرمرة حتى تصل مياه القرن الذهبى[4] عبر برزخ ترابى خلف مستعمرة "غلطة" فأمر جنوده بتركيب بعض العجلات الصغيرة فى سبعين مــن ســفنه ، كمــا أمرهــم بتعبيــد الأرض وفرشــها بــألواح خشــبية

١- عبد السلام فهمى : المرجع االسابق ص ٨٨ .

٢- سيد رضوان على : المرجع السابق ص ٢٩ ، ومحمد فريد : المرجع السابق ص ٦٠ .

٣- على حسون : المرجع السابق ص ٣٦ .

٤- محمد فريد : المرجع السابق ص ٦٠ .

مدهونة بالزيت والشحم[1] ، ثم زُلّجت السفن على طول هذا الطريق وفوق تلك الألواح ، واستطاع خلال ليلة واحدة أن يُدخل سبعين سفينة إلى تلك المياه ، وخلال ذلك كانت المدفعية العثمانية تطلق نيرانها على مدينة القسطنطينية لحماية تنفيذ تلك الفكرة[2] .
وخلال الصباح فوجىء البيزنطيون بالأمر ، وتأكدوا من نجاح العثمانيين فى محاصرتهم من كل جانب ، ومع ذلك فقد ظلوا فى دفاعهم المتواصل عن مدينتهم ، فقاد الامبراطور قسطنطين مجموعة من المقاتلين ، وأخذوا فى ترميم تحصينات مدينتهم المتهدمة ، وإعداد كافة وسائل الدفاع الممكنة عنها . وخلال ذلك أرسل السلطان محمد الفاتح إلى الامبراطور قسطنطين يدعوه إلى التسليم حقنا للدماء على أن يتعهد باعطاء الحرية الدينية للأهالى ، ولكن الامبراطور رفض ذلك وأصر على الدفاع عن مدينته حتى الموت[3] مما جعل محمد الفاتح يضاعف من نيران مدافعه ، ويأمر باستمرار الهجوم البحرى والبرى على المدينة المحصنة ، وحفر الأنفاق من تحت الأسوار ، كما أمر محمد الفاتح ببناء قلعة خشبية كبيرة جاوزت فى ارتفاعها ارتفاع أسوار مدينة القسطنطينية ، وكانت من ثلاث طبقات كسيت بالجلود المتينة المبللة حتى لا تحرقها النار .

واستمرت مدافع العثمانيين فى إطلاق قذائفها لمدة خمسين يوما فى حين كان البيزنطيون وعلى رأسهم الامبراطور قسطنطين ، وقائد القوات جستنيانى لا ينامون الليل ويواصلون العمل من أجل إصلاح كل ما يتهدم من الأسوار ، واعادة بنائه .

د – مرحلة الهجوم :

قبل بدء الهجوم عقد محمد الفاتح مجلسا حربيا فى خيمته حضره وزراؤه ، وكبار رجال جيشه ، والعلماء والمشايخ وطلب منهم الرأى فى استمرار الحصار من عدمه . فما كان منهم إلا أن قالوا "ما أتينا هنا إلا لنموت ولا نرجع[4]" وعندئذ أصدر الفاتح أوامره إلى جنوده بالصيام لتطهير نفوسهم وتزكيتها ، وأن يطلبوا من الله العون ، وتحقيق النصر وفى تلك الليلة علت صيحات التكبير والتهليل ، وقرعت الطبول[5] وأنشدت الأناشيد الحماسية ، ثم تلا الشيوخ الآيات والأحاديث التى تحض على الجهاد وتُرغّب فيه، وتفقد الفاتح قواته ، كما تفقد أسوار المدينة من الخارج ، وبدأ يعد لكل شىء عدته ،

١- سيد رضوان على : المرجع السابق ص ٢٩-٣٠ .
٢- على حسون : المرجع السابق ص ٣٤ .
٣- محمد فريد : المرجع السابق ص ٦٠ .
٤- سالم الرشيدى : المرجع السابق ص ١٢٠-١٢١ .
٥- محمد فريد : المرجع السابق ص ٦٠ .

ثم عاد إلى خيمته ، ودعا كبار رجال جيشه وخاطبهم قائلا "إذا تم لنا فتح القسطنطينية تحقق فينا حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعجزته ، وسيكون من حظنا ما أشاد به هذا الحديث ، فأبلغوا أبناءنا العساكر فردا فردا أن الظفر العظيم الذى سوف نحرزه سيزيد الإسلام قدرا وشرفا" ثم أمرهم أخيرا أن يتمسكوا بتعاليم الشريعة الإسلامية وألا يخرجوا عليها[1] فلا يمسوا الضعفاء بأذى ويتقوا الله فى أعمالهم .

وفى صبيحة الثلاثاء ٢٩ من مايو ١٤٥٣م[2] (٨٥٧ هـ) بدأ الهجوم الفعلى على القسطنطينية[3] ، ودوت الهتافات العالية تردد التهليل والتكبير . ثم بدأ الجنود يتقدمون بسرعة نحو الأسوار ، ولكنهم ردوا على أعقابهم وأنزل فيهم المدافعون عن المدينة خسائر كبيرة فى الأرواح والعتاد ، ومع ذلك فقد حققوا شيئا هاما كان يهدف إليه السلطان محمد الفاتح وهو إنهاك المدافعين واستنفاد ذخيرتهم .

ثم تبع ذلك الهجوم هجوم آخر قامت به مجموعة من قوات "العاصفة" ولكنهم أخفقوا فى مهمتهم واضطروا إلى الانسحاب ، ثم جاء الهجوم الثالث وقد قام به مجموعة كبيرة من حرس السلطان ورماته إضافة إلى ١٢ ألف جندى من الإنكشارية[4] ، وفى أثناء هذه الهجمات الثلاثة كانت المدفعية العثمانية تطلق قذائفها باستمرار ، ودون توقف من البر والبحر . وخلال ذلك استطاع أول رجل من جنود الفاتح اعتلاء السور ، وهو الجندى الانكشارى "حسن طولو" ومع أنه سقط من على السور إثر ضربة بحجر كبير ، فإنه مهد لرفقائه الآخرين الطريق حيث استطاعوا أن يشقوا طريقهم إلى الأطراف الداخلية من السور فى الوقت الذى كانت فيه مجموعة كبيرة من الجند العثمانى بقيادة محمد الفاتح تتقدم لدخول المدينة من جهة باب السيرك الذى أهمله البيزنطيون ، وقد فوجئ بهم البيزنطيون وعلت صيحاتهم تردد كلمة "Polis Healo He" ومعناها احتلت المدينة[5]. وبدأت أعلام العثمانيين ترتفع فوق الأبراج من جهة "باب أدرنة" ومن جهة السور الذى يطل على مياه القرن الذهبى ، وامتد القتال العنيف داخل شوارع المدينة ، وسقط قسطنطين آخر الأباطرة البيزنطيين متخبطا فى جراحه ، وقبله أصيب جستنيانى

١- حسون : المرجع السابق ص ٣٩ .

٢- سيد رضوان على : المرجع السابق ص ٣٢ .

٣- Edward Creasy : History of the Ottoman , P. 83 .

٤- برنارد لويس : استنبول وحضارة الخلافة الإسلامية - ترجمة سيد رضوان على - جدة ، الدار السعودية للنشر والتوزيع ، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م ص ٢١ .

٥- برنارد لويس : المرجع السابق ص ٢٢ .

قائد القوات ، وهرب إلى إحدى الجزر البعيدة عن المدينة[١] .

وبعد ساعات من إحكام سيطرة العثمانيين على الموقف دخل السلطان محمد الفاتح إلى المدينة ، وهو راكب جواده وحوله حرس الانكشارية ، وكبار رجال دولته ، وتوجه قاصدا كنيسة أيا صوفيا ، ثم نزل من على جواده ، وسجد لله شكرا على هذا النصر الكبير ، ودعا بالرحمة للشهداء من جنوده ، وبعد ذلك دخل الكنيسة وأمر بتحويلها لتكون الجامع الرئيسى بالمدينة[٢] ، ودعا أحد الأئمة ليصعد المنبر ويجهر بالعقيدة الإسلامية ، فصعد الامام معلنا "أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدا رسول الله[٣]" وبعد ذلك صليت أول جمعة فيه .

كما أمر محمد الفاتح باقامة العديد من المنشآت الإسلامية فى المدينة فتأسس الجامع المعروف باسم جامع محمد الفاتح ، وأيضا الجامع المشيد قرب ضريح أبى أيوب الأنصارى وإلى جانب ذلك أعلن محمد الفاتح عدم معارضته فى إقامة الشعائر المسيحية، وضمان حرية النصارى الدينية ، والمحافظة على أملاكهم[٤] .

وهكذا ارتفعت رايات الإسلام خفاقة على القسطنطينية وتحققت معجزة نبى الإسلام، وسطر التاريخ لمحمد الفاتح صفحات المجد والبطولة ، فأصبح أول سلطان عثمانى يطلق عليه أهل أوربا لقب السيد العظيم ، كما أصبح مجرد سماع اسمه يثير الرعب والهلع فى نفوس أعدائه .

وبعد أن وطد محمد الفاتح مركزه بفتحه للقسطنطينية أخذ يهتم بالتعمير والبناء ، ثم عاد إلى "أدرنة" فاستقبله الناس استقبالا حافلا ، وبعدها ذهب إلى "بروسه" للاستجمام والراحة استعدادا لمواصلة فتوحاته فى أوربا .

وقد استطاع محمد الفاتح أن يضم إليه بلاد الصرب واليونان والافلاق والجزر الرئيسية فى الأرخبيل وبهذا وطد سيادته فى أوربا حتى أن خلفاءه لم يفتحوا بعده بلادا مثلما تحقق على يديه[٥] .

١- سيد رضوان على : المرجع السابق ص ٣٤ .

٢- محمد فريد : المرجع السابق ص ٦١ .

٣- برنارد لويس : المرجع السابق ص ٢٣ .

٤- محمد فريد : المرجع السابق ص ٦١ .

٥- سالم الرشيدى : المرجع السابق ص ١٨٥-١٨٦ .

ونتيجة لذلك لم يكن أمام بعض المؤرخين إلا أن يتخذوا من فتح القسطنطينية فى ٢٩ مايو ١٤٥٣م بداية للتاريخ الحديث ، ونقله واضحه للعالم من العصور وأنظمتها الإقطاعية إلى العصور الحديثة .

وقد جعل الفاتح من القسطنطينية عاصمة لدولته بعد أن غير اسمها إلى اسلامبول أى تخت الإسلام أو مدينة الإسلام[١] . واستمر الفاتح يحقق الانتصارات للإسلام والمسلمين حتى توفى فى ٣ مايو ١٤٨١م[٢] ، فابتهجت أوربا بوفاته وأقامت الاحتفالات ونصبت الزينات بهذه المناسبة[٣] ، فلقد استطاع أن يهز عروش أوربا ، ونجح فى تحويل الكثير من سكان جنوب شرق أوربا إلى الإسلام ، وجعل معظم الطرق التجارية البحرية الهامة خاضعة لسيطرة العثمانيين[٤] .

١- محمد فريد : المرجع السابق ص ٦١ .

٢- Edward Creasy : OP. Cit , P. 92 .

3- عبد السلام فهمى : المرجع السابق ص ٣١ .

٤- ول ديورانت : المرجع السابق ص ٣٨ .

الموضوع الثانى

موقف الدولة العثمانية والقوى الإسلامية الأخرى من سقوط الأندلس

فى أواخر القرن التاسع الهجرى ، الخامس عشر الميلادى استمرت قواعد المسلمين فى الأندلس تتساقط تباعا فى يد أسبانيا النصرانية ، ولم يبق منها سوى مملكة غرناطة الصغيرة بمدنها وثغورها القلائل .

وبعد أن اتحدت قشتالة وأرجوان على يدى فرديناند وايزابيلا اعتزمت أسبانيا النصرانية توجيه ضربتها الحاسمة لما تبقى للإسلام فى الأندلس فتدفقت جيوشها على مملكة غرناطة التى كانت رغم صغرها وضعفها تمثل صولة الإسلام فى أسبانيا ونواة التحرك الإسلامى تجاه أوربا والذى بدأت طلائعه فى الشرق على يد الأتراك العثمانيين بعد فتحهم للقسطنطينية . وقد استغلت أسبانيا النصرانية فى ذلك الخلاف الداخلى الذى دب بين الأسر الحاكمة فى غرناطة واضطرام المنافسة على السلطة ، وغلبة نفوذ النساء على الحكام ، وانتشار الخطوب والفتن والحروب الأهلية داخلها[١] .

وفى تلك الآونة العصيبة اتجهت أبصار أمراء وأهل الأندلس إلى القوى الإسلامية المعاصرة لهم فى المشرق والمغرب معا يناشدونها النجدة والغوث إزاء الخطر المحدق بهم وكانت رسائلهم ووفودهم تصل تباعا إلى الآستانة والقاهرة ومراكش خاصة وأن هذه القوى الإسلامية كان لها مكانتها واسهاماتها فى خدمة الإسلام والمسلمين فالدولة العثمانية حقق الله على يديها فتح القسطنطينية ، وراحت قواتها تتابع فتوحاتها فى أوربا وآسيا وتنفذ بلواء الإسلام إلى أمم النصرانية فأخضعت ممالك الأفلاق والصرب والبوسنة والهرسك وألبانيا وغيرها ، وكانت بمثابة القوى القادرة القاهرة التى تفتح الممالك المسيحية باسم الإسلام ، وبوسعها أن تدفع الغائلة عن المسلمين فى أى مكان مما جعل أعناق أهل الأندلس تشرئب إليها لانقاذهم من محنتهم وليحتفظوا بالأندلس للمسلمين .

١- للتفاصيل انظر محمد عبد الله عنان : نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين جـ٤ ، القاهرة . مطبعة مصر ، ص ١٦٢ وما بعدها .

وكانت هناك دولة المماليك الشراكسة فى مصر والشام والجزيرة العربية الذين تحقق على أيديهم هزيمة المغول واجلاء الصليبيين من آخر معاقلهم بالشام ، وكانت أوربا تخشاهم ، وتعمل لسلاطينهم ألف حساب خاصة وأنهم كانوا يتحكمون فى البقاع النصرانية المقدسة وبين رعاياهم العديد من النصارى . وكان هناك حكام المغرب الأقصى الذين كانوا يتمسكون بفكرة الجهاد ، وبأهمية المحافظة على ما تبقى للمسلمين من ممتلكات فى الأندلس ، ويرغبون فى وقف أطماع الممالك المسيحية النامية فى شبه جزيرة إيبريا ، وقد تمثل ذلك فى الحملات المتتالية للمرابطين والموحدين ثم المرينيين والتى كان من أهمها قيام المرابطين بمساندة ملوك الطوائف ضد جيوش أسبانيا النصرانية فى موقعة الزلاقة ١٠٨٦م وقيام السلطان المغربى يعقوب بن عبد الحق المرينى بارسال جيش جرار فى عام ٦٧٤هـ/١٢٧٥م لمساندة أهل الأندلس فى الانتصار على نصارى أسبانيا .

ونظرا لأن أهل غرناطة وحكامها شعروا بعدم قدرتهم وحدهم على الثبات أمام أعدائهم فقد استغاثوا بهذه القوى ، وطلبوا منها العمل على انقاذهم من الخطر المحدق بهم والاحتفاظ بغرناطة للمسلمين ولكن ذلك لم يتحقق مما يدفعنا إلى البحث عن الأسباب التى أدت إلى تقاعس هذه القوى عن نصرة أخوانهم فى الدين والملة على الرغم من أن صدى الأحداث المؤسفة التى وقعت للمسلمين فى الأندلس كانت تملأ بلاط حكام القاهرة والآستانة وغيرها ، وتثير فيهم الاهتمام والعطف[١] .

وحتى تتضح لنا الأمور سنعرض لأحوال كل قوة من هذه القوى على حدة ، والأسباب التى باعدت بينها وبين مساندة أهل الأندلس .

أولا : الدولة العثمانية :

كان من الطبيعى أن يتجه أهل الأندلس إلى الدولة العثمانية بصفتها أكبر دولة إسلامية ينشدون مساعدتها عسكريا خلال صراعهم من أجل البقاء والمحافظة على الدين والملة فأرسل أهل غرناطة فى منتصف عام ٨٨٢هـ/١٤٧٧م سفارة إلى استانبول ملفتين نظر السلطان محمد الفاتح إلى حالة المسلمين بالأندلس طالبين تدخله لإنقاذهم[٢] ولكنه كان مشغولا عنهم ولم يقدم لهم النجدة . وتكررت مناشدتهم بعد وفاة هذا السلطان لابنه

١- عنان:مصر الإسلامية وتاريخ الخطط المصرية ، القاهرة ، مطبعة دار الكتب ١٣٥٠هـ/١٩٣١م ص١٣٨ .

٢- عبد الجليل التميمى : رسالة من مسلمى غرناطة إلى السلطان سليمان القانونى . المجلة التاريخية المغربية ، تونس ، العدد الثالث يناير ١٩٧٥ ص ٣٨ .

بايزيد فأرسل أبو عبد الله آخر ملوك غرناطة رسولا إليه يلتمس منه النجدة لانقاذ بلاده ، ونصرته ضد ملوك النصارى[١] كما أرسل إليه أحد شعراء غرناطة بقصيدة يصور فيها مأساة المسلمين ويستنجده لانقاذهم والدفاع عن حرمات المسلمين[٢] .

وتختلف الآراء حول مدى استجابة السلطان بايزيد لهذه الاستغاثة . فهناك من يقول إن الدولة العثمانية استجابت لنداء أهل الأندلس ، وأرسلت أسطولا إلى المياه الأسبانية لمساعدة حاكم غرناطة المحتضر[٣] . وهناك من يقول إن مشاكل السلطان الداخلية قد حالت دون ذلك خاصة وأن نزاعه مع أخيه جم على العرش وما أثاره ذلك النزاع من مشكلات مع البابوية وبعض الدول الأوربية ثم التحالفات الصليبية ضد الدولة قد جعلته يصم أذنيه عن تقديم النجدة لأهل الأندلس .

والواقع ان إرسال أسطول عثمانى لمساندة أهل الأندلس فى محنتهم لم يثبت تاريخيا وان كان هناك بعض المصادر الثانوية التى أشارت إلى ذلك[٤] . حقيقة أن الدولة العثمانية كانت تمتلك جيشا يشار إليه بالبنان ، ولكن هذا الجيش كان قوامه القوات البرية وليست البحرية . يضاف إلى ذلك أن هزائم الدولة العثمانية البحرية كانت تجعلها تحجم عن المخاطرة[٥] وتساند أهل الأندلس المحاصرين بالشاطىء ، والذين كانوا فى حاجة إلى قوة بحرية قوية وإلى جانب ذلك فان السلطان بايزيد كان ميالا للسلم أكثر منه للحرب ، وفى عهده عموما لم تحدث فتوحات تذكر .

ويميل بعض الباحثين إلى تبرئة ساحة الدولة العثمانية بالنسبة لسقوط الأندلس بحجة أنها لم تكن تستطيع أن ترسل جيوشها إلى هناك بسهولة بينما يرى البعض الآخر أن العثمانيين قصروا فى نصرة اخوانهم فى الأندلس ، ولم يسارعوا إلى نجدتهم ودويلاتهم المتهرئة تتساقط الواحدة تلو الأخرى .

١- عبد العزيز الشناوى : الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها جـ٢ ، القاهرة ، الأنجلو المصرية ، ص ٩٠٣ .

٢- شهاب الدين المقرى التلمسانى: أزهار الرياض فى أخبار عياض - تحقيق مصطفى السقا وآخرين جـ١ . القاهرة ، ١٩٣٩ ص ١٠٩-١١٥ .

٣- ستانلى لين بول : الدولة الإسلامية ، القسم الأول - ترجمة محمد صبحى فرزات ص٦٥ .

٤- ذكر ستانلى لين بول ان السلطان العثمانى ساق أسطولا لنجدة أهل الأندلس بقيادة رجلا من حاشيته اسمه جمال ولكننا لم نجد فى المصادر التاريخية ما يشير إلى هذا الأسطول أو إلى التنويه بنجدة قدمها السلطان لمسلمى الأندلس .

٥- لتفاصيل ذلك انظر الشناوى : المرجع السابق جـ٢ ، ص ٨٩٦-٨٩٨ .

والواقع ان الدولة العثمانية عقب فتح القسطنطينية فى عام ٨٥٧هـ/١٤٥٣م كانت منشغلة فى حروب متعددة مع النمساويين والألمان والمجريين والألبان والصرب والجبل الأسود واليونان وإمارتى جنوة ونابلى وغيرها ، وكان على آل عثمان إذا أرادوا إنقاذ الأندلس القيام بمغامرة غير مأمونة العواقب حيث يتركون الجبهة الأوربية ، ومنطقة الأناضول مكشوفة ويذهبون للحرب على مسافة هائلة دون استعدادات بحرية مجدية لنقل الجنود من أقصى شرق أوربا إلى أقصى جنوبها الغربى شبه جزيرة إيبريا ليحاربوا حربا وسط اقليمين كبيرين هما أسبانيا والبرتغال المدعومين من كل القوى الصليبية فى الشمال[1] .

وهكذا يتضح أن الدولة العثمانية لم تستطع لظروفها الداخلية والخارجية أن تمد يد المساعدة لمسلمى الأندلس لانقاذهم من الوقوع فى براثن الصليبية ، وبقى مسلمو الأندلس يواجهون ضراوة الموقف وحدهم .

ثانيا : دولة المماليك :

اتجه سلاطين غرناطة وأهلها إلى مصر يلتمسون معونتها أمام الخطر الصليبى المحدق ببلادهم فأرسل السلطان محمد بن يوسف بن نصر رسالة[2] إلى السلطان أحمد بن محمد بن قلاوون[3] يوضح له فيها الأحوال التى آلت إليها الأندلس وما يضمره النصارى من شر ، ويناشده المساعدة لانقاذ الإسلام بقوله "والدين غريب والغريب يحن إلى أهله والمرء كثير بأخيه على بعد محله[4] .

ويبدو أن المشاكل التى اقترن بها عصر السلطان أحمد قد حالت بينه وبين بسط يد المساعدة للأندلس ، خاصة وأن سلطنته لم تستمر سوى شهرين واثنى عشر يوما[5] . ونتيجة لذلك تكرر طلب النجدات من مصر فأرسل السلطان عبد الله بن محمد بن

١- محمود الشاذلى : المسألة الشرقية - دراسة وثائقية عن الخلافة العثمانية ، القاهرة ، مكتبة وهبة ، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م ص ٥٠-٥١ .

٢- عن فحوى هذه الرسالة انظر : المقرى : نفخ الطيب من غصن الأندلس الرطيب جـ١ - تحقيق إحسان عباس ، بيروت ، دار صادر ، ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م ص ٣٢١-٣٢٦ .

٣- أكبر أبناء الناصر محمد بن قلاوون ، تولى الحكم أواخر عام ٧٤٢هـ .

٤- نفح الطيب ص ٣٢٦ .

٥- انظر محمود رزق سليم : عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمى والأدبى جـ١ ، القاهرة ، مكتبة الآداب ١٣٦٦هـ/١٩٤٧م ص ٤٣ .

نصر[١] حاكم غرناطة إلى الظاهر جقمق العلائى[٢] سلطان مصر برسالة عام ٨٤٤هـ يلتمس منه النجدة والعون ضد "الإفرنج المجاورين" والتى يمكن عن طريقها أن يتقوى بها المسلمون فى الدفاع عن أنفسهم ضد الخطر المحيط بهم[٣] وكان رد السلطان المملوكى على هذه الرسالة أن مصر بعيدة عن بلاد الأندلس ، ومن الصعب تجهيز قوات عسكرية لمساندتها لحيلولة البحر والافتقار إلى المراكب الكثيرة ووعد بمخاطبة العثمانيين[٤] فى مساعدة غرناطة ، وكان رد السفير على ذلك "يا مولانا السلطان ! نصركم الله أنت كبير الملوك والسلاطين ، وخديم الحرمين الشريفين ولم نجيء إلا إلى حضرتكم وحاشا أن تردنا خائبين" . وأخيرا وافق جقمق على تقديم معونات مالية ومعدات عسكرية إلى غرناطة[٥] . ونتيجة لاشتداد ضغط النصارى على غرناطة وقيام ايزابيلا بطلب الجزية من أميرها فى عام ١٤٧٦م واحتقار الأمير لهذا الطلب بقوله "إن دار الضرب عندى لم تعد تضرب عملة ذهبية وإنما تضرب الفولاذ" واستئناف الحرب بين الطرفين وتقدم جيوش فرديناند وايزابيلا اضطر أمير غرناطة إلى إرسال بعض مبعوثيه برئاسة الفقيه الأندلسى أبى على بن على بن محمد الأزرق إلى السلطان الأشرف أبى النصر قايتباى[٦] فى ذى القعدة ٨٩٢هـ/١٤٨٧م يستنجد به ضد المسيحيين ويستنهض عزائمه لمساندة أهل الأندلس[٧] فى قتالهم للمحاصرين لبلاده الذين أشرفوا على أخذ غرناطة[٨] .

١- تذكر بعض المصادر والنصوص الأجنبية أن سلطان غرناطة فى ذلك الوقت كان محمد بن يوسف الأيسر ، ولكننا أخذنا برأى المقريزى .

٢- تولى سلطنة مصر من عام ٨٤٢-٨٥٧هـ (١٤٣٨-١٤٥٣م) . للتفاصيل انظر السخاوى : الضوء اللامع لأهل القرن التاسع جـ٣ ص٧١-٧٤ ، وأيضا ابراهيم طرخان مصر فى عصر دولة المماليك الجراكسة ، القاهرة ، النهضة المصرية ١٩٦٠م ص ١٤٦ .

٣- لتفاصيل ذلك انظر د. عبد العزيز الأهوانى: سفارة سياسية من غرناطة إلى القاهرة فى القرن التاسع الهجرى (سنة ٨٤٤) مقال منشور بمجلة كلية الآداب جامعة القاهرة ، المجلد السادس عشر جـ١ مايو ١٩٥٤ ص ٩٥ .

٤- يقصد مخاطبة السلطان مراد بن محمد ، وكانت الصلة بينها طيبة .

٥- د. ابراهيم طرخان : المرجع السابق ص ١٤٦ .

٦- وثب إلى عرش مصر فى عام ٨٧٢هـ ، وكان عهده بداية النزاع بين العثمانيين والمماليك .

٧- أحمد مختار العبادى: دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس، الاسكندرية ، الطبعة الأولى ١٩٦٨م ص٤٦٨ .

٨- محمد بن اياس: بدائع الزهور فى وقائع الدهور جـ٢، القاهرة ، مطبعة بولاق١٣١١هـ ص٢٤٦ .

ولما لم يكن فى مقدرة السلطان المملوكى القيام بعمل عسكرى لمساندة أهل الأندلس خاصة وأنه كان يستعد لمنازلة السلطان العثمانى بايزيد الثانى ، هذا إلى جانب بعد المسافة بينه وبينهم وصعوبة المواصلة ، واحتياج الأمر لمقدرة بحرية ضخمة لم يستطع إليها سبيلا فقد حاول انقاذ الموقف عن طريق الضغوط السياسية فأرسل إلى كبير قساوسة كنيسة القيامة بالقدس يذكره بما يتمتع به نصارى الشرق من حريات وأمان على أنفسهم وعقائدهم ويطالبه بإرسال مكاتبة على يد قسيس من أعيانهم إلى ملك نابلى[1] ، وإلى بابا روما[2] للتدخل لدى ملك قشتالة وأرجوان بأن يحل عن أهل غرناطة ويرحل عنهم[3] ولا يتعرض لهم ويرد إليهم ما استولى عليه من أراضيهم ، وإلا فانه سيضطر إزاء هذا العدوان أن يتبع نحو نصارى الشرق سياسة القصاص ، ويجلب عليهم المتاعب، ويقوم بالتنكيل بهم ويمنعهم من دخول كنيسة القيامة ويقبض على أعيانهم ويهدم الأديرة والمعابد والآثار النصرانية المقدسة[4] .

ومع أن كبير قساوسة كنيسة القيامة استجاب لطلب السلطان المملوكى ، وكاتب ملك نابلى فان هذه المحاولة لم تفد بشىء .

وفى محاولة أخرى من السلطان المملوكى أمر بارسال وفد من رعاياه النصارى[5] إلى روما ونابلى ، وإلى الملكين الكاثوليكين فرديناند وايزابيلا يعاتبهم على ما يحدث لأبناء دينه فى غرناطة ، ويهددهم باضطهاد نصارى الشرق إن لم يكف عن مهاجمة غرناطة ولكن هذه المحاولة باءت بالفشل أيضا[6] وسقطت غرناطة فى صفر ٨٩٧هـ/١٤٩١م وانتهت بذلك دولة الإسلام فى أسبانيا . ومع ذلك فان وساطة المماليك وتوعداتهم لم تتوقف عند سقوط غرناطة فقد أرسل السلطان المملوكى وفدا إلى أسبانيا فى عام ١٥٠٠م للتعرف على إذا ما كان المسلمون الأندلسيون قد أجبروا على الارتداد عن

١- هو فرديناند الأول .

٢- هو البابا انوصان الثامن .

٣- ابن اياس : المصدر السابق ص ٢٤٦ .

٤- Prescott, William, H : History of the reign of Ferdinand and Isabella the Catholic, London 1895 P. 278 .

٥- تكون هذا الوفد من راهبين من جماعة القديس فرنسيس أحدهما القس انطونيو ميلان رئيس دير القديس فرنسيس فى بيت المقدس ، وقد وصل هذا الوفد إلى أسبانيا فى عام ٨٩٤هـ/١٤٨٩م أى قبيل سقوط غرناطة . انظر عنان : نهاية الأندلس ص١٦٧-١٦٨ وأيضا Prescott: op. cit P. 278 .

٦- لم ينفذ السلطان المملوكى وعيده باتخاذ اجراءات عنيفة ضد النصارى لانشغاله عندئذ بصد غارات بايزيد الثانى على حدود مصر الشمالية ، واضطراب أحوال مصر خلال هذه الفترة .

دينهم واعتناق النصرانية ، وعن مدى صحة ما تردد عن تحويل المساجد إلى كنائس ، وليخبر الملك فرديناند والملكة ايزابيلا بأن السلطان المملوكى سوف يقابل الاعتداء بمثله، ويثأر للمسلمين باضطهاد النصارى الخاضعين لحكمه[1] . وكان رد فرديناند على ذلك هـــو محاولة اقناع سلطان مصر بما يلقاه المسلمون فى الأندلس من الرعاية ، وأن يطمئنه علـــى مصيرهم .

والسؤال المطروح هل كان فى مقدرة مصر القيام بعمل عسكرى لانقاذ أهل الأندلـــس ؟

الواقع أن بعد المسافة ، وقصور امكانات المماليك الجراكسة البحرية خاصة وأنـــــهم أصحاب خيل وقوتهم برية أكثر من كونها بحرية كان السبب فى التقاعس عن انقاذ الأندلـس ، وان كان ما فعله المماليك لا يتعدى قيام مصر بمظــاهرة دوليـــة تقـــوم علـــى اســتغلال المؤثرات الدينية مما أدى إلى ترك الأندلس لمصيرها[2] .

ثالثا : المغرب الأقصى :

توالت نداءات أهل الأندلس لملوك المغرب وحكامها يلتمسون نصرتهم ويطلبون منهم الغوث والنجدة غير أن الأوضاع الداخلية التى كانت عليها بلاد المغرب خلال هذه الفـــترة ، وانقسامها إلى دويلات عدة تحاول تمزيق بعضها بعضا وازدياد النفوذ الأسبانى البرتغـــالى على السواحل المغربية كل ذلك جعل من االصعب القيـــام بــاجراءات فعالـــة لنصـــرة أهـــل الأندلس[3] وانقاذهم من المأساة التى تعرضوا لها كما حدث فى الماضى غير مرة[4] فسقطت غرناطة آخر ما تبقى من بلاد الأندلس للإسلام وطويت صفحة الحكم الإسلامى فـــى شــبه جزيرة ايبريا .

وبعد هذا العرض لمواقف القوى الإسلامية من الأندلس أثناء محنتها يطـــرح ســؤال نفسه لماذا لم تتآزر القوى الإسلامية وتتفق على خطة موحـــدة لمســـاندة أهـــل الأندلـــس وانقاذهم من السقوط بعد أن داهم العدو ساحتهم ومد الصليب ذراعيه إليهم على الرغم من أن القرآن الكريم والسنة النبوية يحضان على ذلـــك فيقـــول تعـــالى "إن الله يحب الذين

١- مؤلف مجهول: وثيقة أندلسية عن سقوط غرناطة - ترجمة محمد عبد الله الشرقاوى ، القاهرة ، دار الهداية ص ١٢-١٣ .

٢- عنان : مصر الإسلامية ص ١٤٣ .

٣- الشناوى : مرجع سابق جـ٢ ص ٩٠٤ .

٤- Irving, Wilegends of the conquest of Spain P.P 220-221 .

يقاتلون فى سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص" ، ويقول الرسول الكريـم "من اغبرت قدماه في سبيل الله حرمها الله على النار" و "من جهز غازيا في سبيل الله فقد غزا" .

الواقع أن العلاقات بين القاهرة والآستانة خلال هذه الفترة كـان يسـودها القطيعـة والجفاء خاصة وأن العثمانيين كشفوا مرارا عن نيتهم فى غزو مصر ، ممـا جعـل حكـام مصر يقفون منهم موقف الحذر المتأهب ، وينصرفون إلى الاستعداد للتقاتل بدلا من مسـاندة أهل الأندلس . يضاف إلى ذلك ما كان بين العثمانيين والصفويين فى إيـران مـن صـراع وصل مداه إلى حد أن يقوم الشاه إسماعيل الصفوى بطلب المساعدة العسكرية مـن ملـوك أوربا الذين حرصوا على توسيع شقة الخلاف بين الدولتين الإسلاميتين فتحالف البرتغـاليون مع الدولة الصفوية ضد الدولة العثمانية كما دخل الشاه إسماعيل الأول فى مراسـلات مـع الامبراطور شارلكان للتحالف ضد العثمانيين ، يضاف إلى ذلك أن الصـراع فـى المغـرب الأقصى للوصول إلى الحكم والحروب الطاحنة بين الأسر المتنافسة قـد حـال دون تقديـم المساعدات اللازمة لأهل الأندلس .

وهكذا يتضح أن السبب الرئيسى فى محنة الإسلام بالأندلس نتج عن فرقة المسـلمين وتشرذمهم ، والعداء المستحكم بين حكامهم ، ونجاح حكام أوربا فى توسيع شقة الخـلاف بين هؤلاء الحكام لدرجة أن استعان بعضهم بالنصارى ضد اخوانهم فى الدين .

وعلى أى حال فقد استوعب العثمانيون الدرس جيدا ، ورفضـوا تكـرار مـا حـدث للأندلس فى أى منطقة إسلامية أخرى واستمرت عقدة الشعور بالذنب تلاحقهم حتى واتـتهم الفرصة لاستعادة ثقة العالم الإسلامى بهم عندما طلب منهم أهل شمال أفريقية النجدة ضـد البرتغاليين والأسبان فقام السلطان سليم الأول بحسم الموقف ، ومساندة المسلمين وتثبيـت دعائم الإسلام هناك .

الموضوع الثالث

الانكشارية

لما كان الطابع العسكرى الشديد الصرامة إحدى سمات الدولة العثمانية ، لم تظفر هيئة بها بمثل الاهتمام الذى ظفر به الجيش العثمانى وخاصة أنها كانت تنظر إلى الجيش على أنه أداتها فى الفتوحات الحربية ، ووسيلتها فى حكم الأقاليم التى استولت عليها ، ودرعها فى الدفاع عن ممتلكاتها[1] لدرجة أن شبه بعض المؤرخين الجيش العثمانى بعملة نقش على أحد وجهيها لفظة الحرب ، وعلى الوجه الآخر كلمة الحكم .

وقد اعتمد قوام الجيش العثمانى على تجنيد أبناء رعايا السلطان من المسيحيين . وذلك من طريق ضريبة آدمية فرضتها الدولة على رعاياها الذين يعتنقون مذهب الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية القائمة فى استانبول سماها العديد من المؤرخين ضريبة الغلمان وسماها بعضهم "ديوشيرمه" ، فقد كان العشرات من صغار هؤلاء الرعايا يؤخذون من أهلهم ، وتتم تنشئتهم بطريقة تتسم بالصرامة والتدريب العقلى والجسمى ، كما يتم تحويلهم إلى الإسلام ثم يختار منهم من يصلح للعمل فى مشاه الجيش العثمانى ويطلق عليهم الانكشارية ومعناها الجنود الجدد ، ومعنى ذلك ان هؤلاء الجنود كانوا بمقتضى اعتناقهم الإسلام وإبعادهم عن بلادهم الأصلية وترسيخ الولاء للسلطنة فى نفوسهم يفقدون روابطهم الأصلية ، كما أنه لم يكن فى امكانهم تكوين روابط اجتماعية جديدة وخاصة أنه لم يكن يسمح لهم بالزواج ، ولم يكن لهم أقارب بين الأهالى ولم يكن يسمح لهم بأن يبتعدوا عن ثكناتهم وبذلك توثقت روح الجماعة بينهم ، كما تعمق ولاؤهم للسلطان[2] وصاروا لا يعرفون لهم أبا إلا السلطان ، ولا حرفة إلا الجهاد فى سبيل الله[3] . ولا

١- عبد العزيز الشناوى: الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها جـ١، القاهرة . الأنجلو المصرية ١٩٨٠ ، ص ٤٧١ .

٢- Adward Creasy : History of the Ottoman Turks, London 1818, P. 14

٣- محمد فريد : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، بيروت ، دار الجيل ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م ص ٤٢ .

مسكنا إلا ثكناتهم العسكرية .

وترجع فكرة فرض ضريبة الغلمان إلى وزير السلطان "أورخان" ثـــانى ســلاطين آل عثمان المسمى "هابيل الأسود" . وقد أعجب السلطان بهذه الفكرة ، ولما تجمع لديــه عــدد غير قليل من هؤلاء الغلمان سار بهم إلى الحاج بكطاش شيخ الطريقة البكطاشية ليدعو لهم بخير فدعا لهم هذا الشيخ بالنصر على الأعداء وقال فليكن اسمهم (ينى تشارى) أى الجيش الجديد ، ثم حرف هذا الاسم فى العربية فصار انكشارى ، وبـــالتدريج ازداد عـــدد هـــؤلاء وصاروا من أهم الركائز التى اعتمدت عليها الدولة فى حروبها وبسط سلطانها[1] ولكنـــهم صاروا بعد ذلك من أسباب تأخر الدولة وتدهورها . وقد بلغ عدد كتائبهم التى كانت تســمى كل منها أورطة ١٦٥ كتيبة ، ولم يزد عددهم على خمسة عشر ألف رجل[2]، وكانت هـــذه الكتائب منظمة تنظيما متشابها وتعداد كل منها متساويا ، وكانت كل منها تحت قيادة ضـــابط يدعى (الجورباجى) يساعده ستة من مرؤوسيه وعدد من ضباط الصف ، وكانت تقيـــم فـــى ثكنات تسمى أورطة) ولكل كتيبة شارة توضع على أعلامها وعلى أبواب ثكناتـــها[3] . كمـــا كانت توضع هذه الشارات على أذرعة الانكشارية وسيقانهم عن طريـــق الوشـــم . وهـــذه الشارات كانت عبارة عن سمكة أو مفتاح أو خطاف . وكان ضباطهم يلقبون بألقـــاب تـــدل على أنهم كانوا يعيشون من انعامات السلطان وأنهم كأولاده ، ومـــن ألقابـــهم "شـــوربجى باشى" و "عشى باشى" و "اوده باشى" و "سقا أغاسى" إلى غير ذلك من الألقـــاب ، وكـــانت هذه الألقاب عندهم بمثابة عنوانات خاصة بالرتب العسكرية ثم أنهم كانوا يعظمـــون قـــدور الطعام ولا يفارقونها حتى زمن الحرب ، وكانوا يدافعون عنها دفاع الجنود عـــن أعلامـــهم لدرجة أن ضياع إحدى هذه القدور كان بمثابة إهانة تلحق بأصحابـــها العـــار ، وكـــانوا إذا أرادوا إظهار عدم الرضا من بعض أوامر رؤسائهم يقلبون القدور أمام ثكناتهم[4] .

وكانت ترقيات الانكشارية تتم طبقا لقواعد الأقدمية ، وكانت الدولـــة تســـرح الذيـــن تتقدم بهم السن أو تصيبهم عاهة تقعدهم ، وفى كلتا الحالتين تقرر لهم الدولة معاشا .

١- محمد فريد : المرجع السابق ٤٢ .

٢-كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية – ترجمة نبيه أمين ومنير البعلبكى ، بيروت ، دار العلم للملايين ١٩٧٩ ص ٤٦٦ .

٣- المجلة التاريخية المغربية ، السنة التاسعة العدد ٢٥-٢٦ فى يونيه ١٩٨٢ ص ١٠١ مقال الدكتور علاء موسى كاظم تحت عنوان "مسئولية الانكشارية فى تدهور الدولة العثمانية" .

٤- محمد فريد : المرجع السابق ص ٤٢ .

وقد خصت الدولة الانكشارية بعدة امتيازات منها أنهم كانوا يتقاضون رواتبهم من خزانة السلطان ومنها منحهم حصانة تمنع السلطات المدنية من القبض عليهم ، وقيام ضباط الانكشارية بمعاقبة الأفراد المخطئين بأنفسهم . وكانت العقوبات تتفاوت بين الجلد والسجن والخصاء والاعدام ، وكانت عقوبة الخصاء توقع على معتادى الاجرام من الانكشارية أو ممن تتعدد حوادث خروجهم على قواعد الانضباط العسكرى فيأمر رئيس الانكشارية باجراء عملية الخصاء الجزئى أو الكلى لمن يحكم عليهم بذلك وبمقتضاها يفقد الانكشارى رجولته ويلتحق بالخدمة الداخلية فى القصر السلطانى .

وكان رئيس الانكشارية ويطلق عليه أغا الانكشارية أو بالمصطلح التركى (ينى شرية أغاسى) من أبرز الشخصيات فى الدولة العثمانية إذ كانت القوات العسكرية التى تحت قيادته تعد أقوى أداة عسكرية فى سلاح المشاة تحت تصرف السلطان[١] ، كما أنه كان يعمل أيضا مديرا للشرطة فى استانبول وبجانب ذلك فإنه كان بحكم منصبه عضوا بمجلس الدولة ، كما كان مقدما على كل قواد الدولة[٢] .

وترجع أهمية الانكشارية إلى عوامل عدة منها : كفاءتهم القتالية ، وشجاعتهم المفرطة ، ووفرتهم العددية ، وضراوتهم فى المعارك الحربية ، فكانوا يشكلون ثقلا حربيا أساسيا فى الحروب التى خاضتها الدولة العثمانية دفاعا أو هجوما سواء فى آسيا أو أوربا أو افريقية .

وقد ترجع ضراوة الانكشارية فى القتال وخشونتهم وجفاء طباعهم إلى الصرامة التى اتسمت بها تربيتهم وخاصة أنهم كانوا يفتقدون جو الأسرة التى تزكو فيه شتى مشاعر الحب والعطف والحنان فنشئوا مجردين من جميع المؤثرات الإنسانية التى تساعد على تهذيب الطباع ، وتركز اهتمامهم على الاستبسال فى الحروب واسترخاص الموت . وكان الانكشارية غالبا ما يأخذون أماكنهم فى طليعة الجيش وقلبه فى أثناء المعارك وكان السلطان يتخذ مكانه خلفهم وإلى جانبه بيرق الحرب . وإلى جانب ذلك كان الانكشارية يتبعون السلطان فى تنقلاته وخصوصا أن بعضهم كانوا يؤلفون الحرس السلطانى[٣] وقد جعلهم ذلك يشعرون بمكانتهم .

وبقيت كتائب الانكشارية سندا وعونا للدولة فى فتوحاتها ومواجهة أعدائها ، واستطاعت الدولة عن طريقهم أن تمضى قدما فى سياسة التوسع ومواجهة أقوى جيوش

١- الشناوى : المرجع السابق ص ٤٨٢ .

٢- هاملتون جب وهارولد بوون : المجتمع الإسلامى والغرب - ترجمة أحمد عبد الرحيم مصطفى وأحمد عزت عبد الكريم ، القاهرة ، دار المعارف ١٩٧١م ص ٨٩ .

٣- الشناوى : المرجع السابق ص ٤٨٢-٤٨٣ .

أوربا . ثم انقلبت الأمور رأسا على عقب بعد أن استشرى نفوذ الانكشارية وداخلهم الغـرور ، وأخذوا يتسلطون على أمور الدولة ، ويزجون بأنفسهم فى أمر تعيين السلاطين، وتوالـى تمردهم بعد ذلك فصاروا ثقلا كبيرا على كاهل الدولة ، لدرجة أن بلغ بـهم الأمـر أنـهم لا يسمحون للسلطان الجديد بارتقاء أريكة الحكم قبل أن يغدق عليهم العطايا التى أطلق عليـها كلمة البخشيش . وإلى جانب ذلك بدأت ظاهرة تدخل الانكشارية فى المسائل السياسية منـذ عهد السلطان بايزيد الثانى ١٤٨١-١٥١٢ ، وظهر تمردهم على السلطان سليم الأول فـى أثناء محاربته للصفويين فى فارس ومطالبتهم له بوقف العمليات الحربية بحجة الاكتفاء بما حققوه من انتصارات فاضطر إلى العودة إلى بلاده استجابة لضغوطهم[١]، وتكررت حـالات التمرد بعد ذلك . وإلى جانب ذلك تمادوا فى مطالبهم غير المشـروعة كلمـا آنسـوا مـن السلطان الحاكم ضعفا ، ووصل بهم الأمر أنهم كانوا يعزلون السلاطين والصـدور العظـام والوزراء وكبار رجال الدولة ، ويقتلون بعضهم ، ويتدخلون فى تعيين غيرهم فى المنـاصب التى تخلو بقتل أو عزل شاغليها .

وازدادت مخاطر الانكشارية تفاقما عندما قررت الحكومة العثمانية تطوير جيوشـها بعد الهزائم التى حاقت بها وذلك بادخال النظم العسكرية الحديثة التى أخـذت بـها الـدول الأوربية فى جيوشها ، فقد عارض الانكشارية ادخال مثل هذه النظم معاضة شديدة، وكـانوا أكبر عقبات الاصلاح العسكرى فى الدولة العثمانية ، لاعتقادهم أنها ستؤدى إلى إدماجهم أو ذوبانهم فى الفرق العسكرية الجديدة ، وبدأوا فى اعلان تمردهم وعصيانـهم فـى وجـوه السلاطين ، فاغتالوا السلطان سليم الثالث فى عام ١٨٠٨ لاصـراره علـى إدخـال النظـم العسكرية الحديثة بين صفوفهم ، ونجحوا فى إجبار عدد من السلاطين علـى إلغـاء هـذا النظام الجديد ، ولم يقتصر الأمر على ذلك بل امتدت شـرور الانكشـارية إلـى المدنيـين فاقتحموا بيوتهم وانتهكوا أعراضهم ، وعمدوا إلى حرق الأحيـاء التـى تقـف أمامـهم ، وهاجموا المحلات التجارية ، وبعد أن فاض الكيل وأصبح الانكشارية أشد عنـاصر الفسـاد فى جسد الدولة ، رأت الحكومة إبعادهم عن العاصمة فأمرت بتوزيع فيالقهم على الحـدود، كما سمحت لهم بالزواج لشغلهم بمشكلات الحياة الزوجية ، وأذنت لـهم بممارسـة بعـض الحرف والاشتغال بالتجارة فى أوقات السلم ، ومع كل ذلك فقد ظل الانكشارية مركز قـوة[٢] . ولما تولى السلطان محمود الثانى العرش ١٢٢٣هـ (١٨٠٨-١٨٣٩م) أدرك أنـه لـن يتمكن من وقف طغيان الانكشارية إلا باصلاح أحوال الجيش ، فجمع أعيان الدولـة وكبـار ضباط الانكشارية فى بيت المفتى وقام الصدر الأعظم سليم

١- جلال يحى : العالم الإسلامى الحديث والمعاصر جـ١ ، الاسكندرية ١٩٨٢ ص٥٨٦-٥٨٧ .

٢- الشناوى : المرجع السابق ص٤٩٤-٥٠٢ .

أحمد باشا خطيبا فبين الحالة التى وصلت إليها الانكشارية من الضعف والانحطاط والقصور فى فنون الحرب الجديدة ، وبين ضرورة إدخال النظم العسكرية الحديثة . ثم أفتى المفتى بجواز العمل بمقاومة المعارضين له ، وقد وافق كبار ضباط الانكشارية على إدخال النظم العسكرية ظاهرا وأبطنوا خلاف ذلك إذ سرعان ما ثاروا عند تنفيذ هذه الاصلاحات وخاصة أنها ستفقدهم سلطانهم ، فجمع السلطان العلماء وأخبرهم بنية التمرد فشجعوه على إبادة الانكشارية ، لذلك استعد لقتالهم ، وأمر بأن تحيط المدفعية بميدان (آت ميدانى) الذى اجتمع فيه العصاة وأن توجه قذائفها عليهم ، وقد حاول الانكشارية الهجوم على المدافع ولكنها أحرقتهم بلهيب نيرانها فهربوا إلى ثكناتهم طلبا للنجاة فأحرقت وهدمت فوقهم وبذلك قضى على قوتهم بصفة نهائية ، وقضى معهم على فرقة البكتاشية الصوفية التى كانت تساندهم ، وصدر مرسوم سلطانى بإلغاء فئة الانكشارية وملابسهم واصطلاحاتهم وإعدام كل من تبقى منهم وكان ذلك فى التاسع من ذى القعدة ١٢٤١هـ[١].

وبذلك انفتح الطريق لبناء النظم العسكرية الحديثة فى الجيش العثمانى وأزيلت الحواجز أمام دخول الخبراء الأوربيين لتطويره .

والسؤال المطروح: هل كان القضاء على الانكشارية فى صالح الدولة العثمانية من ناحية القوة العسكرية أم كان سببا فى اضعافها وازدياد التغلغل الأوربى فى ممتلكاتها.

الواقع أن القضاء الانكشارية قد أتاح الفرصة للأوربيين وغيرهم لالحاق العديد من الهزائم بالدولة العثمانية التى بدت أمامهم شبه عارية وحررهم من الرهبة منها وكان من الأجدى بالسلاطين العثمانيين القضاء على الأسباب التى أفسدت الانكشارية وليس القضاء على الانكشارية كنظام والدليل على ذلك أنه بعد القضاء على الانكشارية بسنوات قليلة تمكنت الروسيا من الاستيلاء على العديد من المناطق والأقاليم التابعة للعثمانيين وأجبرت السلطان على توقيع معاهدات مهينة منها إجباره فى عام ١٨٢٩ على توقيع اتفاق تنفتح به أبواب الدولة العثمانية أمام الروس من ناحيتى القوقاز والدانوب ، ومن ناحية أخرى فقد تم هزيمة الدولة العثمانية فى موقعة نفارين البحرية فى عام ١٨٢٧م وتحطم أسطولها، واضطر السلطان إلى الموافقة على استقلال اليونان ، كما نجحت فرنسا فى الاستيلاء على الجزائر فى عام ١٨٣٠م ، هذا إلى جانب قيام محمد على بحملته على بلاد الشام فى عام ١٨٣٠م ونجاحه فى إلحاق العديد من الهزائم بالعثمانيين واعلان داود باشا والى العراق العصيان على الدولة .

١- على حسون : تاريخ الدولة العثمانية وعلاقاتها الخارجية ، بيروت ، المكتب الإسلامى ، ١٤٠١هـ/١٩٨١م ص ١٣٤-١٣٥

ومما سبق يتضح أن الانكشارية كانوا فى بداية نشأتهم قوام الجيش العثمانى وعماده ، وأنهم شاركوا بشكل أساسى فى الدفاع عن الدولة وخلال فتوحاتها ، وبذلوا النفس والنفيس فى سبيل اعلاء شأن الإسلام ، ولكن وضعهم سرعان ما تغير فدب الضعف والفساد فى نظامهم ، ووقفوا حجر عثرة أمام كل المحاولات الرامية إلى تحديث الجيش العثمانى كما تحولوا إلى عصابات مسلحة هدفها االاعتداء على النظام ، والتدخل فى سياسة الدولة العليا وترويع الآمنين والاعتداء على حرماتهم ، مما دفع بالسلاطين إلى القضاء عليهم .

الموضوع الــــرابع

أثر معركة ديو البحرية ٩١٤هـ/١٥٠٩م على حركة التجارة العربية

قبيل وصول البرتغاليين إلى مياه المحيط الهندى، وتمكنـــهم مـــن الـــدوران حول رأس الرجاء الصالح كان المماليك يسيطرون على التجارة الشرقية فى بحـــر العرب، والموانى الواقعة على ساحل الهند الغربى، ويدافعون عن ذمار المســـلمين، ويبسطون سيطرتهم على البحر الأحمر، ويضعون ميناء جده[١] الإســـلامى تحـــت حكمهم المباشر.

وكانت تجارة "الترانسيت" من أهم مصادر الثروة للمماليك فكـــانت الســـفن العربية تسير فى المحيط الهندى والبحر الأحمر، وتتوغل حتى "ملقا" ومـــا بعدهـــا، وتقوم بنقل تجارة التوابل إلى السويس، ثم عن طريق البر إلى موانى مصـــر علـــى البحر المتوسط حيث تنقل بعد ذلك إلى أوربا بواسطة التجـــار الايطـــاليين وبوجـــه خاص تجار البندقية وجنوه.[٢] وبمعنى آخر كان المماليك يتحكمون فى تجارة الـــهند مع موانى البحر المتوسط، وكانت البندقية وجنوه بامتيازاتها التجارية معـــهم تعـــد الوكيل الوحيد لهم فى القارة الأوربية[٣] وقد استغل سلاطين المماليك مـــرور هـــذه

---

[١]فى مطلع القرن التاسع الهجرى حل ميناء جدة الإسلامى محل ميناء عـــدن كمرســـى للســـفن القادمة من الهند والصين.

للتفاصيل أنظر: أحمد دراج: أيضاحات جديدة عن التحول فى تجارة البحـــر الأحمـــر. الموسم الثقافى للجمعية المصرية للدراسات التاريخية ١٩٦٨/٦٧، ص ١٨٥.

[٢]بعد الصراع البحرى بين جمهوريتى البندقية وجنوة فى القرنين الثانى عشـــر والثـــالث عشـــر الميلادى من أجل السيطرة على الأسواق التجارية أصبحت البندقية المحتكـــر الرئيســـى لمتـــاجر الشرق وسلعه فى أسواق أوربا.

دراج: مقال سابق، ص ١٨٨-١٨٩.

[٣]ستانلى لين بول: سيرة القاهرة- ترجمة حسن إبراهيم وآخران، ص٢٢٢

التجارة فى أراضيهم فتحكموا فى الموانى، وفى طرق القوافل، وفرضوا رسوما جمركية على كل بضاعة شرقية تصل من الخليج والبحر الأحمر إلى الموانى الواقعة بين الاسكندرية والاسكندرونة لدرجة أدت إلى بيع التوابل فى القاهرة بثمن أعلى مما كانت عليه فى قاليقوط.[1] خمس مرات مما عاد على المماليك بالثراء الواسع، والربح الوفير وحقق لمصر، ولخزائن السلاطين أرباحا وفيرة. ولم يكتف المماليك بذلك بل قام السلطان "برسباى" وتبعه بعد ذلك خلفاؤه باحتكار هذه التجارة نظرا لما تعود به عليهم من مكاسب، وثروات ضخمة. وقد اقترن ذلك بطرح البضائع على تجار الافرنج جبرا، وبالسعر الذى يحدده السلطان والذى فاق فى بعض الأحيان ثمنه بأربعين مرة عن ثمنه الأصلى مما أدى إلى امتناع بعضهم فى كثير من الأحيان عن شراء ما يطرح عليهم من بضائع، وترتب على ذلك حدوث أزمات سياسية واقتصادية عديدة بين المماليك ودول أوربا التى كانت تتدخل لحماية مصالح تجارها،[2] كما دفع بعض الممالك الأوربية خاصة البرتغال الذى هالها ما كانت تجنيه مصر، ويجنيه التجار البنادقة من الضرائب على التجار بين الهند والشرق من جهة، وبين أوربا من جهة أخرى على التفكير فى البحث عن طريق آخر للتحكم فى هذه التجارة والاستفادة من ثرواتها، وأضعاف موارد المسلمين الاقتصادية وقد ساعدهم على تحقيق أهدافهم النهضة العلمية التى ظهرت فى أوربا والتى برزت آثارها حين انتهت إلى حركة الكشوف الجغرافية.

فبعد تمكن البرتغاليين من اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح فى عام ٩٠٤هـ/١٤٩٧م ، وتحويل مسار التجارة الشرقية إليه ثم الوصول إلى شاطئ ملبار، نزلت بالمسلمين ضربة قاصمة حيث بدأ مركزهم الاقتصادى كطريق رئيسى للتجارة بين الشرق الأقصى والغرب يهتز، مما آذن بالقضاء على تجارتهم فى

[1] تكتب أحيانا كاليكوت، وأحيانا أخرى قليقوت وتسمى حاليا كلكتا.
[2] دراج: مقال سابق، ص.ص ١٨٥-١٨٦.

الشرق الأقصى، وانتقال مراكز التجارة الشرقية إلى البرتغاليين، وتحويـل السـيادة التجارية والبحرية إليهم.[١]

ولإحكام الحصار على التجارة العربية طلب البرتغاليون من السامرى حـاكم قاليقوط عدم التعامل مع العرب أو الإتجار معهم وعرضوا عليه شراء ما كان يبيعـه لهم بثمن أكثر مما كانوا يشترونه به.[٢] ولما رفض مطلبهم أجبروه بـالقوة علـى تنفيذه، كما فرضوا عليه غرامة كبيرة[٣]

وفى أعقاب ذلك بدأوا فى التحـرش بالتجار المسلمين فـاغرقوا سـفنهم، وكانت إحداهما سفينة تابعة للسلطان الغورى، ومحملـة بـالتوابل، وعلـى وشـك الإبحار إلى جدة، كما ضربوا مدينة ملبـار بالمدافع، وأغرقوا السفن الموجودة بـها ثم اقلعوا إلى بلادهم حاملين الغنائم والإسلاب.[٤]

وإلـى جانـب ذلك أرسـل ملـك البرتغـال القـائد "فرانسـواد الميـدا" François d'Almeida بالأساطيل والرجال والعتاد، "وأخضعوا بـلاد كجـرات، وسواحل دكن، وجزيرة هرمز الواقعة فى فم خليج العجم، وأخذت سفنهم تمخر فيمـا بين البصرة وعدن، وتتعدى على كل سفائن مصر والعـرب التجاريـة وتنهبـها، وتستولى عليها، وبذلك انقطع طريق التجارة بين الهند ومصر خاصة بعـد بنائـهم قلعة فونا فى ساحل دكن.[٥]"

---

[١]أنظر ابن اياس: بدائع الزهور فى وقائع الدهور، جـ٥، ص.ص ٩٤-٩٥ وأنظر أيضا: Stands, J: Portuguese Period in East Aferica, P.P 43-45.

[٢]زين العابدين: تحفة المجاهدين فى بعض أحوال البرتغاليين، ص ٣١٧.

[٣]دفع السامرى غرامة قدرها ١٥٠٠ بهار من الفلفل (البهار عبارة عن ثلاثة قناطير أو أربعة) أنظر: المقتطف عدد نوفمبر ١٩١٧ ص.ص ٤٥٢-٤٥٣.

[٤]سعاد ماهر: البحرية فى مصر الإسلامية وآثارها الباقية، ١٢٧-١٢٨.

[٥]إسماعيل سرهنك: حقائق الأخبار عن دول البحار، جـ٢، ص ٣٥.

كما شن البرتغاليون حربا ضارية على المعاقل التجارية العربية، وأجبروا السفن العربية التى تعبر المحيط الهندى على دفع رسوم واتاوات كبيرة لهم ولأعوانهم من سلاطين وأمراء الهند، وعلى ضرورة حصولهم على تصريح للمرور فى مياه المحيط، هذا إلى جانب قيامهم بإيذاء المسلمين والاستهزاء بهم وبمشاعرهم، وإعلانهم العزم على مهاجمة الأماكن الإسلامية المقدسة فى الحجاز وتخريبها.

ولم يكتف البرتغاليون بذلك بل أرسلوا أسطولا مكونا من تسع سفن عند باب المندب فى عام ٩٠٩هـ/١٥٠٣م لمنع دخول الأسطول المملوكى من بحر الهند، ولصد السفن التجارية القادمة من الهند إلى الموانى المصرية.

ونتيجة لذلك تحولت التجارة الدولية عن مصر، وتحول مجرى تجارة الشرق الأقصى من مصر والشام والبحر المتوسط إلى المحيط الأطلسى حول شواطئ القارة الأفريقية[١]

ومن هنا كان لابد من وقفة حازمة، وكان لابد للتجار العرب من البحث عن سند قوى يشد من عضدهم. وقد اتجهت الأنظار إلى السلطان المملوكى قانصوه الغورى بصفته أكثر الحكام المسلمين تأثرا بتحويل طريق التجارة الشرقية عن بلاده، ولمقدرة بلاده البحرية فى التعامل مع البرتغاليين خاصة وأن العثمانيين كانوا مشغولين بفكرة توسعهم نحو الشرق. كما كانت الدولة الصفوية مشغولة بنزاعها المذهبى يضاف إلى ذلك أن كلا منهما لم يكن يمتلك أسطولا قويا فى منطقة الخليج يمكنه دفع خطر البرتغاليين.

[١]سعاد ماهر: مرجع سابق، ص ١٢٨-١٢٩.

ونتيجة لذلك طلب بعض حكام الهند والعرب الذين تربطهم بمصر روابط تجارية مثل ناصر الدين مظفر شاة سلطان كجرات، وعامر بن عبد الوهاب حاكم اليمن[1] طلبوا المعاونة من السلطان الغورى لمواجهة خطر البرتغاليين الذين عاثوا فى سواحل بلادهم فسادا حتى يمكن دفع ضررهم عن التجار المسلمين[2].

وقد رحب السلطان الغورى بهذا الطلب خاصة وأن مصالح بلاده الاقتصادية والمالية قد تأثرت إلى حد كبير. هذا إلى جانب رغبته فى جهاد البرتغاليين، ومساندة المسلمين الذى هدد البرتغاليون ديارهم ومقدساتهم.

وقد بذل الغورى جهودا كبيرة من أجل اعداد أسطول ضخم على وجه السرعة لسحق قوة البرتغاليين فى بحر العرب وطلب من السلطان العثمانى بايزيد،[3] ومن جمهورية البندقية المساعدة لكسر شوكة البرتغاليين. وقد تمكن الغورى من إعداد أسطول مكون من ثلاثة عشر سفينة حربية، وألف وخمسمائة مقاتل بقيادة الأمير " حسين الكردى"[4]

وإلى جانب ذلك لجأ السلطان الغورى إلى الطرق الدبلوماسية فى محاولة منه لوقف اعتداءات البرتغاليين على التجار المسلمين فكلف الراهب الأسبانى "موروس Maurus " حارس دير جبل صهيون بالقدس بالذهاب إلى أوربا حاملا رسائل إلى كل من دوق البندقية، والبابا، وملك اسبانيا، وملك البرتغال هدد فيها بطرد جميع النصارى من سلطنة المماليك، وهدم أماكنهم فى القدس. وبناء على ذلك كتب البابا "بيوس" الثانى إلى الملك "عمانويل الثانى" ملك البرتغال يحضه على العدول عن مشروعاته فى الهند حتى لا يتعرض نصارى الشرق للضرر إلا أن ملك البرتغال أقنع البابا فى كتابه المؤرخ ٩١١هـ/١٢يونيو ١٥٠٥ بعدم جدية

---

[1] سرهنك: مرجع سابق، جـ٢، ص ٣٥.

[2] ابن إياس: مصدر سابق، جـ٤، ص ١٨٥.

[3] لم يمد العثمانيون السلطان الغورى سوى بمساعدات محدودة، كما ان القوى الإسلامية فى عدن وصنعاء ومكة كانت لا تملك سوى الدعاء للأسطول بالنصر، هذا إلى جانب قيام حاكمى مسقط وهرمز بتفضيل مصالحها الخاصة على المصلحة الإسلامية العامة.

انظر: عبد العزيز نوار: الشعوب الإسلامية، ص ١٣٦.

[4] زين العابدين: تحفة المجاهدين ، ص.ص ٤٠-٤١.

تهديدات السلطان الغورى، وإلا يعيرها اهتماما، خاصة وأن الإيرادات الكبيرة التـى يحصل عليها السلطان من حجاج الأماكن المقدسة تحول بينه وبين ما يهدد به.[1]

ونتيجة لفشل محاولات الغورى السياسية لم يجد بدا من اللجوء إلى الحـرب لفتح طرق التجارة إلى بلاده لذلك طلب من الأمير حسين الكردى اســتكمال بنـاء الأسطول ومواصلة الاستعدادات الحربية.

وقد أقلع الأسطول المملوكى بقيادة " حسين الكردى" إلى الـــهند لاجتثـاث الخطر البرتغالى وانضمت إليه السفن الإســلامية وآزره البنادقـة الذيـن تـأثرت تجارتهم بتحويل البرتغاليين لتجارة الهند. وقد تمكن الأمير " حسين الكـردى" مـن مباغته الأسطول البرتغالى قرب "شول" Chaul على الشاطئ الغربى للـــهند فـى (رمضان ٩١٣هـ/يناير ١٥٠٨م) وانتصر عليه وغنم منه غنــائم كبـيرة[2] وقـد وصف المؤرخ المصرى ابن إياس ذلك بقوله "ورجع الأمير حســين تخفـق علـى هامته، وعلى صوارى أسطوله المصرى رايات الظفر، وأعلام النصر".[3]

وتوجه "حسين الكردى" بعد هذه المعركة إلى جزيرة " ديــو" وطلـب مـن حاكمها "مالك إياس"[4] المساعدة لإصلاح سفنه.[5]

ولم يستسلم البرتغاليون للهزيمة بل تمكنوا من تغيــير الموقـف العسـكرى لصالحهم واسترداد زمام المبادرة من المسلمين، وتمكنوا بقيادة "تونوفــاز بـيريرا" Nunno Voz Pereira من الثأر لأنفسهم فبعد معركة عنيفة شارك فيها أســطول السامرى، وأسطول كجرات بجانب الأسطول المملوكى استطاع الأسطول البرتغالى

---

[1] للتفاصيل انظر: احمد زكى باشا: المقال السابق، ص.ص ٤٥٧-٤٥٨.
[2] إبراهيم طرخان: مصر فى عصر دولة المماليك الشراكسة، ص ٢٩٦.
[3] ابن اياس: مصدر سابق، حوادث شعبان ٩١٤هـ/ ص ١٤٢.
[4] هذا اللفظ يستعمله: أهل الهند بمعنى ملك أو أمير.
أنظر: صفحة من تاريخ التجارة، مقال سابق، ديسمبر ١٩١٧، ص ٥٤٩.
[5] ابن اياس: مصدر سابق، ص ١٤٢.

القيام بمفاجأة الأساطيل الإسلامية من الخلف والانتصار عليها عند ديو في عام ٩١٤هـ/فبراير ١٥٠٩ فقتل العديد من بحارة حسين الكردى[١] وهى المعركة التى أطلق عليها معركة ديو البحرية.

وبتحطيم الأساطيل الإسلامية فى تلك المعركة أصيبت المقاومة المملوكية فى الصميم مما أدى إلى استفحال الخطر البرتغالى.

وبهذا الإنتصار تمكن البرتغاليون من تثبيت أقدامهم فى المحيط الهندى، واستطاعوا التحكم فى تجارة التوابل، وراقب أسطولهم مداخل البحر الأحمر لمنع السفن الإسلامية من التحرك فيه كما شددوا حصارهم على الخليج حتى لا تصل التوابل إلى المماليك يضاف إلى ذلك أنهم قاموا بالإستيلاء على عدد من السفن اليمنية[٢] وحاولوا الإستيلاء على عدن (١٥١٣) والوصول إلى ميناء جدة[٣] والتحالف مع الأحباش بهدف تطويق العالم العربى من ناحية الجنوب، وتحويل مصب النيل إلى البحر الأحمر لتجويع مصر[٤] وتهديد الأماكن المقدسة فى الحجاز.

ونتيجة لخطورة الموقف، وتعطيل حركة التجارة تماما بين مصر والهند شرع السلطان الغورى فى بناء أسطول جديد[٥] كما قام بتحصين ميناء جدة. وإلى جانب ذلك تمكن أهالى عدن من الصمود أمام هجمات البرتغاليين مما أفشل محاولاتهم، كما فشلت محاولات البرتغاليين فى التحالف مع الأحباش نتيجة لاختلاف مذهبيهما الدينى وتباين وجهة نظر كل منهما.

وقد ترتب على معركة ديو البحرية آثار بعيدة المدى على التجارة العربية يمكن إجمالها فيما يلى:-

---

[١] حول تفاصيل هذه المعركة أنظر زين العابدين: تحفة المجاهدين، ص ٤١. علما بأن حسين الكردى لم يقع فى قبضة اعدائه بل تمكن من الرجوع إلى مصر مع فلول الأسطول المهزوم.

[٢] Kammerer, A: La Mer Rouge, Tome, P. 155

[٣] قطب الدين النهروالى: البرق اليمانى فى الفتح العثمانى، ص ١٩.

[٤] سرهنك: مرجع سابق، جـ٢، ص ٣٦.

[٥] ابن إياس: بدائع الزهور، جـ٤، ص ٢١٢.

١- تحويل حركة التجارة العالمية من البحر الأحمر والخليج العربى إلـــى رأس الرجاء الصالح[١]

٢- فقدان مصر لمكانتها التجارية، وانتقال هذه المكانـــة إلـــى لشـــبونة التـــى أصبحت هى القابضة على زمـــام التجـــارة الهنديـــة، وتوطيـــد مركـــز البرتغاليين على الساحل الهندى، والقضاء على نفـــوذ التجـــار المســـلمين هناك.

٣- تعرض سفن الحجاج المسلمين لمخاطر هجوم البرتغاليين عليها عند مداخـــل البحر الأحمر، والاستيلاء عليها ونهب ما فيها.

٤- انهيار تجارة البنادقة، وتدهور مركزهم المالى بعد اغلاق البحـــر الأحمـــر والخليج العربى فى وجههم ثم تهافتهم بعد ذلك على تأسيس محال تجاريـــة لهم فى لشبونه للتعامل مع أسواق البهار.

٥- عدم تمكن السفن الإسلامية من الإبحار إلا بجواز مـــرور مـــن الســـلطات البرتغالية بعد فرض رسوم عليها، ومصادرة كل ســـفينة لا تحمـــل هـــذا التصريح.

٦- ممارسة السفن البرتغالية لأعمال القرصنة ضد السفن الإسلامية.

٧- مبالغة البرتغاليين فى إيذاء المســـلمين والاســـتهزاء بـــهم،[٢] ومحاولاتـــهم المستمـــرة اقتحام البحر الأحمر، وتهديد ثغر عـــدن، والاســـتيلاء علـــى السفن اليمنية، والاقتراب من ميناء جدة بهدف الوصـــول إلـــى الأمـــاكن المقدسة فى الحجاز[٣] والعبث بمقدسات المسلمين فى مهبط الوحى.

٨- انخفاض أسعار التوابل فى أوربا بشكل كبير بنسبة تصل إلى الســـتين فـــى المائة بعد التخلص من السماسرة والوسطاء ورسوم الجمارك التى كـــانت تفرض عليها من قبل المماليك.

---

[١] زين العابدين: تحفة المجاهدين، مرجع سبق ذكره.

[٢] Kammerer, A: Op. Cit , P.P 157-230

[٣] Serjeant, R.B: The Portuguese of the South Arabian Coast, P.P 30-31

٩-- انهيار موارد المماليك المالية بعد خنق تجارتهم، مما أدى إلى أفول دولتـــهم، وتمكن العثمانيين من الاستيلاء على الوطن العربى، وتحملـــهم مســـئولية المواجهة أمام البرتغاليين فى المياه العربية الجنوبية[١] وإعـــادة التجـــارة الشرقية إلى سابق عهدها. وبدأت بذلك صفحة جديدة من الصـــراع بيـــن العثمانيين والأوربيين الذين أخفقوا فى الإحلال مكان العرب فى الســـيادة الاقتصادية فانهارت أسواق الشرق العربى، وفقدت أهميتها فـــى حركـــة التجارة العالمية التى انتقلت بالتالى إلى غرب أوربا.[٢]

---

[١]سر هنك: مرجع سابق، جـ٢، ص ٣٧.
[٢]نعيم زكى: طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب، ص ١٨٧.

الموضوع الخامس

العثمانيون والعالم العربى

ا العثمانيون بين قوتين

فى بدايات القرن العاشر الهجرى ، السادس عشر الميلادى تزعم العالم الإسلامى ثلاث قوى متميزة وهى: دولة المماليك فى مصر والشام والحجاز واليمن ، والدولة الصفوية فى فارس ، والدولة العثمانية فى الأناضول والبلقان . وقد استطاعت أن تمد سيطرتها إلى المجر .

ولما كانت كل قوة من هذه القوى تخشى على نفسها من تعاظم القوتين الأخريين فقد عمل كل طرف من هذه الأطراف على إيجاد عملية توازن مع الطرفين الآخرين حتى لا يشكل أحدهما خطرا عليه . وعلى الرغم من ذلك فإن الصدام بين هذه القوى كان متوقعا ، وكان الحذر المشوب بالقلق ينتاب كلا منهم تجاه الآخر . وانتهى الأمر بتحول الجهاد الإسلامى ضد النصارى إلى حروب فيما بين المسلمين أنفسهم ، وفيما يلى نعرض لهذه الأطراف الثلاثة ، والصراع الذى حدث بينهم وانتهى بانتصار العثمانيين .

أولا : الصفويون : -

ينتسب الصفويون إلى الشيخ صفى الدين اسحق الأردبيلى[1] (٦٥٠-٧٣٥هـ) (١٢٥٢-١٣٣٤م) وقد بدأ نفوذهم يبرز فى إيران خلال القرن التاسع الهجرى وكانوا يقولون بامتداد نسبهم إلى الحسين بن على بن أبى طالب[2] من جهة ، وإلى يزدجرد الساسانى من جهة أخرى ، وقد أسس أحدهم وهو إسماعيل الصفوى دولتهم فى أذربيجان عام ٩٦٠هـ/١٥٠٠م ثم بسط نفوذه فى شروان والعراق والأوزبك وفارس واتخذ من تبريز[3] عاصمة لدولته .

١- أردبيل فى أزربيجان .

٢- لتفاصيل ذلك انظر د. ربيع جمعه : الشاه إسماعيل الكبير ، بيروت، دار النهضة العربية ١٩٨٠ .

٣- تقع فى الشمال الغربى من ايران بالقرب من الحدود التركية .

وما إن تم لإسماعيل الصفوى بسط نفوذه على إيران كلها حتى كشف عن عزمه على إعلاء شأن الشيعة[١] فأعلن أنه سليل الإمام السابع[٢] . كما أعلن أن المذهب الشيعى هو دين الدولة . ولكى يحقق أهدافه فى تحويل إيران إلى المذهب الشيعى رأى أن القوة السياسية يجب أن تساندها قوة عسكرية مخلصة تربطها به وشائج عقائدية متينة تجعلها مستعدة للاستماتة فى الدفاع عن معتقداتها ، ومن هنا اعتمد على القوى العشائرية المتعصبة للمذهب الشيعى حتى صارت دعامة قوية وسندا للأسرة الصفوية[٣] . وحارب إسماعيل الصفوى أهل السنة ، وكان أهل السنة أكثرية سكان البلاد فى ذلك الوقت[٤] وراح يحملهم قسرا على الدخول فى المذهب الشيعى ومن أجل ذلك لم يتردد فى إفناء مدن بأسرها والقضاء على العلماء والأعلام زرافات ووحدانا حين يرفضون الاستجابة لدعوته[٥]

وفى هذا الوقت الذى ظهر فيه الصفويون كان البرتغاليون يلتفون حول أفريقية ويدخلون المحيط الهندى ، ولما اتصلوا بشيعة إيران لم يجدوا صعوبة فى التعاون معهم من أجل القضاء على الأساطيل العربية ، واحتلال سواحل الخليج ، وتصفية الحكم العربى أينما وجد ، وغزو الجزيرة العربية[٦] فى نظير مساعدة البرتغاليين للشاه فى اخماد ثورة مكران[٧]

١- د. أحمد محمود الساداتى: تاريخ الدول الإسلامية بآسيا وحضارتها . القاهرة . دار الثقافة للطباعة والنشر ١٩٧٩م ص ١٥٢ .

٢- الامام السابع عند الامامية الجعفرية هو موسى الكاظم .

٣- عبد العزيز نوار: الشعوب الإسلامية ، بيروت ، دار النهضة العربية ، ١٩٧٣ ص ٢٢٠-٢٢١ .

٤- أرنولد توينبى : تاريخ البشرية جـ٢ ، ترجمة نقولا زيادة ، بيروت ، الأهلية للنشر ١٩٨٨ ص ١٨٨ وأيضا د. عبد الله محمد غريب وجاء دور المجوس - الأبعاد التاريخية والعقائدية والسياسية للثورة الإيرانية ، القاهرة ، دار الجيل للطباعة ١٩٨١ ص ٨٠ .

٥- الساداتى : المرجع السابق ص ١٥٢ .

٦- كان من أهداف غزو الجزيرة العربية قيام البرتغاليين بالاعتداء على مكة والمدينة ولكن الله حمى بيته الحرام ومثوى رسوله الأمين .

للتفاصيل انظر ل. جى. لوريمر: الكويت فى دليل الخليج ، الكويت ، الجزء الأول ، الطبعة الأولى ١٩٨١ ص١٠ .

٧- أمين سعيد : الخليج العربى فى تاريخه السياسى ونهضته الحديثة ، بيروت ، دار الكاتب العربى ص ٢٩ .

ولما كان العثمانيون يعدون أنفسهم حماة المذهب السنى فقد وجـــدوا فـــى الدعـــوة الصفوية الشيعية تحديا أساسيا لهم ، وخطرا على مستقبلهم وخصوصا أن الشاه إســـماعيل الصفوى بدأ يمد نفوذه على العراق وعلى مناطق الأوزبك[1] وشرق الأنـــاضول ، ويرســـل مئات الدعاة لنشر المذهب الشيعى هناك[2] حتى لقى هذا المذهب استجابة واسعة فى هـــذه المناطق[3] . ونتيجة لذلك غير السلطان سليم الأول - الـــذى تولـــى العـــرش بتـــأييد مـــن الانكشارية باعتباره منقذا للامبراطورية العثمانية من الخطـــر الشـــيعى - خطـــة أســـلافه بالتوسع شطر شرق أوربا إلى جنوبى الأناضول لمقاتلة الصفويين ووقف المد الشيعى تجـــاه بلاده ، فأعلن سليم الأول الحرب على الصفويين ، وزحف بجيوشه من مدينة أدرنة فى ٢٢ من المحرم ٩٢٠هـــ ، الموافق ١٩ من مارس ١٥١٤م قاصدا مدينة تبريز ، ولكى تنـــهك قوات الشاه إسماعيل الصفوى قوى العثمـــانيين بـــدأت تتقـــهقر أمامـــهم فـــى محاولـــة لاستدراجهم[4] . واستمر الصفويون فى تقهقرهم حتى دارت المعركة الحاسمة بيـــن ســـليم الأول والشاه إسماعيل الصفـــوى فـــى وادى شـــالدران (جـــالديران) فـــى ٦مـــن رجـــب ٩٢٠هــ/١٥١٤م وانهزم الفرس وانتصرت الجيوش العثمانية[5] ، بعـــد معركـــة فاصلـــة وصفها أحد المعاصرين بقوله "كان بينهما هناك وقعة مهولة تشيب منها النواصى ، وتذهـــل العقول عند سماعها من كل دان وقاص ، فصيرت الرؤوس عن الأجساد طائرة ، وطفشت[6] العساكر بالخيول الغائرة ، ووقع القتل بالسيف حتى أجرى الدماء منهم كالسيل .. فيا لـــها من ساعة مهولة ، لا ترضى الله ولا رسوله ، فوقعت الكسرة على عساكر ابن عثمـــان أولا وقتل من عسكره ما لا يحصى عددهم ... فلما عاين ابن عثمان ما وقع له من هذه الكســـرة .. قـــام علـــى عســـكره وحضـــهم علـــى القتـــال .. فانكســـر الصوفـــى وولـــى

١- كان الأوزبك يحكمون بلاد ما وراء النهر التى تضم التركستان وبخارى وسمرقند .

٢- أحمد عبد الرحيم مصطفى: فى أصول التاريخ العثمانى ، بيروت ، دار الشروق ، الطبعة الأولى ١٤٠٢هـــ/١٩٨٢م ص ٧٧ .

٣- عبد العزيز الشناوى: الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها جـــ١ ، القاهرة، الأنجلو المصرية ص١٩ .

٤- محمد فريد: تاريخ الدولة العلية العثمانية - تحقيـــق إحســـان حقـــى ، بـــيروت ، دار النفـــائس ، الطبعـــة الثانيـــة ١٤٠٣هـــ/١٩٨٣م ص ١٩٠ .

٥- عبد العزيز نوار: تاريخ العراق الحديث من نهاية حكم داود باشا إلى نهاية مدحت باشـــا ، القـــاهرة ، دار الكـــاتب العربى ١٣٨٨هــ/١٩٦٨م ص٦ .

٦- كلمة عامية بمعنى فرت .

مهزوما وقتل من عسكره أضعاف ما قتل من عساكر الروم[1]" .

وفر الشاه بعد أن أصابته بجروح ، ووقع كثير من قواده وجنده فى الأسر وأسرت أيضا إحدى زوجاته ، وفتحت المدينة أبوابها ودخلها السلطان منصورا فى ١٤ من رجب ٩٢٠هـ واستولى على خزائن الشاه وأرسلها إلى القسطنطينية[2] وقطع رؤوس من قتل من أمراء أعدائه وأرسلها إلى بلاده فطافوا بها هناك[3] ، ولكن سليما لم يشأ أن يتابع تقدمه إلى ما وراء تبريز نظرا لامتناع الانكشارية عن التقدم لاشتداد البرد ، وصعوبة المسالك ، وقلة المؤونة اللازمة فقفل راجعا إلى بلاده مكتفيا بكبح جماح الفرس[4] ، وخشية ثورة الانكشارية عليه .

ونتيجة لمعارك السلطان سليم مع الصفويين يتضح ما يلى :

١- نجاح العثمانيين فى الحد من نشر المذهب الشيعى فى الأناضول والبلاد العربية حيث منعوا زحف المذهب الشيعى على الشرق العربى الآسيوى ومصر ، واستأصلوا هذا المذهب من الأناضول[5] .

٢- استثمار أوربا لهذه الخلافات ومحاولتها التسلل إلى الشرق الإسلامى ، ومدها للفرس بالأسلحة الحديثة ليحاربوا بها العثمانيين بغية الحد من زحفهم المتواصل على أوربا[6] .

٣- استيلاء العثمانيين على ديار بكر ، ومد سلطانهم على الأجزاء الشمالية من العراق

٤- هز كيان الموالين لإيران وزعزعة نفوذهم[7] .

١- محمد بن اياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور جـ٤ ، القاهرة ، الهيئة المصرية للكتاب ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م ص٤٠٢-٤٠٣ .

٢- محمد فريد : المرجع السابق ص ١٩٠ .

٣- ابن اياس : المصدر السابق ص ٤٠٣ .

٥- الشناوى : المرجغ السابق جـ١ ص٢٤ .

٦- الساداتى : المرجع السابق ص٢٥٢ .

٧- مجموعة الأساتذة : العراق فى التاريخ ، بغداد ، ١٩٨٣ ص٥٦٨ .

ثانيا : الأتراك العثمانيون : -

ينتمى العثمانيون الأوائل إلى إحدى عشائر قبيلة الغز التركية ، والتى تعــرف باســم قابى ، وقد هاجرت هذه القبيلة من المشرق إلى الأناضول فى القرن الثالث عشر الميــلادى هربا من جنكيزخان ووصلت إلى آسيا الصغرى وبعض شواطئ البحر الأسود وأرمينيا حيث التجأت إلى السلاجقة المسلمين فحموهم وأقطعوهم أراضى لمواشيهم .

وكانوا يعتمدون فى حل ما يواجههم من مشكلات على زعيمهم عثمان الذى ولد على حسب الروايات التاريخية فى عام ١٢٥٨م ، ولما كانت الحروب الصليبية قد دارت رحاهــا فى ذلك الوقت فقد تطوع عثمان مع بعض رجاله لنصرة بعض سلاطين السلاجقة، وأظــهر شجاعة وحسن دراية فاستدعى ذلك مكافأته وتقديره ، فعين حاكما على إحدى المقاطعـات ، وبعد وفاة السلطان السلجوقى أعلن عثمان استقلاله[١] ، وبسقوط دولة السلاجقة على يــد المغول الايلخانيين تمكنت الإمارة من استقطاب عدد من الإمارات التركيــة المسـلمة فــى الأناضول وهى الامارات الناشئة على انقاض دولة الســلاجقة واســتأنفت توســعها غربــا فاتجهت منذ سنة ١٣٤٥م إلى أوربا الشرقية فاستولت على أجزاء كبيرة منــها وتوجـت أعمالها العسكرية فى عهد محمد الفاتح بفتح القسطنطينية عام ١٤٥٣م .

وما أن انتهى القرن الخامس عشر حتى كانت الدولة العثمانيــة تشـمل الأنـاضول واليونان وشبه جزيرة البلقان وجزائر بحر إيجة وجزيرة فى جنوب إيطاليا[٢] .

وفى عهد السلطان سليم الأول ١٥١٢-١٥٢٠م اتجهت الفتوحات نحو الشرق ، بعـد تحديات الشاه إسماعيل الصفوى لأهل السنة والجماعة ، فدفع ذلك سليما إلى العمل على مد سلطانه إلى الأناضول وبلاد الشام . ولم يكن السلطان سليم يرى كبير فــرق بيــن الشــاه إسماعيل وجنده ، وبين أى من حكام أوربا فى عدائهم للإسلام ، خصوصا أن الشــاه رسـم سياسته التوسعية على أساس التحالف مع البرتغاليين . ولما كان العثمانيون يعدون أنفسـهم حماة المذهب السنى فقد اتخذت عملياتهم العسكرية ضد الصفويين شكل التدمــير والقســوة البالغة[٣] ، وانتهت بانتصــارهم فــى جــالديران ودخــول تــبريز عاصمــة الصفوييــن ،

١- ميخائيل مشاقة : مشهد العيان بحوادث سوريا ولبنان ، القاهرة ، ١٩٠٨م ص١٩ .

٢- العراق فى التاريخ ص٥٦٦-٥٦٧ .

٣- أكرم العلبى: دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين ٩٠٦-٩٢٢هـ/١٥٠٠-١٥٢٠م ، دمشق ، المتحـدة للتوزيــع ، الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م ص٣٦٨ ..

وزعزعة النفوذ الإيرانى فى المنطقة ، وهز كيان الموالين لهم[1] . وبعد خروج الصفويين من حلبة الصراع بدأ السلطان سليم يوجه جهوده لاخضاع المماليك ، واعداد العدة لتوحيد الجبهة الإسلامية .

ثالثا : المماليك : -

جلب المماليك من مناطق عدة من أبرزها شبه جزيرة القرم وتركستان وبلاد القوقاز والقفجاق وآسيا الصغرى وفارس والبحر الأسود[2] ، وكان ذلك بطريق الشراء من أسواق النخاسة[3] .

وكان الملك الصالح نجم الدين أيوب أول من اشترى المماليك بشكل مكثف واتخذ منهم جندا بأعداد كثيفة ، وبعد وفاته أفلت زمام الأمور من الأيوبيين وتمكن المماليك من السيطرة على زمام الموقف والقضاء على توران شاه الوريث الشرعى للحكم .

وقد حكم المماليك العديد من البلدان الإسلامية وبخاصة مصر والشام والحجاز ، واستطاعوا حماية ديار الإسلام من المغول الذين تمكنوا من القضاء على الخلافة العباسية والاستيلاء على بغداد فى عام ٦٥٦هـ ، كما تمكنوا من الثبات أمام قوى الصليبيين الذين حكموا العديد من بلاد الشام لفترة ثم أخرجوهم منها .

ونتيجة لحركة الكشوف الجغرافية وتحويل طريق التجارة إلى رأس الرجاء الصالح بدأت أحوال المماليك فى التدهور والضعف بشكل مكن البرتغاليين من هزيمتهم فى موقعة "ديو البحرية" فى عام ١٥٠٩م والاستيلاء على بعض المناطق الاستراتيجية فى البحر الأحمر وتهديد الأماكن الإسلامية المقدسة فى الحجاز وفى خلال ذلك كانت العلاقات المملوكية مع العثمانيين جيدة ، لدرجة أن قام العثمانيون بمساعدة المماليك لتقوية أسطولهم البحرى حتى يتمكن من مواجهة البرتغاليين ، ولكن ذلك لم يستمر طويلا فبعد انتصار السلطان سليم العثمانى على الصفويين بدأ فى التحرش بالمماليك حيث

١- العراق فى التاريخ ص٥٦٨ .

٢- للتفاصيل انظر أبو العباس القلقشندى: صبح الأعشى فى صناعة الإنشاء جـ٤ ، القاهرة ، ١٩٢٢ ص٤٤٧ .

٣- كان بالقاهرة أسواق لهذا الرقيق تعقد فى خان الخليلى ، وكان للسلاطين عمال يختارون لهم ما يناسبهم من الغلمان كما كان الأمراء والوزراء والقضاه يختارون من شاءوا منهم أناثا وذكورا فيذهبون بالنجباء منهم إلى المدارس يلقنونهم أصول الدين والعلم ثم يدربونهم على فنون الحرب وقيادة الجند .

دمر إمارة "البستان[1]" الواقعة تحت حمايتهم ، وحشد قواته فى مواجهتهم وخاصــة أنــهم قاموا بإيواء الثائرين عليه ومنهم الأمير جم ابن السلطان محمد الثانى الذى كان يرى نفســه أحق من السلطان سليم بالحكم ، ورفضوا تسليم اللاجئين إليهم .

وبعد أن أرسل السلطان سليم الأول فى يونيو ١٥١٦م برسالة مهينة إلى الســلطان قنصوة الغورى يطالبه فيها بأن يلاقيه عند مرج دابق ، أخذ الغورى فى الاستعداد لملاقــاة العثمانيين ، وطلب من مماليكه الاستعداد للمعركة ومن قوله فى هذه الشأن "والــذى منكــم متزوج يطلق زوجته حتى لا يبقى وراءكم التفاتة إذا سافرتم فى التجريدة[2]" كما طلب مــن الخليفة العباسى فى مصر محمد المتوكل الاستعداد للسفر معه .

ومضى الغورى على رأس جيشه إلى بلاد الشام ، وأناب عنه طومان باى فى مصــر ، ووصل الغورى إلى حلب فى يوليو ١٥١٦م ، وحدث قتال شديد بين الطرفين انهزم فيــه العثمانيون فى بداية الأمر لدرجة أن هم السلطان سليم بالهرب وخاصة بعــد أن قتــل مــن عساكره ما يزيد عن عشرة آلاف[3] ولكن.سرعان ما لعبت الخيانة دورها فقد أطلق "خــاير بك" نائب حلب – الذى استطاع السلطان العثمانى رشوته وضمــه إلــى صفوفــه– بعــض الشائعات بين صفوف المماليك بهدف إحداث الفرقة بينهم ومنها أن السلطان المملوكى أبعــد مماليكه الجلبان عن قلب المعركة ، وترك لجنود القرانصة وقودا للحرب ومنها أن الســلطان الغورى قتل فى أثناء المعركة فتبلبلت الأفكار ، وشاع الذعر فى صفوف المماليك لدرجــة أن اضطربت أحوالهم وأخذ بعضهم فى الفرار ، ولم ينجح الغورى فى السيطرة على الموقــف وأفلت منه الزمام ونتيجة لعدم تحمله لصدمة الهزيمة انقلب من فوق جواده علــى الأرض فاقد الوعى[4] وداسته سنابك خيول العثمانيين المندفعة وراء المماليك المتقــهقرين ، فلمــا رأى ذلك أمراؤه القريبون منه خشوا أن يقع فى أسر العثمانيين فيفصلوا رأسه عن جسده ، ويطوفوا بها فى بلادهم فقرروا قتله بأنفسهم فقطعوا رأسه ورموها فى جب وأخذوا جثتــه وألقوها فى نهر قريب[5] .

١- لهذه الإمارة أسماء أخرى منها ذو القادر .

٢- للتفاصيل انظر ابن اياس: بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، جـ٣ ، القاهرة ، المطبعة الأميرية ببولاق الطبعة الأولــى ١٣١٢هـ ص٥ .

٣- ابن اياس : المصدر السابق جـ٣ ص٤٧ .

٤- ابن زنبل : تاريخ السلطان سليم مع قانصوه الغورى ، جزءان ، مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ٤٨ .

٥- ابن زنبل : ص ٥٠ .

وانتهت معركة مرج دابق التى لم تستمر سوى يوم واحد وذهب ضحيتها الألوف من الطرفين بتغيير الأوضاع فى العالم الإسلامى فاستولى العثمانيون على بلاد الشام وبدأوا فى التأهب للسيطرة على مصر .

ويرجع أسباب هذا الانتصار إلى عوامل عدة من أهمها :

١ - تفوق القوات العثمانية فى سلاح المدفعية الذى لا يمتلكه المماليك .

٢ - خيانة خاير بك نائب السلطان الغورى فى حلب .

٣ - الوقيعة بين المماليك الجلبان والقرانصة عند احتدام المعارك .

وقد دخل السلطان سليم حلب دون مقاومة ، فأمن أهلها على أرواحهم وأولادهم وأموالهم[١] ، كما دخل دمشق وغيرها من المدن السورية .

وعادت فلول الجيش المملوكى إلى مصر وهم فى أسوأ حال فكانوا ممزقى الثياب، نحيلى الأجسام . وبعد أن وصل نبأ الهزيمة إلى القاهرة اجتمع المماليك لاختيار سلطان جديد يتولى أمور البلاد . واستقرت أمور البلاد فى النهاية على اختيار "طومان باى" . ولما تردد طومان باى فى الأمر خشية الغدر به قام الأمراء بالقسم على المصحف بألا يغدروا به أو يثيروا فتنا ضده[٢] .

وبعد أن علم "طومان باى" بزحف السلطان سليم على مصر ، ووصوله إلى غزة نادى المماليك بالخروج من غير تأخر ، فخرج العسكر مسرعين ، ووقعت معارك عنيفة انكسر فيها المماليك ثم أخذ طومان باى فى إعادة تجميع صفوفه عند الريدانية (بالقرب من العباسية) . ولما أقبلت العساكر العثمانية التقى معها المماليك فى معركة مهولة انتهت بهزيمتهم وانكسارهم[٣] .

ودخل العثمانيون القاهرة بالسيف عنوة فى يوم الجمعة الموافق ٢٣ من يناير ١٥١٧م وخطب للسلطان سليم على منابرها . مع ذلك لم يستسلم طومان باى فقد أخذ يعد العدة للمقاومة واشتبك مع العثمانيين فى عدة معارك ولما لم يتمكن من الظفر بهم احتمى عند أحد مشايخ العربان ولكن الشيخ الذى احتمى عنده تنكر له وسلمه للسلطان سليم فأمر بإعدامه .

١- القرمانى : أخبار الدول وآثار الدول ، القاهرة ، مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ٢٦٢٦ ص٩٩ .

٢- ابن اياس : المصدر السابق جـ٣ ، ص٦٩ .

٣- ابن اياس : المصدر السابق جـ٣ ، ص٩٧ .

ويذكر ابن إياس ان طومان باى طلب من الناس فى أثناء ذهابــه إلــى المشــنقة أن يقرأوا عليه "الفاتحة ثلاث مرات ثم بسط يده وقرأ الفاتحة ثلاث مرات وقرأت الناس معه ثـم قال للمشاعلى اعمل شغلك ... فلما شنق وطلعت روحه صرخت عليه الناس صرخة عظيمـة وكثر عليه الحزن والأسف[1]" .

وباعدام طومان باى انتهت سلطنة المماليك على مصر ، كما انتهت من قبــل علــى الشام بمقتل الغورى ، وخضعت البلاد حوالى أربعة قرون تحت السيادة العثمانية .

أما عن الحجاز فقد خضعت سلما للعثمانيين . فقد أرسل الشريف بركات ابنه أبــانمى إلى السلطان سليم بالقاهرة ليهنئه بانتصاراته على المماليك وحكم مصــر وليعلــن الــولاء للعثمانيين فثبته السلطان سليم على شرافة مكة ، وجعله المتصرف فى أمرها ، كما أضــاف إليه أمور الحسبة بمكة أيضا[2] .

نظام الحكم العثمانى فى العالم العربى

ارتكز نظام الحكم العثمانى فى العالم العربى على أربعة أمور أساسية هى :

١- الإبقاء على أحوال العالم العربى الاجتماعية والعلمية والاقتصادية والتركيبة الســكانية كما هى قبل الفتح العثمانى لها ، فلم تحاول الدولة العثمانية مثلا صبغ أهل الولايــات العربية التابعة لها بالصبغة العثمانية أو بربطهم برباط الحضارة العثمانية[3] ، كما لـم تحاول فرض اللغة التركية عليهم بدلا من العربية .

٢- عزل العالم العربى عزلا يكاد يكون تاما عن التيارات الاقتصادية والسياســية العالميـة بحيث لا يتأثر بما يدور فى العالم الخارجى .

٣- كان المجتمع فى نظر العثمانيين عبارة عن قسمين : الأتراك وهم الحكام الذين يتمتعون بكافة الامتيازات ، والرعية وهم المحكومون الذين يتحتــم عليــهم خدمــة الحكــام والاستجابة لمطالبهم .

١- ابن اياس : المصدر السابق ص١١٥ .

٢- ابن اياس : المصدر السابق جـ٣ ، ص١٢٤-١٢٦ .

٣- محمد رفعت رمضان : على بك الكبير ، القاهرة ، دار الفكر العربى ١٩٥٠ ص٦ .

وقد أدى انعزال الطبقة الحاكمة التركية عن الأهالى وتعالى أفرادها عليهم إلى ضآلة تأثير الحكم العثمانى[1] .

٤- ان فكرة الحكم عند العثمانيين كانت ترتكز على أن للدولة وظائف محددة ، ومسئوليتها لا تخرج عن المحافظة على سيادتها ومصالحها فى هذه الولايات أما عن الخدمات العامة مثل التعليم والصحة فانها لا تدخل ضمن مسئوليتها أو اختصاصاتها ، ومن هنا تحددت مهام الدولة العثمانية فيما يلى :

١- الدفاع عن الولايات التابعة للدولة وحفظ الأمن فيها .

٢- جمع الأموال وإنشاء إدارة مالية خاصة بذلك .

٣- إقامة نظام قضائى للفصل فى المنازعات التى تحدث بين الأهالى .

وعلى هذا النحو ارتكزت فلسفة الحكم العثمانى على عدة أنظمة كان أهمها :

الوالى - الديوان - الحامية العثمانية - العصبيات المحلية[2] ، وفيما يلى نعرض لذلك :

أولا : الوالى : -

كان السلطان العثمانى يعين الوالى بصفته نائبا له فى الولاية التى يحكمها وكان يلقب بعدة ألقاب منها لقب الباشا وقد وكلت إليه السلطتان المدنية والعسكرية ومسئولية جمع الضرائب ، فكان على رأس الجهاز الادارى وكان يقود الجيوش بنفسه(٣) ، ويبلغ الرعايا بأوامر السلطان ويقوم بارسال المقررات المفروضة على ولايته إلى الخزانة السلطانية ، ومع كل ذلك فانه نظرا لشكوك السلاطين فى ولاتهم وعدم الثقة فيهم وخشيتهم من الانفصال بولاياتهم عن الدولة العثمانية ، فقد أحاط السلاطين الولاة بجواسيسهم وعمالهم ، وأخذوا ينتزعون منهم العديد من اختصاصاتهم ، فتركزت النواحى المالية فى يد الدفتردار الذى كان يعين رأسا من القسطنطينية ، وتركزت النواحى الادارية فى يد الكتخدا أو الكخيا الذى كان تعيينه يتم بالقسطنطينية ، وكانت السلطة القضائية ينفرد بها قاضى القضاة الحنفى الذى كانت ترسله القسطنطينية ، وإلى جانب

١- محمد أنيس : حضارة مصر الحديثة ص١٤٤ .

٢- محمد عبد المنعم الراقد: الغزو العثمانى لمصر ونتائجه على الوطن العربى ، الاسكندرية ، مؤسسة شباب الجامعة ١٩٦٨ ص٢٦٨ .

٣- أميرة المداح: العثمانيون والامام القاسم محمد فى اليمن ، جدة ، مكتبة تهامة ١٩٨٢ ص١٤٨ .

ذلك كانت الحاميات العثمانية (الاوجاقات) تخضع لسلطة الأغوات الذين لـــم يكــن للوالـــى سلطات عليهم[1] ، وكثيرا ما حدثت النزاعات بينهما. يضاف إلى ذلك أن مدة حكـــم الـــولاة كانت تقتصر على عام واحد يتجدد فى بعض الحالات ولا يستكمل فى حالات أخرى .

ونتيجة لذلك حرص الولاة على جمع كل ما يمكن جمعه من الأموال خلال فترة حكـهم ، وبشتى الطرق ؛ مشروعة وغير مشروعة ، ومحاولة ملء خزائنهم خـــلال تلــك الفـــترة القصيرة التى يقضونها فى ولاياتهم وخاصة أنهم كانوا يشترون مناصبـــهم قبــل توليتـــهم إياها . هذا بالإضافة إلى إهمالهم للمشروعات العمرانية والإصلاحية مثل: حفر الـــترع أو إقامة السدود أو غيرها[2] .

ثانيا : الديـــــــــوان : –

الديوان كلمة فارسية بمعنى الدفتر أو السجل ، وقد أطلق على المكان أو الدائرة التـى تحفظ فيها السجلات من باب المجاز[3] ، ثم شمل بعد ذلك المكان الذى يحفظ فيه كـــل مـــا يتعلق بحقوق السلطنة العثمانية من الأموال والأعمال ومن يقوم بها من العمال والجيـــوش

وكان الديوان ينقسم إلى قسمين :

الديوان الكبير وهو الذى يفصل فى الموضوعات المهمة ، ولا يجتمع إلا بأمر الباشـــا ، والديوان الصغير وكان يتألف من الكتخدا والدفتردار وهو الذى ينظر فى شـــئون البـــلاد العامة ، وينفذ الباشا قراراته[4] .

ويتكون الديوان الكبير من كبار ضباط الحاميـــة وعلـــى رأســـهم أغـــا الانكشـــارية والدفتردار والعلماء وكبار المسئولين ، وكانت العضوية فى الديوان غـــير ثابتـــة ، وكـــان الباشا فى معظم الأحيان هو الذى يختار أعضاؤه .

وكان للديوان تأثير كبير فى ادارة الولايات[5] فكان بمثابـــة مجلـــس وزراء موســـع

١- محمد أنيس : المرجع السابق ص١٤٤ .

٢- للتفاصيل انظر محمد كرد على : خطط الشام جـ٢ ، بيروت ، النهضة العربية ١٩٧٢ ص٢٢٥ .

٣- صبحى الصالح : النظم الإسلامية جـ٢ ، بيروت ، دار العلم ، الطبعة الأولى ١٣٩٦ هـ ص٣١٢ .

٤- محمد فؤاد شكرى : الحملة الفرنسية وظهور محمد على ، القاهرة ، مطبعة المعارف ١٩٦٣ ص١٠-١١ .

٥- كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية – ترجمة نبيه أمين ومنير العلبكى ، بـــيروت ، دار العلـــم للملاييـــن ، ١٩٧٩ ص٤٧٧ .

مهمته الرئيسية مراقبة قرارات الوالى والنظر فى الشئون الاقتصادية والادارية ، وتنظيم شئون القوات العسكرية .

ونتيجة لخشية الدولة العثمانية من تمرد ولاتها عليها والاستقلال بولاياتهم جعلت من أعضاء الديوان عيونا لها على الولاة يبلغونها بتصرفاتهم لمنع الولاة من إساءة استعمال سلطتهم .

ثالثا : الحامية العثمانية : -

هى قوة عسكرية عثمانية كانت ترابط فى الولايات وقد أسست هذه الحاميات فى أعقاب الفتوحات العثمانية للوطن العربى ، فبعد أن فتح السلطان سليم الأول مصر ترك بها حامية تتألف من حوالى اثنى عشر ألف جندى يتكون منها ستة أوجاقات على رأس كل منها أغا ، وكانت هذه الحامية تتكون من أخلاط مختلفة من العسكر[١] .

وكانت مهمة الحاميات : حفظ النظام والدفاع عن الولايات ضد أى خطر خارجى، وقمع العربان . كما كان لها اختصاصات سياسية وادارية ؛ فكان رؤساؤها يشاركون الوالى فى الحكم كما كانوا يحضرون اجتماعات الديوان ، وكانت لهم الكلمة المسموعة . وإلى جانب ذلك كانوا يقومون بتوصيل الخراج إلى الآستانة وكثيرا ما حدثت الخلافات بينهم وبين الوالى ، وكان التفوق فى الفترة الأولى من الحكم العثمانى للوالى ، ثم استطاع رجال الحامية بعد ذلك أن يسيطروا على زمام الأمور .

وعندما دب الضعف فى الدولة العثمانية ضعفت الحاميات فى الولايات وفسد أمرها، ولم تعد صالحة لاستتباب الأمن ، بل تحول أفرادها إلى السلب والنهب والأمثلة على ذلك متعددة نذكر منها أن الحامية فى بلاد الشام كانت من أهم أدوات التخريب ، فقد خرج جنودها عن اختصاصاتهم وكثر اعتداؤهم على الأهالى وتطاولوا على أموالهم وأعراضهم وكثرت شرورهم[٢] .

وفى عدن ثار الأهالى ضد تسلط الحامية العثمانية وغدرها بأميرهم عامر الطاهرى، فاضطرت الآستانة إلى أن ترسل أسطولا بحريا لم يتمكن من السيطرة على الموقف إلا بصعوبة [٣].

١- للتفاصيل انظر الراقد : المرجع السابق ص٢٧٦-٢٧٧ .

٢- محمد كرد على : المرجع السابق ص٢٢٥ .

٣- فاروق أباظة: الحكم العثمانى فى اليمن ، بيروت ، دار العودة ١٩٧٩ ص٢٠ .

وفى تونس أعلن الجنود عصيانهم ، وهددوا النظام باعتدائهم على الأرواح والممتلكات .

وفى مصر ركنت الحامية العثمانية إلى حياة الاستقرار واندمجت فى الشعب المصرى ، وتركت حياتها العسكرية لدرجة أن الحملة الفرنسية حينما هاجمت مصر فى أواخر القرن الثامن عشر لم تجد من يتصدى لها سوى المماليك وجموع الشعب المصرى[١] .

رابعا : العصبيات المحلية : -

كان هدف العثمانيين من إشراك العصبيات المحلية فى الحكم هو الاستفادة منهم فى إدارة الولايات التى يحكمونها وحتى يظلوا على ولائهم للدولة العثمانية ولا يقوموا بالتمرد عليها. ونتيجة لذلك شارك المماليك فى تولى مقاليد بعض الأمور فى مصر ، كما شاركت بعض العشائر العربية فى الشرقية والبحيرة فى حكم المناطق التى تقطنها ، واعترف السلطان العثمانى بالعصبيات الكردية وأبقى حكم كردستان للبيوتات الكردية الحاكمة فى شمال العراق ، كما ترك لمشايخ العراق سلطة إدارة عشائرهم ، ومن أهم هذه المشيخات مشيخات الخزاعل والعبيد وشمر والمنتفق[٢] .

والسؤال المطروح هو هل ظلت هذه العصبيات على ولائها للدولة العثمانية أو تحينت الفرص للتخلص من الحكم العثمانى واستقلالها عنه ؟

الواقع أن هذه العصبيات كانت غالبا ما تتطلع إلى استرجاع نفوذها القديم ، ومن هنا أخذت فى استغلال فرص انشغال الدولة العثمانية بمشكلاتها الخارجية والداخلية ؛ ففى مصر استطاع على بك الكبير المملوكى القيام بثورة ضد الدولة العثمانية فى عام ١٧٧١م والانفصال عنها ، ولم يستطع العثمانيون السيطرة على زمام الموقف إلا بعد الوقيعة التى دبروها بين على بك وقائده محمد أبو الدهب .

وفى اليمن استطاعت العصبيات المحلية القيام بثورات متعددة ضد الحكم العثمانى ، تمكنت خلالها من انهاك جيوش الدولة العثمانية حتى اضطرتها إلى الجلاء عن اليمن لفترة[٣] .

١- الراقد : المرجع السابق ص٢٧٨-٢٨٠ .

٢- عبد العزيز نوار : داود باشا والى بغداد ، القاهرة ، دار الكاتب العربى ، ١٩٦١ ص١١.

٣- للتفاصيل انظر : فاروق أباظة : المرجع السابق ص٤١٥ .

وفى وسط الجزيرة العربية قامت الدعوة السلفية التى دعت إلى العودة بالإسلام إلى مبادئه الأولى وألقت بتهمة نشر البدع والخرافات فى العالم الإسلامى على العثمانيين.

وفى العراق قامت العصبيات المحلية بالعديد من الثورات ضد الحكم العثمانى مثل ثورة آل مهنا فى جنوب العراق وآل شعيب فى البصرة ، والعشائر الكردية فى كردستان[1].

وفى الشام قامت أسرة آل العظم ، وظاهر العمر بمحاولات للاستقلال الذاتى عن الحكومة المركزية فى استنبول .

ومع كل ذلك فإن خروج هذه العصبيات المحلية على السلطنة لم تقلق الدولة العثمانية كثيرا وخاصة أنها كانت تستطيع الانتظار حتى تحين الفرصة المناسبة فتستعيد نفوذها وعلى سبيل المثال نذكر على بك الكبير وظاهر العمر اللذين استغلا فرصة انشغال العثمانيين فى حروبهم مع الروسيا ونجحا فى الانفصال عن الدولة ورفع راية العصيان ضدها فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر ، ثم ما لبثت الدولة أن استرجعت نفوذها على المناطق التى كانوا يحكمونها بعد انتهائها من الحرب .

أحوال العالم العربى فى ظل الحكم العثمانى

بعد أن سيطرت الدولة العثمانية على العالم العربى فى معظمه ، وصارت الدولة الإسلامية الوحيدة فى المنطقة تقريبا ، تحول االعالم العربى إلى منعطف جديد فى النواحى السياسية والاقتصادية والاجتماعية وفيما يلى نعرض لذلك .

١- نوار : المرجع السابق ص٦٨-٦٩ .

أولا : الأحوال السياسية :

١ - انتقال مركز الخلافة من القاهرة إلى الآستانة :

بعد هزيمة المماليك أمام العثمانيين انتقل مركز الخلافة من القاهرة إلى الآستانة[١]، واتخذ السلطان سليم الأول لقب الخليفة ليضمن ولاء العرب والمسلمين له على اعتبار أن الخليفة هو فى الواقع خليفة رسول الله وانه يجب على المسلمين طاعته .

٢ - العثمانيون والأماكن المقدسة :

أضفت الدولة العثمانية حمايتها على الأماكن المقدسة لما لها من أهمية دينية ، وحمل السلطان العثمانى ألقاب حامى حمى الحرمين الشريفين ، وخادم الحرمين الشريفين، وهو لقب يكسب من يحمله احترام المسلمين وتقديرهم[٢] ، وكان السلطان سليم الأول قد اتخذ لنفسه هذا اللقب بعد أن أرسل شريف مكة ابنه إلى القاهرة ليبلغ السلطان العثمانى ولاءه واعترافه بالسيادة العثمانية على الحجاز ، وتمسك السلاطين العثمانيون منذ ذلك الوقت بهذا اللقب الدينى[٣] . ولحماية الأماكن الإسلامية المقدسة من أخطار البرتغاليين الذين حاولوا أكثر من مرة النيل منها أغلق العثمانيون البحر الأحمر ، وحولوه إلى بحيرة إسلامية[٤] .

٣ - عدم إشراك العناصر العربية فى حكم بلادها :

ركزت الدولة العثمانية سياستها على أن يبقى العالم العربى فى حوزتها أطول مدة ممكنة ، ولذلك لم يسمحوا للعناصر العربية فى حكم بلادها ، بل قاموا بنشر عوامل الصراع بينها حتى تنشغل عن التفكير فى السلطة يضاف إلى ذلك أن الحكم العثمانى كان مركزيا ، فكان السلطان هو السلطة العليا المسيطرة على كافة الأجهزة السياسية والادارية والعسكرية ، وكان السلاطين يرون أن الولايات العربية وما عليها هى من أملاكهم الخاصة ، ولهم حق التصرف فيها على أية صورة ، ولم يكن يهم الدولة سوى جمع الأموال والحاصلات التى صارت نهبا لها ولأتباعها[٥] .

١- الراقد : المرجع السابق ص٢١١-٢١٤ .

٢- الراقد : المرجع السابق ص٢٢٨-٢٢٩ .

٣- عبد العزيز الشناوى : الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها جـ١ ص٦٦ .

٤- محمد أنيس: الدولة العثمانية والشرق العربى ، القاهرة ، الأنجلو المصرية ١٩٨٥ ص١٤٤ .

٥- الراقد : المرجع السابق ص٢٦١-٢٦٥ .

٤ = عدم إشراك العرب فى الدفاع عن بلادهم :

بعد الفتح العثمانى للعالم العربى صار الدفاع عن الولايات العربية ضد أية اعتداءات خارجية من اختصاص القوات العثمانية فأفقد ذلك المواطنين العرب الإحساس بقدرتهم على حماية بلادهم[١] .

ثانيا : الأحوال الاقتصادية :

أبقى العثمانيون النظم الاقتصادية القائمة على النظام الاقطاعى قبل حكمهم الولايات العربية كما هى .

وقد عنى السلطان سليم الأول بمسح الأراضى فى مصر والشام ، وخصص مقدارا منها للأجناد ومقدارا لنفقات الوالى ومقدارا للسناجق وما عدا ذلك سمى بالأراضى الديوانية أى التابعة للديوان الأعظم بالآستانة . وقد عد السلطان العثمانى نفسه مالكا لكل الأراضى الزراعية ، ورأى أن أصحاب الأراضى لا يملكونها بل لهم حق الانتفاع بها فقط، ونتيجة لذلك أصبحت الأراضى تؤول عند موت صاحبها إلى الدولة ، إلا أن ورثته يستطيعون ردها إلى حوزتهم إذا دفعوا مبلغا من المال للدولة . غير أن ذلك الوضع أخذ يتبدل بمرور الزمن وبخاصة بعد ازدياد نفوذ بكوات المماليك ، وتمكنهم من تقسيم معظم الأراضى فى مصر بينهم فآلت إليهم ملكية ثلث ما يزرع من الأرض ، ووزع الباقى بين الفلاحين والملتزمين والأوقاف[٢] .

وقد قام العثمانيون باتباع طريقة المماليك فى تحصيل الأموال على الأراضى ، باتباع نظام الالتزام بالمزايدة ، وذلك بأن يتعهد الملتزم بدفع مقدار محدد من المال كل عام عن مساحة محددة من الأرض على أن يحصل من الفلاحين العاملين فى هذه الأرض كل ما يستطيع من أموال ، وإذا هرب الفلاح وقت تحصيل الضرائب تصدر ضده عقوبات صارمة . وقد استخدم الولاة سلطاتهم لجمع كل ما يمكن جمعه من الأموال دون الاهتمام بأى اصلاح اقتصادى ، فأدى ذلك إلى تدهور الزراعة والتجارة والصناعة وزاد الطين بلة تحول طرق التجارة العالمية إلى رأس الرجاء الصالح .

١- أنيس : المرجع السابق ص١٤٥ .

٢- عمر عبد العزيز : دراسات فى تاريخ مصر الحديث ، الاسكندرية ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م ص١٥٤.

ثالثا : الأحوال الاجتماعية :

نظر العثمانيون إلى المجتمع على أنه ينقسم إلى قسمين : الحكام وهـم الأتـراك ، والمحكومين وهم الرعية ، وواجب القسم الثانى أن يعمل فى خدمة القسم الأول لإمداده بمـا يحتاج إليه ، وبعبارة أخرى كان الأتراك يكونون داخل المجتمعات العربية طبقة أرستقراطية عزلت نفسها عن بقية أجزاء المجتمع بحكم فهمها لوظيفتها وإحساسـها بذاتيتـها، فكـان الحكم العثمانى عديم التأثير فى حياة الأهالى[1] ، وخاصة أن العثمانيين لم يشاركوا العـرب فى حياتهم الاجتماعية العامة ، ولم يهتموا باللغة العربية وبانعاش آدابها وعلومها ، كما لـم يهتموا بعثمنة البلاد فاحتفظ العالم العربى ببنائه الاجتماعى الذى كان سائدا فيه قبل الحكـم العثمانى ، فاحتفظت الطوائف الدينية الإسلامية باحترامها ، بصفتهم حماة الشريعة ، وقـد نجحت هذه الطبقة فى رد المظالم ، وكانت بمثابة حلقـة الوصـل بيـن الطبقـة الحاكمـة والمحكومة ، كما احتفظت الطبقات المنتجة من التجار والفلاحين وأصحاب الحرف بسماتها السابقة ، فكان لكل طائفة شيخ تخضع لسلطته وينوب عنها لدى السلطات الحكومية ويتولى شئونها ويدافع عنها ويقوم بحل المنازعات بين أفرادها ، ويعاقب كل مـن يخـالف منـهم عرف وتقاليد الطائفة عقوبات صارمة ، وكان منصب الشيخ وراثيا وكان لمشايخ الطوائـف وكلاء يعرفون باسم النقباء[2] . أما فى الريف فكان شيخ القرية يقوم مقام شـيخ الطائفـة وكان الابن يرث أباه فى مهنته سواء كان الأب فلاحا أو تـاجرا أو صانعـا ، أمـا البنـت فتتزوج زميل والدها فى الحرفة وقد أدى ذلك إلى تقوية الرابطة الاجتماعية وتوثيقها[3] .

أما أهل الذمة فقد ظلوا على هامش الحياة الفكرية والسياسية فـى داخـل المجتمـع العربى وإن كانت لهم مشاركات فى الحياة الاقتصادية بطريقة فعالة .

وعند تقييمنا للحكم العثمانى فى الوطن العربى يتضح ما يلى :

١ - أن الحكم العثمانى كان ضعيفا فى تأثيره على العالم العربى على الرغم من طول مدتـه التى تجاوزت أربعة قرون ، فلم ينجح العثمانيون فى عثمنة مصر ، بل ما حدث هـو أن تمصر العثمانيون وأصبحوا جزءا من الحياة المصرية[4] .

١- محمد أنيس : المرجع السابق ص١٤٩ .

٢- عمر عبد العزيز : المرجع السابق ص١٥٦ .

٣- أنيس : المرجع السابق ص١٤٩-١٥٠ .

٤- نفسه ص١٤٤ .

٢ – أن الأحوال الاجتماعية والاقتصادية ظلت جامدة وتدهورت الزراعة نتيجة لعدم الاهتمام بمرافقها ، وتدهورت الصناعة وانحصرت فى بعض صناعات بدائية ، كما تدهورت التجارة بسبب اضطراب الأمن ، وسوء طرق النقل ، وضعف القوة الشرائية[١].

٣ – أن الحكم العثمانى كان يستند فى المقام الأول على رجال الدين الذين وقفوا بجانب الدولة العثمانية للاحتفاظ بنفوذها فى الولايات العربية حيث كانوا يصرون على ضرورة الولاء العام للسلطان باعتباره حامى حمى الإسلام .

٤ – ظهور المحلية : أى إن الأفراد كانوا يقومون بتنظيم أمور حياتهم بعيدا عن تدخل الدولة أو أشرافها ففى المدن كان الناس يقسمون إلى طوائف حسب مهنهم ووظائفهم الاجتماعية ، فالطائفة كانت تضم أصحاب المهنة الواحدة وعلى رأسها شيخ يتولى تنظيم شئونها والفصل فى الخصومات بينها وبين الحكومة ، وفى الريف كانت كل قرية تمثل مجتمعا قائما بذاته يكاد يكون معزولا عن الحياة الاجتماعية والاقتصادية للقرى الأخرى وبعبارة أخرى ان نظام الحكم العثمانى تميز بضعف التدخل الحكومى ، وترك الأهالى وشأنهم فى كل ما يتعلق بأمورهم[٢] ، وقد أدى ذلك فى نهاية الأمر إلى عدم ولاء الفرد للدولة[٣] .

٥ – نجحت الدولة العثمانية فى وقف الأطماع الأوربية فى الوطن العربى لفترة من الوقت ، فقد أوقفت الخطر البرتغالى على البلدان العربية ، ولاحقت فرسان القديس يوحنا وتمكنت من طردهم من ليبيا ، كما كسرت شوكة الأسبان فى غرب حوض البحر المتوسط .

٦ – اعتاد العثمانيون الأخذ ولم يعتادوا العطاء . فلم يهتموا بتحسين أحوال الولايات ، لذلك كان يندر أن يصل من الآستانة رجل صالح فى أخلاقه معروف باستقامته وسعة معرفته يحسن إدارة الأمور ، ويوقف الظالم عن ظلمه[٤] .

١– د. حسين خلاف: التجديد فى الاقتصاد المصرى الحديث ، القاهرة ، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، الطبعة الأولى ١٩٦٢ ص٧ .

٢– محمد شفيق غربال : محمد على الكبير ص٢٣ .

٣– محمد أنيس : المرجع السابق ص٥ .

٤– محمد كرد على : المرجع السابق جـ٢ ، ص٢٦٧ .

الموضوع السادس

الحركات الإنفصالية ضد الدولة العثمانية

أ - فى مصـــــــر : حركة على بك الكبير
ب - فى بلاد الشـــام : ١- حركة ظاهر العمر
٢- حركة أحمد باشا الجزار

إن نظرة متفحصة لأحوال الدولة العثمانية فى منتصف القرن الثامن عشر وبخاصـــة فى الفترة التى قامت فيها حركة على بك الكبير تبين لنا مدى الضعف الذى لحـــق بالدولـــة العثمانية من جراء الضربات التى انهالت عليها من الدول الأوربيـــة وبخاصـــة الروســـيا ، فأوهن ذلك قبضتها على ممتلكاتها وأوجد العديد من الحركات الانفصالية المشابهة لحركـــة على بك الكبير والتى من أهمها حركة ظاهر العمر فى فلسطين ، وحركة الأكراد فى شـــمال العراق والشام ، والثورات فى البوسنة والهرسك والجبل الأسود والافـــلاق والبغـدان[١] ، والنزاع بين الأشراف على إمارة مكة . ونتيجة لذلك أخـذ بكـوات الممـــاليك فـــى مصـــر بالاستئثار بالنفوذ والسلطة حتى صار نفوذهم يفوق ســـلطة الباشـــا العثمـــانى ، وأصبـــح لزعيمهم الذى كان يعرف بشيخ البلد الكلمة المسموعة فى البلاد ، وفـــى النهايـــة اســـتغل أحدهم وهو على بك الكبير الفرصة وتمكن من الانفراد بالسلطة فى مصر فى عام ١٧٦٦.

١ - حركة على بك الكبير :

وقبل أن نتناول حركة على بك الكبير بالدراسة لابد لنا من وقفة نعرض فيها لنشـــأته وكيفية وصوله إلى حكم مصر .

الاسم الحقيقى لهذا المملوك هو يوسف بن داود وقد ولـــد فـــى عـــام ١٧٢٨ فـــى بلـــده

١- محمد رفعت رمضان: على بك الكبير، القاهرة ، دار الفكر العربى ١٩٥٠ ص٥ .

أبازة من أعمال القوقاز العثمانى ، وكان والده واحدا من قساوسة الكنيسة اليونانية . ويرغب فى أن يكون ابنه مثله قسيسا ، ولكن القدر لم يمكنه من ذلك وخاصة بعد أن اختطفت عصابة من قطاع الطرق هذا الابن فى أثناء رحلة صيد كان يقوم بها فى إحدى الغابات وباعوه لأحد تجار الرقيق فسافر به حتى وصل إلى الاسكندرية وباعه هناك بثمن بخس لمدير جمرك الاسكندرية ، وقد قام مدير الجمرك باهدائه إلى ابراهيم بك أحد زعماء المماليك فى مصر[1] وقد اعتنق يوسف الإسلام ، وتسمى باسم على ، وقد أظهر هذا المملوك من ضروب الشجاعة فى ركوب الخيل والتدريبات ما ساعده على الترقى فاكتسب لقب "جن على" ولما بلغ الثامنة عشرة أعتقه أستاذه وولاه سنجقا ، ثم زادت شهرته بعد نجاحه فى الضرب على أيدى البدو الذين كانوا يغيرون على القاهرة ليلا ، فقربه سيده وجعله كاشفا[2] وواصل على بك الترقى حتى وصل إلى منصب شيخ البلد ، وخلال ذلك أخذ على بك فى التودد إلى العثمانيين حتى اكتسب ثقتهم وفى الوقت نفسه نشط فى وضع أتباعه فى المناصب الهامة[3] ، كما نجح فى تقليص نفوذ كل من الحامية والديوان عن طريق توريطهم فى المشاركة فى الحروب الداخلية ، وتأخير رواتبهم بحجة قلة المال .

كما نجح على بك الكبير فى تركيز السلطتين الحربية والادارية فى يده وبخاصة بعد نجاحه فى كسر شوكة العربان فى الوجهين البحرى والقبلى فصار صاحب النفوذ المطلق على جميع أنحاء مصر واستقامت له الأمور حتى خافه الناس وهابه الأمراء وأخذ يدير دفة الأمور كما يشاء[4] . وانتهز على بك فرصة انشغال الدولة العثمانية بحروبها فى الروسيا[5] ، فاستصدر من الديوان أمرا بعزل الوالى ثم تولى الحكم مكانه وأبطل ورود الولاة العثمانيين إلى مصر[6] ، وامتنع عن دفع الأموال إلى الخزينة السلطانية ، وفى عام ١٧٦٨ أحدث تغييرا فى شكل العملة فجعل على أحد وجهيها اسم السلطان ، وعلى الوجه الاخر اسمه .

وعلى الرغم من كل ذلك فمن الصعب القول ان على بك الكبير كان يرغب فى الانفصال عن الدولة العثمانية نهائيا ، بل كان كل هدفه هو الاستيلاء على السلطة فى ظل

١- محمد رفعت رمضان : المرجع السابق ص١٨-١٩ .

٢- محمد فؤاد شكرى : الحملة الفرنسية وظهور محمد على ، القاهرة ، دار المعارف ص١٦ .

٣- الجبرتى : عجائب الآثار فى التراجم والأخبار جـ١ ، القاهرة ، المطبعة العامرة الشرفية ص٣٨٤.

٤- ميخائيل شاروبيم : الكافى فى تاريخ مصر القديم والحديث ص١٥١ .

٥- محمد فؤاد شكرى : المرجع السابق ص٢٠ .

٥- الجبرتى : المصدر السابق جـ١ ص٣٨٤ .

السيادة العثمانية وخاصة أن الدولة العثمانية كانت تمثل درعا تحمى الولايات الإسلامية من الأطماع الأوربية ويؤكد ذلك ما أورده الجبرتى بقوله "اتفق أن على بك صلى الجمعة فى أوائل شهر رمضان بجامع الداودية فخطب الشيخ عبد ربه ودعا للسلطان ثم دعا لعلى بك ، فلما انقضت الصلاة وقام على بك يريد الانصراف أحضر الخطيب ، وكان رجلا من أهل العلم يغلب عليه البله والصلاح فقال له : من أمرك بالدعاء باسمى على المنبر أقيل لك أنى سلطان ؟ فقال : نعم أنت سلطان وأنا أدعو لك فأظهر الغيظ وأمر بضربه ، فبطحوه وضربوه بالعصى ، فقام بعد ذلك متألما من الضرب ، وركب حمارا وذهب إلى داره وهو يقول فى طريقه بدأ الإسلام غريبا وسيعود كما بدأ ، ثم أن على بك أرسل إليه فى ثانى يوم دراهم وكسوة واستسمحه[١] .

وقد استطاع على بك الكبير خلال حكمه لمصر أن يخرج البلاد من الدائرة الضيقة التى فرضتها عليه المنازعات وحكم الحكام فبدأ يهتم بإقرار الأمن فى البلاد وتنظيم الادارة،كما أخذ يتطلع إلى ما وراء حدود مصر فتحالف مع ظاهر العمر حاكم عكا ، كما عقد اتصالات سياسية مع روسيا واتصل بقائد الأسطول الروسى فى البحر المتوسط وطلب منه امداده بالذخائر الحربية والأسلحة . فاستجاب القائد الروسى لطلبه بغية إنهاك الدولة العثمانية فى حروب داخلية ، واضعاف قدرتها العسكرية ضد الروسيا[٢] ، وعلى الرغم من ازدياد نفوذ على بك ، وافتئاته على حقوق العثمانيين فان انشغال السلطان العثمانى بأمور الدولة الخارجية قد أضعف جهوده الرامية إلى التخلص من على بك [٣] ، ونتيجة لذلك بدأ على بك الكبير يتطلع إلى ما وراء حدود مصر .

ونتيجة لاختلال أحوال الحجاز فى تلك الفترة تحول انتباه على بك نحو بلاد العرب حتى تتمكن مصر من السيطرة على تجارة البحر الأحمر وشواطئ الهند[٤] ، وليجعل من ميناء جدة مقرا لهذه التجارة ، هذا بالإضافة إلى إحرازه للمجد والشهرة بالاستيلاء على الحجاز أرض الحرمين الشريفين[٥] .

وقد استطاع على بك الكبير الاستيلاء على بلاد الحجاز بعد أن أرسل قواته بقيادة

١- الجبرتى : المصدر السابق جـ٢ ، تحت عنوان "حوادث عام ثلاث وثمانين ومائة وألف" .

٢- محمد فريد : تاريخ الدولة العلية العثمانية ص١٥٩ .

٣- محمد رفعت رمضان : المرجع السابق ص٦٤ .

٤- Irwin, Eyles : Series of Adventures in the course of Avoyage up the Red Sea Dublin 1780 vol 1 p. 159 .

٥- شكرى : المرجع السابق ص٢١-٢٢ .

محمد بك أبو الذهب[1] إلى مكة ، وتمكن من الاستيلاء عليها فى عام ١٧٦٩ . وفى أعقاب ذلك منح شريف مكة على بك الكبير لقب سلطان مصر وخاقان البحرين[2] فزاد ذلك من شهرته ، وقوة شوكته . وقد شجعت هذه الانتصارات على بك الكبير على المضى فى مشروعاته التوسعية ، فرأى ضرورة اخضاع بلاد الشام لسلطته ، وقد شجعه على ذلك ما يلى :

١ - اضطراب الأحوال فى سورية وثورة حليفه ظاهر العمر .

٢ - انشغال الدولة العثمانية فى حروبها مع الروسيا ، وعدم تمكنها من إرسال النجدات العاجلة إلى بلاد الشام .

٣ - علاقات على بك بالقيصرة كاترين الثانية قيصرة الروسيا واستعدادها لمعاونته ضد السلطان العثمانى ، وظهور الأسطول الروسى فى البحر المتوسط .

٤ - تذمر أهل الشام من العثمانيين نتيجة لفساد الحكم والتفريق بين الأجناس المختلفة .

ونتيجة لذلك أمر على بك الكبير قائده محمد بك أبو الذهب بالزحف على بلاد الشام.

وقد أحرز الجيش المملوكى عدة انتصارات متوالية ، فدخل أبو الذهب غزة فى مارس ١٧٧١ ثم استولى على الرملة وحاصر نابلس ثم تقدم صوب بيت المقدس حتى سلمت له ووصل إلى يافا وعكا حيث قوبل بكل حفاوة ، وبدت بلاد الشام كلها تحت رحمته ، وخلال ذلك لقى أبو الذهب كل معاونة وتعضيد من الشيخ ظاهر العمر الذى ساعده بالنصح تارة وبالامدادات تارة أخرى حتى اضطر العثمانيون إلى التقهقر ، واستطاع أبو الذهب الوصول إلى دمشق[3] ودخلها فى السادس من يونيو ١٧٧١م ، وأتت إليه الوفود تهنئه وتزف إليه التهانى ، ولما وصلت أخبار هذه الانتصارات إلى القاهرة أقيمت الاحتفالات والزينات ، غير أن هذه الفرحة لم تتم فلم يلبث أبو الذهب أن غير موقفه من سيده ، فأعلن العصيان عليه وأصدر أوامره إلى قواته بهدم خيامهم والانسحاب من دمشق ، كما نادى أهالى الشام بالأمان[4] وكر عائدا إلى مصر ، وسحب فى طريق

١- يرجع اطلاق اسم أبو الذهب على هذا المملوك إلى "أنه لما لبس الخلعة بالقلعة ، صار يفرق البقاشيش ذهبا ، وفى حال ركوبه ومروره جعل ينثر الذهب على الفقراء" . الجبرتى: المصدر السابق جـ١ ص٤٢٢.

٢- إبراهيم الطيب : مصباح السارى ونزهة القارى ص٢٣ .

٣- شكرى : المرجع السابق ص٢٤ .

٤- الجبرتى : المصدر السابق جـ١ ص٣٨٥ .

عودته جميع الحاميات التى كان قد أقامها فى البلاد التى فتحها[١] . ويختلف المؤرخون فى أسباب ذلك وفيما يلى نعرض لآرائهم :

١ - اجتماع القائد العثمانى عثمان باشا بأبى الذهب فى خيمته واقناعه بأن ما قام به ضد السلطان العثمانى يخالف الشرف والأمانة ، كما أن استيلاءه على دمشق عنوة يخالف الدين وخصوصا أن دمشق من أهم مراكز الحج الرئيسية إلى الحرمين ولا يصح انتهاكها .

٢ - إرسال عثمان باشا صرة ثقيلة من الدنانير إلى محمد أبى الذهب حتى يترك دمشق ويعود إلى مصر[٢] .

٣ - أن أبا الذهب حصل على وعد من السلطان العثمانى بالعفو عنه ، وتوليته شياخة البلد بدلا من على بك الكبير[٣] .

٤ - أن أبا الذهب كان يخشى من غضب الدولة العثمانية بعد أن تفرغ من حروبها مع الروسيا فتقوم بالانتقام منه ومن قواته فى بلاد الشام .

٥ - أن العثمانيين نجحوا فى إثارة النزعة الدينية عند أبى الذهب ، وأوهموه بأن من يعصى السلطان كأنه يعصى الله ورسوله ، كما أثبتوا له أن اتصال على بك الكبير بالروس أعداء الإسلام وانسياقه وراء أفكار كاترين امبراطورة الروسيا كل ذلك يعد خيانة للإسلام والمسلمين .

ولما وصلت أنباء انقلاب أبى الذهب على سيده إلى القاهرة لم يكن هناك متسع من الوقت لتجهيز الجيوش لملاقاته ، ومع ذلك فقد أرسل على بك جيشا لمقاتلته بقيادة إسماعيل بك غير أن هذا الجيش انضم إلى أبى الذهب ، وعندئذ لم يجد على بك مناصا من الانسحاب والالتجاء إلى حليفة ظاهر العمر فى عكا ، ومشاركته فى مواجهة العثمانيين فى بلاد الشام .

وفى بلاد الشام أعد على بك العدة للعودة إلى مصر ، فجمع حوالى خمسة آلاف جندى تقدم بهم لملاقاة أبى الذهب الذى أرسل جيشا لملاقاته يصل تعداده إلى حوالى اثنى عشر ألفا[٤] . وفى الصالحية دارت المعركة الفاصلة وانتصر أتباع على بك فى بداية الأمر، وانفتح الطريق أمامهم إلى القاهرة ، ولكن أبا الذهب لم يلبث أن أثار الحماس فى أتباعه متهما على بك بالكفر والالحاد ، كما رماه بالتحالف مع الكفار لاخضاع البلاد حتى

١- محمد رفعت رمان : المرجع السابق ص١٦٩ .

٢- شكرى : المرجع السابق ص٢٧ .

٣- تاريخ جودت جـ١ ص٣٤٦-٣٤٧ .

٤- شكرى : المرجع السابق ص٢٨-٢٩ .

يقضى على الدين الإسلامى ويرغم الأهالى على اعتناق المسيحية ، ونتيجة لذلك ازداد حماس أتباع أبى الذهب وتمكنوا من إحراز النصر على قوات على بك الذى ظل يقاتل حتى أصيب بجرح فى وجهه وسقط من على جواده وأخذ أسيرا ، وبقى فى الأسر سبعة أيام حتى مات فى الخامس عشر من صفر ١١٨٧هـ الموافق ٨ مايو ١٧٧٣م ، وقد شكك الجبرتى فى طريقة موته ، فقال: "فأقام سبعة أيام ومات والله أعلم بكيفية موته[١]" .

وبوفاة على بك الكبير أسدل الستار على أكبر محاولة عرفتها مصر للتخلص من السيادة العثمانية واعلان استقلالها واستأثر محمد أبو الذهب بالنفوذ والسلطة بمساندة العثمانيين ، ومعاضدة الباب العالى له حيث "راسل الدولة العثمانية وأظهر لهم الطاعة[٢]" واعترف بسيادتهم على مصر ، ولكن حكمه لم يستمر طويلا حيث وافته المنية فى الثامن من يونيو ١٧٧٥م أثناء محاربته لقوات ظاهر العمر فغير ذلك موازين الأمور داخل مصر.

وقد اختلفت آراء الباحثين حول وفاة أبى الذهب فمنهم من ذهب إلى أنه مات بداء السكتة القلبية ، ومنهم من قال إنه مات بمرض الحمى ، ومنهم من ذكر انه أصيب بمرض خبيث توفى على أثره نتيجة لأنه هدم ديرا للرهبان وقتل من فيه[٣] . وعلى كل حال فبعد وفاة أبى الذهب وقعت البلاد فى حالة من الفوضى فقد شرع كبار أمراء المماليك فى التنازع على السلطة وانقسموا إلى شيع وطوائف ، ولم تهدأ لهم ثائرة حتى تمكن مراد بك وابراهيم بك من الاستئثار بالحكم واقتسام مشيخة البلد وإمارة الحج فيما بينهما ، وفى عهدهما ازدادت أحوال مصر سوءا فقد شاعت فيها الفوضى وانعدم الأمن ، وانفلت زمام الأمور من يد العثمانيين[٤] . ولما خرجت الأمور عن حدودها وتدهورت الأحوال لدرجة أن أصبح الأجانب فى مصر رهينة تصرفات مراد بك وابراهيم بك وأخذا فى ابتزاز قناصل الدول الأوربية وتهديدهم بتخريب كنائس الاسكندرية إذا لم يدفعوا لهما الأموال التى يطلبانها ، تقدمت الدول الأوربية بشكواها إلى الباب العالى فى عام ١٧٨٦ ، فأرسلت الدولة العثمانية أسطولا بقيادة حسن قبطان باشا فتمكن من السيطرة على زمام الأمور[٥] ، والدخول إلى القاهرة فى أغسطس ١٧٨٦م والحد من سيطرة هذين المملوكين إلى درجة كبيرة ، وظل الحال على هذه المنوال حتى جاءت الحملة الفرنسية على مصر فى يوليو من عام ١٧٩٨م .

١- الجبرتى : المرجع السابق جـ١ ص٣٨٥ . وانظر أيضا فؤاد شكرى : المرجع السابق ص٣٠.
٢- الجبرتى : المصدر السابق جـ١ ص٤٢٣ .
٣- تاريخ الأمير حيدر : نزهة الزمان فى تاريخ جبل لبنان ، القاهرة ، مطبعة السلام ١٩٠٠م ص٨٢٤.
٤- Charles Roux : L' Angleterre de Suez, et l' Egypte PP. 20-21
٥- I Bid : P. 195

ثانيا : الحركات الانفصالية ضد الدولة العثمانية فى بلاد الشام :

قسمت بلاد الشام بعد سقوطها فى يد العثمانيين فى أعقـــاب موقعــة مــرج دابــق ١٥١٦م إلى ثلاث إيالات هى :

١ - حلب وتشمل بلاد الشام الشمالية .

٢ - طرابلس وتشمل وسط الشام .

٣ - دمشق وتشمل معظم البلاد الجنوبية وفلسطين .

واستمر هذا التقسيم سائدا حتى عام ١٦٦٠م إذ استحدثت إيالة جديدة وهـــى صيــدا لتشمل مدن الساحل وضواحيها وبلاد صفد حتى تتمكن الدولة من تقوية قبضتها على هـــذه المناطق[1] وفيما يلى نعرض لأهم الحركات الانفصالية فى هذه المناطق :

١ - حركة ظاهر العمر الزيدانى :

بعد أن اختار أهل طبرية وصفد ظاهر العمر حاكما عليهم فى عام ١٧٣٣م ، أخذ فــى تنظيم أموره استعدادا للانفصال عن الدولة العثمانية . وقد استطاع ظاهر العمر أن يضم فــى فترة قصيرة صيدا ويافا وحيفا ونابلس والرملة إلى حكمه ، ولما حـــاول باشــوات الشــام الوقوف فى وجهه أخفقوا فى مسعاهم فأدى ذلك إلى ازدياد نفوذه[2] ورغبته فى التوســـع . وخلال ذلك تمكن ظاهر العمر من الحصول على فرمان من السلطان العثمانى بحكمه لصيــدا ، كما تمكن من الاستيلاء على عكا وبنى بها قلعة وسكن فيها وصارت لـــه شــهرة ذائعــة وأخذت قوته فى التزايد وبخاصة بعد تحالفه مع على بك الكبير فى مصر .

ونتيجة لانشغال الدولة العثمانية فى حروبها مع الروسيا استأثر ظاهر العمـــر بحكــم عكا فى الفترة ما بين ١٧٥٠-١٧٧٦م ولم تجرؤ الدولة علـــى مناصبتـــه العــداء ، بــل اضطرت إلى التساهل معه وأدى ذلك إلى تراخى نفوذها وتقوية مركزه ، فأخذ يبنى القـــلاع حول عكا ، ويقوى من استحكاماتها ، ويتخذ الوسائل الكفيلة التى تدعم نفـــوذه فـــى هــذه المنطقة[3] .

١- رأفت الشيخ : فى تاريخ العرب الحديث ، القاهرة ، دار الثقافة ١٩٧٧م ص١٣٥ .

٢- من أبرز الأمثلة على ذلك حملة سليمان باشا والى دمشق إلى طبرية فى عام ١٧٣٣ .

انظر ميخائيل الدمشقي الخورى : تاريخ الشام ١٧٢٠-١٧٨٢ تحقيق أحمد غسان سبانو ، دمشق ، الطبعة الأولـــى ١٩٨٢ ص٢٤ .

٣- فؤاد شكرى : المرجع السابق ص٢١ .

ونتيجة لتحالف ظاهر العمر مع على بك الكبير فى مصر ، أبدى كل منهما اسـتعداده لنجدة الآخر فى حالة محاولة الدولة العثمانية الغدر بهما ، وقد أبدى علـى بـك اسـتعداده لنجدة ظاهر العمر ومساعدته ضد عثمان باشا والى الشام ، وأرسل إليه جيشا مكونـا مـن أربعة آلاف جندى لمعاونته .

وعندما أرسل على بك جيشا بقيادة محمد بك أبى الذهب إلى الشام لمحاربـة الدولـة العثمانية آزره ظاهر العمر حتى تم له النصر ، ودخول دمشق إلا أن خيانـة أبـى الذهـب لسيده قلبت الأمور رأسا على عقب وجعلت علي بك يفر إلى فلسطين للاسـتنجاد بالشـيخ ظاهر العمر فى محاولة لاستعادة مركزه فى مصر ، وعلى الرغم من تقديم ظـاهر العمـر المساعدات لنجدته فقد اندحرت قواته للمرة الثانية علـى أيـدى أبـى الذهـب ، فـأخذت العواصف تهب بشدة على حليفه ، وانتهى الأمر بالتدخل العثمانى المسلح والقضـاء علـى ظاهر العمر فى عام ١٧٧٥م ، وقتل معظم أبنائه وعودة النفوذ العثمانى إلى هذه المنطقـة، ولكن ذلك لم يستمر طويلا فقد أدى انعدام السيطرة العثمانية على تلك المنطقة إلى ظـهور أحمد باشا الجزار بحركة انفصالية أخرى فى محاولة لملء الفراغ السياسى فى تلك المنطقة فى الفترة ما بين ١٧٧٦-١٨٠٤م .

٢ - حركة أحمد باشا الجزار[١] ١٧٥٠-١٨٠٤م :

بدأ نجم أحمد باشا الجزار فى الظهور بعدما التحق بخدمة على بك الكبير فى مصـر ، إلا أنه ما لبث أن فكر فى الهرب من مصر خشية بطش سيده ، فتنكر فـى زى المغاربـة ، وتوجه إلى دمشق حيث عمل فى خدمة واليها فترة ، ثم اتجه إلى لبنـان واتصـل بـالأمير يوسف الشهابى الذى أعجب بذكائه وقوة عزيمته وطموحه فأسند إليه ولاية بـيروت التـى كانت مهددة فى ذلك الوقت من قبل الأسطول الروسى[٢] ، وقد تمكن الجزار مـن السـيطرة على زمـام الموقـف فـى بـيروت لفـترة ، إلا أن الأسـطول الروسـى سـرعان مـا

١- اسمه الحقيقى أحمد البوشناقى ، وأطلق عليه لقب الجزار لشدته وصرامته واسرافه فى القتل وسفك الدماء مـن أجـل الوصول إلى الحكم والسيطرة والولاية .

للتفاصيل انظر الأمير أحمد حيدر الشهابى: لبنان فى عهد الشهابيين - تحقيق أسد رستم وفؤاد البستانى ، القسـم الأول ، بيروت ، المطبعة الكاثوليكية ١٩٣٣ ص٩٦ .

٢- محمد جميل بيهم : الحلقة المفقودة فى تـاريخ العـرب ، القـاهرة ، مطبعـة البـابى الحلبـى ، الطبعـة الأولـى ١٣٦٩هـ/١٩٥٠م ص٥٦ .

هزم قواته هناك مما اضطره للرحيل إلى استنبول ، وهناك استطاع أن يظفر بلقبى الـوزارة والباشوية ، وبمنصب ولاية صيدا وأن يبدأ مرحلة جديدة فى حياتـه كـوال تـابع للدولـة العثمانية مباشرة . وبعد أن برزت قدرة الجزار فى السيطرة على زمام الموقف ، والقضـاء على بقية الزيدانيين من أتباع ظاهر العمر ، منحته الدولة العثمانية عكا بالإضافة إلى صيـدا ، فقام بتحصينها ، كما عمل على زيادة مماليكه وأنصاره . وخلال ذلك سعى الجزار للقضاء على أسرتى آل العظم والشهابيين[1] ، كما بلغ نفوذه شأوا عظيما لدرجة أن أصبح بمثابـة الحاكم الفعلى لبلاد الشام .

وبعد أن سمع الجزار بتحرك قوات الحملة الفرنسية من مصر استعدادا للهجوم علـى الشام ، بدأ فى زيادة استحكاماته فى عكا ، وتجهيز مدافعه تحت إشراف عدد من الخـبراء الأوربيين ، كما أوجد فيها حاميات عديدة تستمد مساعدتها بحرا من الأسـطول الانجلـيزى بقيادة "سيدنى سميث" مما جعل عكا صعبة المنال أمام بونابرت وقواتـه وجعـل رجـالات الدولة العثمانية ينظرون إلى الجزار على أنه مطمح آمالهم فى النصر . ونتيجة لاستبسـال الجزار وقواته فى الدفاع عن عكا ، وتفشى مرض الطاعون بين القوات الفرنسـية اضطـر نابليون إلى الانسحاب من أمام أسوار عكا والعودة إلى مصر مما زاد مـن هيبـة الجـزار وعزز من مكانته أمام الناس ، وجعله يظهر بمظهر الحاكم المطلق فى بلاد الشـام ، ولمـا خشيت الدولة العثمانية من ازدياد نفوذه أخذت تدبر له المكائد للقضاء عليه فتحـالفت مـع الأمير بشير الشهابى ضده ولكن الجزار فوت هذه الفرصة على أعدائه، وحـاول أن تظـل علاقاته وطيدة مع العثمانيين وكان مستعدا لاعلان ولائه للسلطان ، وظلـت الأمـور علـى حالها حتى توفى الجزار فى ١٢١٩هـ/ أبريل ١٨٠٤م وهو فى ذروة قوته وسلطانه .

١- للتفاصيل انظر الشهابى : المصدر السابق ص١٦٠-١٦٥ .

الموضوع السـابـع

معركة نفارين *NAVARINE* البحرية
٢٠ أكتوبر ١٨٢٧ (١٢٤٣ هـ)
دراسة فى وثائق المعية السنية

كتابة التاريخ من واقع مصادره الأصلية تتيح للمؤرخ الإلمام الدقيق بحقائق العصر الذى يدرسه، وتجعل أمامه صورة الأحداث واضحه وتضيف دلالات جديدة وموضوعيه لبحثه ، وتجعله ينهج نهج الأسلوب العلمى الذي يحتم عليه ألا يعتمد على النقل عن الغير وإنما يستقى التاريخ من أوثق المصادر والأصول التى تجعله يقف على حقائق الأمور بلا أدنى شك أو موارية ، فالوثائق هى المادة الخام التى تحمل روح العصر الذى كتبت فيه ، والتى تعطى الفهم الصحيح له وتفسر احداثه .

وديوان المعيه السنية[1] بقسميه العربى والتركى والذى اعتمدنا عليه فى كتابة هذه الدراسه يتميز عن غيره من الدواوين بأهميته التاريخيه خاصة وأنه الديوان الذى ينظر [illegible] ويفحص مختلف أعمال الدولة ، ويفصل فى القضايا التى تقدمها إليه الدواوين الأخرى ، وكانت بواسطته يتم الأتصال مع الدول الأخرى .

وهذا الديوان عبارة عن وحدة أرشيفيه متكامله منظمه تشمل العديد من الدفاتر والمحافظ ويتكون القسم العربى منه من ٥٠٤ سجلا أقدمها السجل رقم (١) بتاريخ سنه ١٢٤٥هـ (١٨٢٩م) وأحدثها بتاريخ ١٢٩٧ هـ (١٨٧٩م) وهذه السجلات تشمل العديد من الأوامر والشروح والخطابات والفرمانات .

أما القسم التركى من دفاتر المعيه والذى اعتمدنا عليه بصفه اساسيه فى هذه الدراسه فمعظمه مترجم إلى العربيه ، وبداية كتابة أوامر الوالى وتعليماته فيه أقدم من سجلات القسم العربى فمن المعروف ان الأوامر الحكومية الرسمية كانت تكتب فى بداية عصر محمد على باللغه التركيه ، ثم كتبت بالتركيه والعربيه ثم رجعت إلى التركيه فقط ، وأن هذه الوثائق قد تم ترجمة معظمها إلى العربيه فى عصر الملك فؤاد الذى عمل على إماطة اللثام عما أحتوته دار المحفوظات من وثائق بهدف الإشاده بأعمال جديه إبراهيم ومحمد على ووالده إسماعيل وابراز دورهم فى تأسيس مصر الحديثه[2] .

والوثائق التى نعرض لها تمثل صوره حيه بالأسانيد والأرقام الرسميه لحروب محمد على فى بلاد اليونان منذ ان طلب منه السلطان محمود الثانى مساندته فى إخماد الثوره اليونانيه وحتى واقعة نفارين البحريه وما أعقبها من تطورات .

---

(١) أطلق على هذا الديوان مسميات عديدة منها ديوان الوالى ، وديوان شورى المعاونة ، والديوان العالى وقد نشرت وزارة الثقافة والإرشاد القومى السجل الأول من القسم العربى من هذا الديوان والذى يشمل الفترة من ٨ يوليو ١٨٢٩ إلى ٢٣ ديسمبر ١٨٣٠ فى يوليو ١٩٦٠ .

(٢) ظلت التركية لغة الدواوين معظم عصر اسماعيل حتى ترجم عبد الله فكرى اللوائح إلى العربية . للتفاصيل انظر كتابنا اتجاهات الكتابة التاريخية فى تاريخ مصر الحديث والمعاصر ، القاهرة ، عين للدراسات والنشر ١٩٩٤ ص ٤٥ وما بعدها .

والجدير بالذكر ان لغة هذه الوثائق سواء العربية أو المترجمة من التركية فى معظمها ركيكة لم يراع فيها قواعد النحو أو الهجاء إلى جانب امتزاجها فى معظم الأحيان بكلمات تركيه وفارسيه وقد إضطررنا حفاظاً على الأمانه التاريخيه إثبات هذه الوثائق بأسلوبها كما هى وعدم التدخل بالتصويب لأى خطأ يكون مصدر الوثيقه قد وقع فيه حفاظاً على أصالتها ، ومراعاة لأسلوب العصر الذى كتبت فيه .

والجدير بالذكر أن التاريخ المتبع فى تسجيل هذه الوثائق هو التاريخ الهجرى ، ويذكر أحياناً بجانبه التاريخ القبطى خاصة فى الوثائق المتعلقة بالزراعة ومواعيدها .

من المعروف أن بلاد اليونان كانت جزءاً من السلطنه العثمانيه منذ أن دخلتها قوات محمد الفاتح فى عام ١٤٥٣م ، وأن السلطان العثمانى كان يرسل إليها من يحكمها من ولاته حتى الربع الأول من القرن التاسع عشر واستمرت الأمور على ذلك المنوال حتى أسس التجار اليونانيون جمعية اطلقوا عليها هيتريا أى جمعية الإخوان Hetairia Philike بهدف طرد الأتراك من أوربا ، وتخليص اليونان من التبعيه الأسلاميه ، وإنقاذ الحضارة الإغريقية من سيطرة الأتراك تحقيقا لوصية بطرس الأكبر وكاترنيا.

وقد استندت هذه الجمعيه على عدة ركائز منها :.

مبادئ الحرية والمساواة التى أطلقتها الثورة الفرنسية ، والمساندة المادية والمعنوية من العديد من الجمعيات الأهلية التى تشكلت فى معظم بلدان أوربا تحت اسم جمعيات محبى اليونان هذا بالإضافه إلى تشجيع بعض الدول الأوربيه خاصة الروسيا على الثورة ضد العثمانيين ، واشتداد النعرة ضد مساوئ الحكم العثمانى والمبالغة فى وصف هذه المساوئ .

ونتيجة لذلك اتخذ اليونانيون من المورة حصنا منذ عام ١٨٢١م وشكلوا حكومتهم ، واشتعلت نيران ثورتهم ، واستطاعوا ان يكبدوا العثمانيين خسائر فادحه حيث قاموا بتوجيه الضربات المفاجئه للحاميات العثمانيه فى العديد من المواقع ، كما ضيقوا الخناق على الأسطول العثماني المرابط فى المياه الألبانية ، وقطعوا الطريق عليه حتى أضحى كالأسير مما اضطر السلطان العثمانى محمود خان [1] إلى طلب النجدة من محمد على والى مصر لعله يستطيع بجيشه واسطوله انقاذه من هذه الورطة وإعادة الأمور إلى نصابها فى نظير منحه لقب "حاكم كريت والمورة " ولقب " قاطع دابر الكفرة والمشركين [2] " .

وعلى الرغم من أن بلاد اليونان لم تكن مطمحاً لآمال محمد على فى أى وقت من الأوقات فقد أكدت الوثائق أن محمد على لم يتردد لحظة فى إجابة السلطان إلى طلبه [3] بل حاول إقتناص الفرصة ليؤكد للسلطان مدى قدرته على مساندته فى الظروف الصعبة ، وإظهار تمام رضوخه لما تأمره به الدولة فأرسل رسالة إلى السلطان يقول فيها " إنى بصفة كونى خادماً لولى نعمتى صاحب الشوكة السلطان المعظم فإنه يمكن للدولة العلية أن تطلب جميع ما تريد ، وإنى مستعد للقيام به وفاءً بحق الدين والملة ، وأن ذلك عندى من الأمور المعتنى بها ، وإنى

---

[1] السلطان محمود الثانى .

[2] رينيه وجورج قطاوى : محمد على وأوربا – ترجمة الفريد يلوز – القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٥٢ ، ص ٨١ – ٨٢ .

[3] دفتر معية تركى بتاريخ ٢٩ رمضان ١٢٣٦ هـ وثيقة رقم ٢٩٢ .

لا أتأخر عن بذل نفسى فى سبيل تقوية شأنها وإعلاء كلمتها ورفع قدرهـا [١] " . ونتيجة لذلك أمر محمد على صهره أمير البحر محرم بك[٢] بتجهيز الإسطول والتحرك لمساندة الإسطول العثمانى المحاصر ، وتعزيزه بالمهمات والذخائر[٣] .

وقد أعد محرم بك أربع عشرة سفينة حربية بما يلزمها من الجنود ، وأقلع بها لمساندة الدولة العثمانية فى محنتها وبعد أن وصل إلى مياه كريت إشتبك مع بعض السفن اليونانية التى كانت تهاجم سفينة تجارية عثمانية ، كما قام بمطاردة سفن القراصنة فى بحر ايجه ، ونظراً للخسائر التى تعرض لها الإسطول المصرى فى هذه المناوشات عاد إلى الأسكندرية مضطراً فى محاولة لإعادة تنظيم وتعويض ما فقده وإصلاح ما يحتاج من السفن إلى ترميم[٤] .

وفى محاولة من محمد على لتعزيز الموقف أعد أسطولاً أخر يتكون من ١٨ سفينة تحت قيادة " طبو زادة أوغلى قبوجى باشا محمد أغا " لمساندة الأسطول العثمانى والعمل على تخليصه من الحصار[٥] .

كما أعد جيشاً برياً مكوناً من ١٧ ألف جندى من المشاة ، وأربعة بلوكات من المدفعية وسبعمائة وخمسين من الفرسان ، وأوكل قيادته لابنه إبراهيم ومساعده الكولونيل سيف[٦] .

وقد أقلعت هذه الحملة من الأسكندرية فى ١٩ يوليو ١٨٢٤ واتفق على أن يتجمع الأسطولان التركى والمصرى فى جزيرة رودس ثم يتحركا فى إتجاه الجزر اليونانية المتناثرة فى بحر إيجة حيث كانت تمثل المعقل الرئيسى للثوار والقراصنة الذين هددوا المراكب العثمانية وبعدها يتحركون نحو شبه جزيرة المورة المركز الرئيسى للثورة .

وطبقاً لتعليمات الباب العالى فقد تولى القيادة البحرية العليا للأساطيل القبطان " خسرو باشا[٧] ، بينما تولى " إبراهيم باشا " قيادة القوات البرية .

---

[١] انظر وثيقة رقم (١) تحت عنوان رسالة من محمد على إلى السلطان محمود خان .

[٢] أصله من قوله ، وقد استخدمه محمد على فى كثير من المهام ، ولقته به زوجه بكريمته تفيده هانم ، وجعله محافظاً للأسكندرية ، كما أحال إليه إدارة أسطوله وإشترك فى حرب المورة وواقعة نفارين ثم عاد إلى الأسكندرية محافظاً .
أنظر دار الوثائق : محافظ ابحاث ، محفظة ١١٤ .

[٣] أنظر وثيقة رقم (١) بتاريخ ١٠ شوال ١٢٣٦هـ .
ومن المعروف أن تكوين البحرية المصرية فى العصر الحديث بدأ فى عام ١٨١٠ منذ أن شرع محمد على فى خوض غمار الحرب مع الوهابيين ففى ترسانة بولاق أنشئت السفن التى إستخدمتها مصر فى البحر الأحمر خلال حروبها مع الوهابيين ، وفى ترسانة الأسكندرية أنشئت السفن التى كانت تمخر عباب البحر المتوسط حيث عهد محمد على إلى شاكر أفندى الأسكندرى وإلى الحاج عمر أحد مشاهير المعلمين فى بناء السفن بالأسكندرية مهمة إنشاء وعمارة إسطوله ، كما أنشأ إدارة خاصة لهذا الإسطول جعل على رأستها صهره محرم بك .

[٤] فقد الإسطول المصرى فى هذه المناوشات ثلاث سفن ، كما تعطل أربعة .
أنظر عبد الرحمن زكى : التاريخ الحربى لعصر محمد على ، القاهرة دار المعارف ١٩٥٠ ص ١٧٩ .

[٥] أنظر الوثيقة رقم (١) .

[٦] دفتر١٣ معية تركىبتاريخ غرة رجب ١٢٣٩هـ (١٨٢٤م) ص ١٠٤ وللتفاصيل انظر عبد الرحمن الرافعى : عصر محمد على ، القاهرة ، النهضة المصرية ، الطبعة الثالثة ١٩٥١ ص ٢١٦ ، وببيركرابيتس إبراهيم باشا - ترجمة محمد بدران - القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٣٧ ص٧٠ .

[٧] أول والى عثمانى لمصر بعد جلاء الفرنسيين عنها فى علم ١٨٠١ ، وبعد أن تم إبعاده عن مصر بفعل دسائس محمد على تولى الصدارة العظمى أكثر من مرة فى الأستانة .
أنظر دار الوثائق : محافظ أبحاث محفظة ١١٤ موضوعات متنوعة .

ونتيجة لعدم توحيد أمر القيادة العليا في يد قائدٍ واحدٍ يستطيع إدارة دفة القتال ، ونظراً للكراهية الشديدة التى كان يكنها خسرو باشا لمحمد على وإبنه ، ولرغبته فى إظهارهما أمام السلطان بمظهر غير المتعاون وغير المهتم بمصلحة السلطنة أخذ خسرو باشا فى كتابة التقارير ضد إبراهيم وإرسالها إلى الأستانة ، كما إشتكى إبراهيم من " خسرو " لعدم إسعافه بالسفن اللازمة أثناء حصار ميسولونجى ونتيجة لذلك وحرصاً على حسن سير العمليات الحربية طالب محمد على السلطان بأن يتولى ابنه ابراهيم القيادة العليا للأسطول بجانب قيادته للقوات البرية حتى يتمكن من إحراز النصر[1]

ومع أن السلطان قد وافق على عزل خسرو من القيادة البحرية فإن لم يعيّن ابراهيم مكانه بل عيّن عزت باشا قبودانا[2] للأسطول كما أصدر السلطان فرماناً فى ٦ مارس ١٨٢٤ بتعيين إبراهيم باشا والياً على جزيرة كريت وموره ، ومنحه الحرية الكاملة لإعادة النظام الاستقرار إلى بلاد اليونان .

وسارت العمليات الحربية على قدم وساق ، وفى حين كانت القوات البرية بقيادة إبراهيم باشا تحقق الانتصار تلو الآخر كان الأسطول العثمانى المصرى[3] يتلقى الضربات الموجهه فى البحر ويحقق اليونانيون العديد من الانتصارات عليه وقد يرجع السبب فى ذلك إلى مهارة اليونانيين البحرية ، وعدم وجود قواد بحريين أكفاء لدى العثمانيين أو محمد على هذا بالإضافة إلى حداثة عهد المصريين بركوب البحار ، وقدرة السفن اليونانية الصغيرة على المناورة وخفة الحركة أكثر من السفن العثمانية الضخمة ثقيلة الحركة .

وعلى أى حال فقد استغل ابراهيم باشا الخلاف الذى دبّ فى معسكر الأغريق ، وتذمر بعض بحارتهم وإضرابهم بسبب عدم دفع رواتبهم واستطاع أن يضرب الحصار على نفارين Navarine معقل بلاد اليونان وتمكن من اسقاطها فى الثامن عشر من مايو ١٨٢٤ وكانت هذه المعركة فاتحة انتصاراته فى حرب المورة ، كما استطاع احتلال تريبولتزا Tripolitza بوسط اليونان فى الثالث والعشرين من يونيو ١٨٢٥ . وفى اعقاب ذلك أخذت قوات ابراهيم باشا تأهب للزحف نحو نوبليا Nauplia [4] قصبة بلاد اليونان مما أدى إلى اقتراب الثورة اليونانية من نهايتها دون أن تحقق مبتغاها فى الاستقلال .

ونتيجة لذلك إرتاعت أوربا خشية من عواقب انتصار القوات المصرية ، وعقدت نيتها على ألا يستكين الصليب للهلال [5] فبدأت الحكومات الأوربية فى الإساءة إلى سمعة ابراهيم باشاوتشويه صورته أمام الرأى العام الأوربى باتهامه بالبربرية لقيامه بسفك دماء الأسرى ، وخرق قوانين الحرب .

---

[1] أنظر وثيقة رقم (٧) تحت عنوان رغبة محمد على فى توحيد القيادة العليا للإسطول ووضعها فى يد إبنه إبراهيم .

[2] بمعنى قائداً للأسطول .

[3] كان الأسطول المصرى مكوناً من ثمانى عشرة سفينة حربية على حين كان الأسطول العثمانى مكوناً من ست عشرة سفينة ، وأربع سفن تونسية وجزائرية ، وست حراقات ، وأربعين مركباً لنقل الجنود .

[4] كانت حكومة الثورة قد إتخذت من هذه المدينة عاصمة ومقراً لها .

[5] بيير كربيتس : إبراهيم باشا – ترجمة محمد بدران – القاهرة – لجنة التأليف والترجمة ١٩٣٧ ص ٧٧ .

وبينما كان القائد المصرى يصلي الثوار ناراً حامية ويتحقق له الفوز الساحق فى المعارك التى خاضها والتى كان أبرزها سقوط (مسولنجى) Missolonghi في الثالث والعشرين من أبريل ١٨٢٦ [١] مما جعل الطريق إلى أثينا مفتوحاً رأت الدول الأوربية أنه لا مفر من التدخل الفعلى لمساندة اليونانيين وتأييد جانبهم . وتحكى لنا الوثائق عن عقد إنجلترا وفرنسا وروسيا لمؤتمر فى لندن فى السادس من يوليو ١٨٢٧ بقصد إنهاء الأزمة اليونانية ، وإعادة حبل الأمن فى البحر المتوسط[٢] واتفاقها على ضرورة على ضرورة قيام الباب العالى بمنح بلاد اليونان استقلالاً إدارياً فى ظل السيادة العثمانية ، وعلى أساس دفع جزية سنوية ، وإذا لم يقبل الباب العالى هذه الوساطة فى خلال شهر شهر من الزمان ، ويوافق على وقف القتال فإن الدول الثلاث تتفاوض فيما بينها " لتفرض الهدنه على الطرفين بمنعهما من مواصلة القتال ، من غير أن تشترك هى مباشرة فى الحرب "

وبينما كانت المناورات السياسية مستمرة ، وجهود الدول الأوربية لوقف القتال تتحرك فى كافة الأتجاهات استولى إبراهيم باشا على أثينا ، وضرب الحصار على قلعة الأكروبولسAcropolis حتى سلمت فى ٢٧ يونيو ١٨٢٧ مما شجع السلطان على رفض وساطة الدول الأوربية بحجة أن معالجة أمر العصاة من حقوق الدولة العلية ، وأن الثورة اليونانية تعد مسألة داخلية بحتة ، وأن السلطان لن يقبل أى مسعى فى هذا السبيل لأن التدخل فى مثل هذه الشئون بالنسبة للعلاقات الدولية يعد أمراً فى غير محله[٣].

وعلى الرغم من اصرار السلطان العثماني على موقفه وتشدده في معالجة الأمور ، فقد كان لمحمد علي رأيّ آخر فرضه عليه تفكيره في عواقب الأمور إذا ما تدخلت أساطيل إنجلترا وفرنسا وروسيا في المعارك لصالح الثوار ونتيجة لذلك أرسل إلى الصدر الأعظم بالآستانة يعرض عليه الحالة الحربية في بلاد المورة بشكل واضح والمازق الذي يمكن أن تتعرض له القوات والأساطيل الإسلامية إذا لم يتم تسوية الأمر سلميا بقوله " إن عمل الدول في الوقت الحاضر لم يعد بمثابة تهويش بل يلوح منه شبح الحرب ! .. نعم نحن قوم من أرباب الحرب والضرب إلا أننا ما زلنا في مستهل كتاب الحرب نقرأ في حرف الألف والباء أما الدول فقد أتموا كتب هذا العلم فلو بادرناهم بالحرب فإني أرى بصفة محققة أن الأساطيل لاخير منها على الإطلاق ، وستهلك أرواح الثلاثين أو الأربعين ألفاً من الجنود الموجودة فيها [٤] "

وحفظاً لماء الوجه اقترح محمد علي توسط النمسا في الأمر حتى يمكن تسوية الموضوع بالشكل الذي يرضي السلطنة . ونظراً لرفض السلطان لأي مسعى سلمي ، وتشدده في معاقبة الثوار رأت الدولُ الأوروبيةُ أنه من الصعب حسمَ النزاع لصالح اليونانيين إلا بالإلتجاء إلى القوةِ لصالحهم ، وأنه أصبح من واجب القواتِ البحريةِ المتحالفةِ أن تبدأ الإتصال بالثوار

---

[١] حول تفاصيل هذه المعركة أنظر عبد الرحمن زكى : مرجع سابق ، ص١٩٩-٢١١ .

[٢] محافظ بحر برا . محفظة رقم ١١ ترجمة القسمُ الخاصُ بالمورةِ من المكاتبة رقم ٤٦ بتاريخ ١٢ رجب ١٢٤٢ هـ .

[٣] نفس الوثيقة .

[٤] انظر وثيقة رقم (١٣) تحت عنوان مقترحات محمد علي للسلطنة بشأن قبول وساطة الدول الكبرى وانهاء الأزمة اليونانية سلمياً .

إتصالاً ودياً ، وأن تصادر كلَّ الإمدادات التي ترسلها الدولة العثمانية عن طريق البحر لمحاربتهم .

وإلى جانب ذلك حاصرت أساطيلُ الدولِ المتحالفةِ قوات ابراهيم باشا ، وقامت بتحذيره من التقدم بقواتهِ أو خروج أسطوله إلى عرض البحر حتى لا يتم استخدام القوة ضده . وكان رد ابراهيم باشا على هذا التحذير أن مهمته لا تشمل السياسة وأن التفاوضَ يكونُ مع محمد على فى مصرَ أو مع السطان فى الأستانة ، وحتى تصدرَ إليه التعليمات فى هذا الشأن فأنه يتعهد بوقف جميع الأعمال الحربية التى تقوم بها قواته البرية والبحرية مؤقتاً بشرطِ توقفِ الثوار عن أعمالهم العدائيةِ [١] .

وخلال ذلك بدأ اليونانيون يتحينون الفرصة للإيقاع بإبراهيم باشا واستفزاز قواتهِ خاصة بعد أن وصلتهم الامدادات من أنحاء أوربا فقاموا بحركاتٍ عدائيةٍ فى خليج كورنثوس ، وحاصروا كريتَ ونجحوا فى إبادة حامية عثمانية مما أدى إلى تحرج مركز القوات المصرية فى باتراس patra (شمالى مورة) وجعلَ ابراهيم باشا يضطرُ إلى قطع حبل المهادنة ومطاردتهم ومن ثم أبحرَ إلى باتراس مع مجموعةٍ من السفن الحربيةِ مما عجلَ بوقوع الكارثةِ فقط اتهمه قادةُ الحلفاء بنقض الهدنةِ المتفق عليها ، وأرسل " كوردنجتون" قائد الأسطول الإنجليزى سفنه لتعقب السفن المصريةِ ، وتهديدِها بالحربِ إذا لم ترجعْ من حيث أتت فاضطرت للعودةِ إلى نفارين . وعلى الرغم من ذلك فقد زحف إبراهيمُ باشا بقوةٍ من جنده داخلَ المورة لإنجاد الحاميات المصرية التى تطاول عليها الثوارُ مما دفع قوادُ الأساطيلِ المتحالفةِ إلى اتهامه بنقض الهدنةِ واتخذت من ذلك ذريعة للتحرش بالبحريةِ المصرية العثمانية.

وكانت السفنُ المصريةُ والعثمانية داخل الميناء فى ثلاثةِ صفوفٍ متوازيةٍ تقريبا كلٌ فى شكل نصفِ دائرةٍ ، وكانت السفنُ الكبيرةُ والفرقاطات[٢] فى الصف الأول ، ويليها سفنُ القرويت[٣] ثم سفنُ الأبريق [٤] وغيرها بعدها فى الصفِ الثالثِ . وكانت بنفارين استحكاماتٌ لتحمى مدخلَ الميناء كما وضعت بطارياتٍ من المدافع فى طرفِ جزيرة" أسفاختريا " مع مساعدةِ سفنٍ خفيفةٍ من الحراقاتِ [٥] .

وخلالَ ذلك أرسلَ أميرُ البحر الفرنسى (رينى) إلى الضباطِ الفرنسيين العاملين فى الأسطول المصرى بترك أعمالهم والتخلى عن الخدمةِ فى الأسطول المصرى حتى لا يحاربوا فرنسيين مثلهم فلبوا الدعوةَ [٦].

---

[١] حول المكاتباتِ عن هذا الموضوع انظر . أمين سامى : تقويم النيل جـ ٢ ص ٣٣٠ .

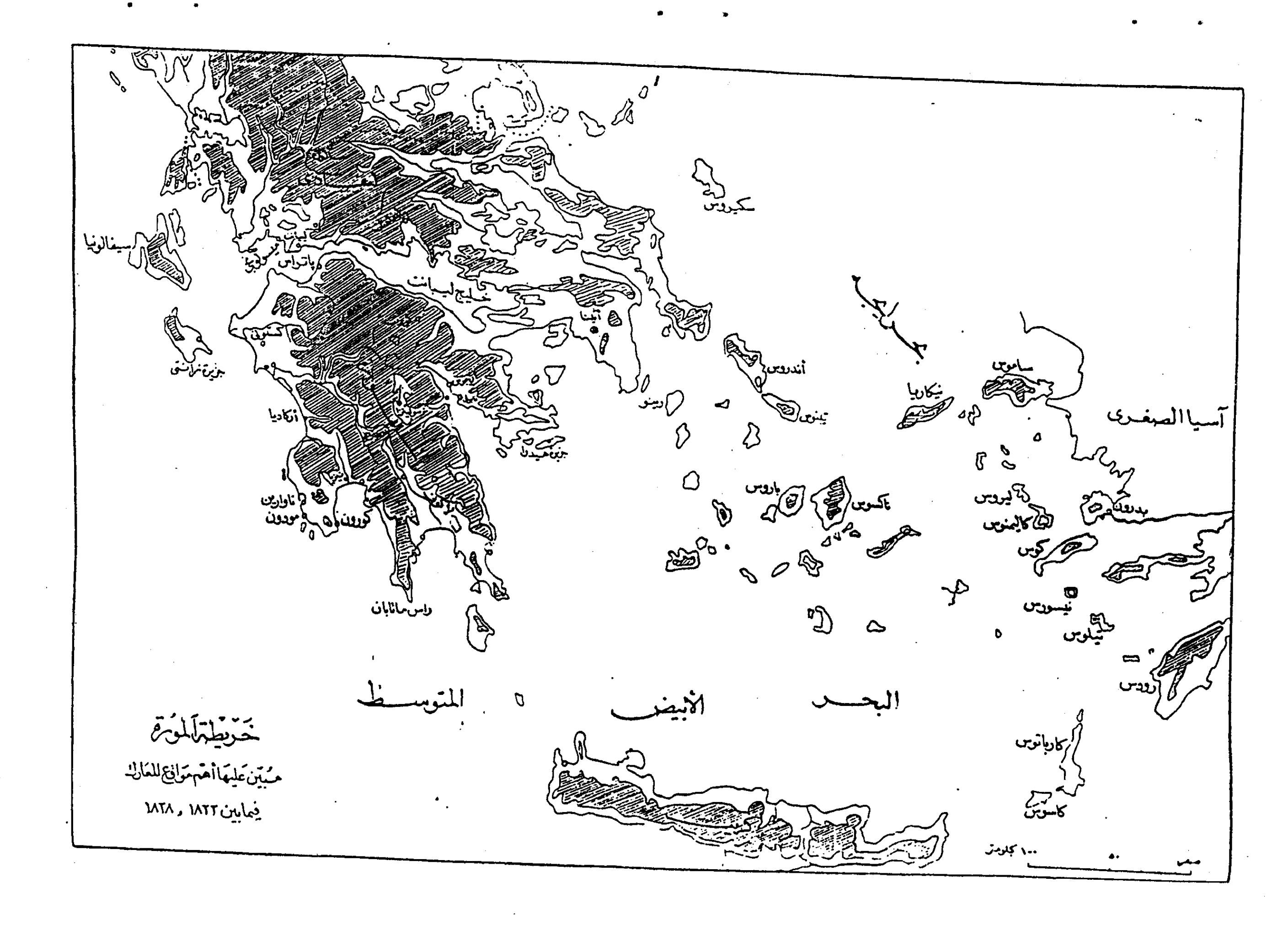
[٢] الفرقاطة كانت تحملُ حوالى خمسمائة من الجنودِ ، و٦٤ مدفعا كبيرا وصغيرا .

[٣] القرويت مركبٌ حربىٌ يحمل حوالى مائتين من الجنود أو مائتين ونيفا كما يحمل من اثنين وعشرين إلى خمسة وأربعين مدفعا صغيراً وكبيراً .

[٤] الأبريق مركبٌ حربىٌ له صاريان ويحمل من الجنود حوالى مائة كما يحمل مائتين ١٦ و ١٨ مدفعاً صغيراً انظر . عمر طوسون : صفحة من تاريخ مصر فى عهد محمد على ، الجيش المصرى البرى والبحرى طبعة ١٩٤٠ ص ٢٠٩

[٥] الحراقات مراكبُ تشتعلُ فيها النيرانُ فتندفع وسط سفن الأعداء لتحرقها بنارها ، وذلك عن طريق توجيهها بواسطةِ دفع الريح لشراعها .

[٦] عبد الرحمن زكى : مرجع سابق ص ٢١٨ .



خريطة المورة
مبين عليها أهم مواقع المعارك
فيما بين ١٨٢٢ و ١٨٢٨
البحر الأبيض المتوسط
آسيا الصغرى
سكيروس
سيفالونيا
باتراس
خليج ليبانت
أثينا
أندروس
تينوس
نيكاريا
ساموس
جزيرة زانتي
أركاديا
نافارين
مودون
كورون
رأس ماتابان
باروس
ناكسوس
ليروس
كاليمنوس
كوس
نيسيروس
تيلوس
رودس
كارباتوس
كاسوس
٥٠
١٠٠ كيلومتر

وفى منتصف الساعة الثانية من ظهر العشرين من أكتوبر ١٨٢٧ اقتحمت القوات المتحالفة البوغاز ، واصطفت وفقاً لنظام حربى على شكل نصف دائرةٍ تقريباً أمام الأسطول المصرى[١] والعثمانى وإقتربت منه حتى أصبحا وجهاً لوجهٍ ، وخلال ذلك انطلقت رصاصة من سفينة مصرية على بحارة إحدى السفن الإنجليزية مما كان ذريعة لقيام سفن الحلفاء بإطلاق نيرانها فى منتصف الساعة الثالثة بعد ظهرالعشرين من أكتوبر ١٨٢٧ على الإسطول التركى المصرى ، وتجاوبت المدافع ، وعلا الدخان وتناثرت أشلاء القتلى فى مشهد رهيب ، وإستمر القتال حوالى ثلاث ساعات ، وإنتهى بتدمير الإسطول المصرى التركى فى مذبحةٍ مروعة ، وفقدان حوالى ٣٠ ألف جندى .

وعلى الرغم مما حدث فقد رفضت الآستانة أن تعترف بالهزيمة أو تذعن بأن تدمير أساطيلها يعنى إنهاء القتال[٢] بل طالبت بإتخاذ التدابير اللازمة لإستمرار القتال فى حين أخذ محمد على – الذى تألم كثيراً عند سماعه خبر تدمير قوة مصر البحرية الوليدة[٣] – أخذ يبحث عن وسيلة للخروج من هذا المأزق الخطير خاصة وأنه أخذ يشعرُ بالمخاطر التى يمكن أن سببها له الدول الأوربية ، وكانت الوسيلة المثلى أمامه هى المفاوضاتُ وعقدُ الصلح مع الحلفاء وقد تم ذلك فى الثالث من أغسطس ١٨٢٨ والذى تم بمقتضاه جلاءُ قوات إبراهيم باشا عن شبه جزيرة المورة ، والتعهد بإعادة الأسرى اليونانيين ، وعدم إجبار اليونانيين المقيمين بمصر على مغادرتها في نظير إعادة جميع الأسرى المصريين والسفن المصرية التى إستولى عليها الحلفاء فى الحرب[٤]

ونتيجة لذلك صدرت الأوامر للقوات المصرية بإخلاء المدن اليونانية والإستعداد للرحيل إلى مصر دون إنتظار لأوامر السلطان مما أحرج مركز الباب العالى ، واضطره فى النهاية إلى الإعتراف بالإستقلال الذاتى لبلاد اليونان[٥].

ومما سبق يتضح أنه على الرغم من خسارة مصر الفادحة فى هذه الحرب بعد ضياع الإسطول الذى إشترى محمد على وحداته من مختلف الممالك الأوبية ، فإن المكاسب السياسية كانت كبيرة فقد تفاوضت الدول الأوربية ولأول مرة مع محمد على دون وساطة الدولة العثمانية مما أكسب مصر منزلة سياسية أشبه ما يكون بالإستقلال الفعلى عن تركيا ، وإلى

[١] كانت وحدات الأسطول المصرى المتواجدةُ خلال المعركة إحدى وثلاثين قطعة تتألف من أربع فرقاطات، وعشر سفن من نوع القرويت ، وست سفن من نوع الإبريق ، وخمس من نوع الفولت ، وست حراقات هذا بالإضافة إلى النقالات الكبيرة .
محمد فؤاد شكرى وآخران : بناء دولة مصر محمد على – السياسة الداخلية ، القاهرة ، دار الفكر العربى ١٩٤٨ ص١٣٨ .

[٢] أمين سامى : مرجع سابق ج٢ ص٣٣١.

[٣] سجل رقم ٣١ معية تركى – صورة ترجمة الكتاب رقم ١٨ بتاريخ ١٣ ربيع آخر ١٢٤٣هـ من محمد على إلى محرم بك .

[٤] عن نص شروط هذا الإتفاق أنظر :
Dodwell , H.L. The founder of Modern Egypt - A study of Muhammed Ali , Cambridge, 1931 p.22
وأيضاً إسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار جـ ٢ ص ٢٤٠ – ٢٤١ .

[٥] عقدت الدول الأوربية معاهدة فى لندن عام ١٨٢٧ أجبرت فيها الباب العالى على الإعتراف بإستقلال اليونان الذاتى ، وفى عام ١٨٣١ استطاع الشعب اليونانى انتزاع استقلاله التام ونجح فى استخلاص حريته وأعطى بذلك مثلاً للشعوب التى كانت تهدف إلى تحرير نفسها .

جانب ذلك فإن هذه الحرب كانت أول معركة يخوضها الجيش المصرى فـى أوربـا ممـا أكسبه تدريباً عملياً على خوض المعارك الحديثة .

ومع ذلك فإن تورط محمد على فى شئون أوربا السياسية قد أنهك مـوارده إلـى حـد كبير خاصة وأن ما أنفقه من الأموال الطائلـة علـى بنـاء سـفنه ، وفـى شـراء المـؤن والذخائر التى تدفقت على المورة ، ثم إن ما جمّعه من الرجـال ودربّـه مـن الجنـود ، وبعـثَ بـه إلـى ميـادين القتال كلُ هذا قد ذهب أدراج الرياح بين عشيةٍ وضحاها بعد أن عادَ جيشهُ من المورةِ وهو فى حالةِ عجزٍ وفقدانٍ للثقة وبؤسٍ شديدٍ[1] .

وعلى أى حالٍ فقد إشتدَ ضيق السلطانُ من محمد على لتفاوضـه مـع الـدول الأوربيـةِ دونَ اذنه ، وسحبه لقواته دونَ الرجوع إليه ، كما بدأ محمد على يراجـع خطتـه تجـاه البـاب العـالى الذى لم يكافئه على خدماته رغمَ تحطيم إسطوله مما جعله يفكر جدياً فى توسيع رقعـة أملاكـهِ على حساب الدولة العثمانيه وذلك بالإستيلاء على بلاد الشام.

---

[1] بعد عودة هؤلاء الجنودِ إلى مصر وهم فى حالةٍ سيئةٍ رخصَ محمد على لبعضهم بالإقامة فى بلادهِ سنة أو أكثرَ من أجل إستعادة الثقة إلى نفوسهم ، ثم صدرت إليهم التعليمات بعد ذلك بالحضور إلى القاهرة وترتيبِ من يصلحُ منهم فى أورطة جديدة .
الوقائع المصرية العدد ١٩٦ فى ١٨ ربيع الأخر ١٢٤٦هـ (١٨٣٠) تحت عنوان حوادث الجهادية .

الموضوع الثامـــن

محمد على والخليج العربى

١٨٣٨ - ١٨٤٠

تتناول هذه الدراسة آمال محمد على وتطلعاته فى الوصول إلى منطقة الخليج إستكمالاً لتحقيق آماله فى السيطرة على الجزيرة العربية كلها وموقف الحكومة البريطانية غير الودى من هذه الآمال والتطلعات.

فبعد وصول قوات خورشيد باشا - سر عسكر نجد والمفوض من قبل محمد على - إلى الإحساء والقطيف بدأ والى مصر يتطلع إلى ضم البحرين وجعلها تابعة للسيادة المصرية خاصة وأن بها ميناءً صالحاً للملاحة على الخليج يمكن أن يساعد فى تحرك قواته بالسرعة اللازمة فى هذه المنطقة .

ونتيجة لذلك كلف محمد على خورشيد باشا بالإعداد لذلك الأمر، وبعد أن درس خورشيد باشا الطرق المتعددة لتنفيذ أوامر سيده ، رأى أن الطريقة المثلى لذلك هى التفاوض مع شيخ البحرين عبد الله بن حمد آل خليفة ومن هنا شرع فى تكليف معاونه محمد رفعت لكى يكون وكيلاً مفوضاً من طرفه لهذا الغرض(١).

وتبعاً لذلك قام محمد رفعت بزيارة سريعة إلى البحرين فى ١٥فبراير ١٨٣٨م (١٢٥٤هـ) للوقوف على أمورها وكتابة تقرير عنها ، وفى هذا التقرير أوضح محمد رفعت الضرورة

الحيوية لضم البحرين إلى حكومة محمد على(٢) خاصة لما تتمتع به من رواج إقتصادى يتوقف عليه إستقرار الأمور في الإحساء والقطيف(٣).

وإلى جانب ذلك أرسل شيخ البحرين برسالة إلى خورشيد باشا يطلب منه المساعدة ضد أبناء أسرته الثائرين عليه ، وقد رد عليه خورشيد بأن دخوله فى طاعة محمد على سيساعده على إزالة الخطر الذى يهدده ، وأن هدفه ليس جمع المال منه بل أن كل ما يهمه هو تأمين الطرق والوقوف صفاً واحداً معه ضد الفرس والإنجليز الطامعين فى بلاده ، كما ذكر له أنه سيرسل إليه محمد رفعت كوكيل عنه للإتفاق معه على ما يمكن التوصل إليه من أمور(٤).

وبعد أن وصل محمد رفعت إلى البحرين للتفاوض مع شيخها وجد أن أفكاره قد تغيرت تجاه تعاونه معه نظراً لمعارضة حكومة بغداد والإنجليز لأى إتفاق يعقده شيخ البحرين مع مندوبى محمد على .

وبعد جهود مضنية نجح محمد رفعت إقناع شيخ البحرين بتوقيع إتفاق فى مايو ١٨٣٩م (١٢٥٥هـ) يقضى بأن يكون شيخ البحرين حليفاً لمحمد على يقدم له كافة المساعدات التى يطلبها كلما لزم الأمر، وأن يقوم دفع مبلغ ٢٢٠٠ ريال فرانسه(٥) كزكاة سنوياً(٦) فى نظير أن تتعهد الحكومة المصرية بتأمينه على إمارته وأمواله وأملاكه ومساعدته ضد أعدائه(٧).

ومن الملاحظ أن إستخدام كلمة زكاة لوصف المبلغ الذى تقرر أن تدفعه البحرين لمصر يختلف عن لفظ الجزية أو الضريبة فدفع الزكاة عادة لايؤخذ إلا من بلاد إسلامية ، ولا تصرف أموالها إلا فى شئون الدولة الإسلامية مما يدل على أن العلاقة بينهما قامت على أساس الرضا المتبادل المنطلق أساساً من روح الإسلام وتعاليمه أكثر من كونها تبعية سياسية أو فرض هيمنه(٨) وإلى جانب ذلك فإن المبلغ الذى أتفق عليه مع مندوب محمد على كان يقل كثيراً عما تفرضه الدول الأخرى التى تريد فرض هيمنتها على البحرين مثل فارس مما يعنى ان الهدف من هذه المعاهدة كان لتبادل المصالح المشتركة أكثر من كونه معاهدة حماية .

وعلى الرغم من كل ذلك فإن الوثائق توضح لنا أن هذه الإتفاقية لم تستمر طويلاً ولم تنفذ بنودها(٩) خاصة وأن الحكومة الإنجليزية كانت ترى فى التوسع المصرى على حساب المشيخات أو الإمارات الصغيرة فى الخليج يعد خطراً يهدد مصالحها فى البحر الأحمر والمحيط الهندى ومن هنا عملت بريطانيا على مواجهة مشروعات محمدعلى فى منطقة الخليج عن طريقين هما :

١-التهديد والوعيد .

حيث أمرت الحكومة الإنجليزية القائد العام لأساطيل بريطانيا فى الشرق بالتوجه لمنطقة الخليج لإيقاف النفوذ المصرى هناك ،

وتركت له مطلق الحرية لتحديد الحالات التى يمكنه أن يستخدم فيها القوة ومن بينها حالة إنزال قوات مصرية إلى البحرين(١٠) وإلى جانب ذلك أرسلت إلى محمد على تحذره بأنه فى حالة محاولته السيطرة على البحرين أو مد سلطانه على الخليج فإن الحكومة البريطانية لن تقف مكتوفة الأيدى بل ستمنع هذه المحاولة بكل الوسائل.

٢- الدبلوماسية.

حيث حاولت بريطانيا إقناع عبد الله بن أحمد آل خليفة بإلغاء هذا الإتفاق لأنها لاترضى بأى حال من الأحوال حيث أنه يخالف ما بينهما من إرتباطات ، كما حرضته على عدم الإستسلام لطلبات مندوبى محمد على ، ووعدته بالحماية فى حالة العدوان عليه(١١) ، وبأنها لن تأخذ منه أموالاً ، ولا تفرض عليه جمارك لمدة ٢٥ سنه(١٢).

ولما كان شيخ البحرين يعنيه تأمين سطته ضد منافسيه والطامعين فى إمارته قبل أى شىء آخر فقد تراجع عن إتفاقه مع حاكم مصر ، وفضل الإعتماد على الإنجليز ، مما أضعف موقف محمد على الذى كان يخشى غضب إنجلترا وتحذيراتها له، وجعله يصدر أوامر إلى خورشيد باشا بالكف عن التدخل فى شئون البحرين .

وعلى الرغم من ذلك فإن الوثائق توضح لنا مدى القلق الذى كان ينتاب الحكومة الإنجليزية نتيجة محاولات محمد على

الأخرى فى بسط نفوذه على الخليج بإدعائه فى أحقيته فى أن يرث النفوذ السعودى فى المناطق التى كان يمتد إليها هذا النفوذ قبل سقوط الدولة السعودية الأولى ، وفى إستخدامه للحكام المحليين من أبناء الأسرة السعودية خاصة بعد المحاولات التى قام بها خالد بن سعود الذى عينه محمد على أميراً على نجد ، والذى نجح فى التوغل تجاه البريمى وإمارات الساحل العمانى وطالب أمام مسقط بالجزية التى كان يدفعها من قبل لآل سعود(١٣) هذا إلى جانب ترحيب بعض مشيخات وإمارات الخليج كالشارقة ورأس الخيمة وأبوظبى والكويت بمبعوثى محمد على إليهم بصفته حاكماً مسلماً أخذ بأساليب الحضارة الحديثة ، وبصفته أيضاً وريث الدولة السعودية(١٤).

ونتيجة لذلك حاول الإنجليز إحتواء الموقف بعرقلة جهود محمد على فى منطقة الساحل العمانى فإتصلوا بالقوة المحلية فى المنطقة لإقامة تحالف ضد تدخل خورشيد باشا وطالبوهم بالمحافظة على إستقلالهم ووعدوهم بالأسلحة والذخائر ، كما طالبوهم بعدم إقامة أى علاقات ودية مع مندوبى محمد على ورفض مطالبهم(١٥) وإلى جانب ذلك فقد طلب المقيم البريطانى فى الخليج المستر "هينل" HENNELL من سعد بن مطلق المطيرى مندوب محمد على فى هذه المنطقة ضرورة مغادرتها فوراً(١٦).

ونتيجة للتهديدات البريطانية الواضحة لأى محاولة توسعية لمحمد على فى الخليج ، ونظراً لأن محمد على لم تكن لديه

إمكانيات الوقوف أمام هذا التحدى السافر خاصه وأنه لم يكن يمتلك القوى البحرية اللازمة والقادرة على مواجهة سيدة البحار فى ذلك الوقت ، هذا بالإضافة إلى رغبته فى إرضاء إنجلترا التى كان يحتاج إلى مؤازرتها خلال مشروعاته التوسعية فى أملاك الدولة العثمانية بالشام كل ذلك أدى إلى توقف النفوذ المصرى تجاه مياه الخليج العربى وإن بقيت تطلعات محمد على تجاه دجلة والفرات والكويت قائمة خاصة وأن خورشيد باشا كان قد أرسل مندوباً من طرفه لشيخ الكويت ، وأن شيخ الكويت أبدى إستعداده للتعاون مع هذا المندوب كما مد يد العون لخورشيد باشا(١٧) ولكن الإنجليز أفسدوا هذه المحاولة بالضغط على شيخ الكويت حتى تراجع عن موقفه الودى تجاه خطط محمد على .

وبالنسبة لمحاولات محمد على غزو العراق لإبعاد النفوذ العثمانى هناك فقد وقفت لها بريطانيا بالمرصاد نظراً لتأثيرها المباشر على مصالحها فى الهند(١٨) حيث بدأت التحذيرات تتوالى على محمد على محذرة إياه بأنها لن تقف مكتوفة الأيدى إذا تجاوز حدوده وأقدم على غزو العراق كما أرسلت الحكومة البريطانية بعض قواتها إلى البصرة حتى يكون تواجدها فى هذه المناطق عائقاً أمام تحركات محمد على .

وهكذا نظرت إنجلترا إلى تحركات قوات محمد على فى الخليج نظرة الشك والإرتياب ولم يتزعزع موقفها فى إقامة العوائق أمام تحركاته خشية أن يأتى وقتاً يتحكم فيه محمد على

فى الساحل العربى من الخليج فيضر ذلك بمشروعاتها التى تخطط لها هناك ، وبسيادتها فى مياه ذلك الخليج .

وإستمرت مخاوف الإنجليز تجاه أطماع محمد على فى الخليج قائمة حتى تطور الخلاف بين محمد على والسلطان إلى درجة الصدام وحدثت موقعة نزيب الذى إندحر فيها الجيش العثمانى أمام القوات المصرية وإنتهاء الأمر بسحب محمد على لقواته من الجزيرة العربية تنفيذا لمعاهدة لندن ١٨٤٠ .

وبذلك إنتهى الحكم المصرى فى الجزيرة العربية تماماً ، وتخلى محمد على عن مشروعاته تجاه شرقى الجزيرة العربية .

الموضوع التاسع

القوى الأوربية وحكم محمد على باشا لبلاد الشام

أدركت القوى الأوربية عواقب الهزات التى أحدثها استيلاء محمد على على بلاد الشام، وأجمعت - باستثناء فرنسا - على إخراجه ، خاصة وأنها كانت تنظر بعين القلق إلى تعاظم قوته ، وإلى أطماعه التوسعية . هذا بالإضافة إلى أنها كانت ترى فى بقاء كيان الدولة العثمانية عاملا مهما فى حفظ توازن القوى فى أوربا وأن نجاح محمد على فى اقتطاع أجزاء من أملاكها يتعارض مع مصالحها الحيوية . وقد تزعمت إنجلترا هذا الموقف خاصة وأنها كانت تخشى من مزاحمة محمد على لسيادتها على طريق الهند ، فامتداد نفوذ مصر إلى بلاد الشام يجعل لها الإشراف على طريق الهند من ناحية الفرات والعراق فضلا عن طريق البحر الأحمر وبرزخ السويس . يضاف إلى ذلك أنها كانت تخشى من استغلال روسيا للموقف بحجة مساعدة السلطان فى أزمته وهذا ما كانت تتجنبه أوربا التى كانت ترى فى أطماع روسيا فى الوصول إلى المياه الدفيئة والسيطرة على الدرنيل والبسفور خطرا عليها .

ولما شعر محمد على أن أوربا لاتنظر بعين الارتياح إلى أطماعه التوسعية ، وإلى حرصها على إيجاد المصاعب أمامه لإجباره على الانسحاب من بلاد الشام ، حاول تجنب معاداتها خاصة وأنه كان يدرك عدم مقدرته على مقاومة هذه الدول . ونتيجة لذلك حاول محمد على خطب ود إنجلترا التى كانت تتزعم جانب المعارضة له ، ففاتحها فى الفوائد التى يمكن أن تجنيها من إقامة صداقة متينة معه ، كما أوضح لها أنه لايهدف من حروبه فى الشام سوى تجديد شباب السلطنة ، وأنه لايبغى الجلوس على عرش آل عثمان كما كان يتردد : ولكن إنجلترا رأت أن حكم محمد على لبلاد الشام يتعارض مع أهدافها ، وأن اجتماع عناصر السلطة فى يده يمثل خطرا على مصالحها التجارية ، وأن تظاهره بالاستكانة لايرجع إلى رغبته الحقيقة فى صداقتها بقدر مايرجع إلى مهادنتها حتى يتمكن من تثبيت مركزه ثم يقوم بإملاء [illegible] . لذلك شجعت إنجلترا أهالى الشام على العصيان ، ومقاومة قوات محمد على ، وأمدتهم بالبارود والرصاص والطعام بهدف إيجاد العوائق والمصاعب أمام القوات المصرية واجبارها على الانسحاب[1] .

وعلى الرغم من كل ذلك فقد حاول محمد على تثبيت أقدامه ، وتحقيق أغراضه فى بلاد الشام باستغلال ما بين الدول الأوربية من خلافات ، خاصة وأنه كان يجهل أن هذه الخلافات لاتثنى الدول الأوربية عن الاتفاق ضده ، وأنها لاتتركه يستأثر بالإرث وحده ، ويقوم بالسيطرة على مقاليد الأمور فى السلطنة العثمانية[2] . وكان أن استغل محمد على علاقته الودية مع فرنسا فى مساومة إنجلترا وباقى الدول الأوربية وفى الاستناد عليها ، ومعاونتها وتأييدها له خلال تلك الأزمة .

ولما فاتح محمد على الدول الأوربية بشأن تطلعاته فى تكوين دولة تمتد حدودها إلى أقصى بلاد الشام عارضته إنجلترا أشد المعارضة ، وحذرته من عواقب تلك الخطوة وهددته باستخدام القوة إذا تمسك برأيه[3] . وعلى الرغم من ذلك طالب محمد على السلطان محمود الثانى بأن يكون حكم مصر والشام وراثيا فى ذريته ، مما أغضب السلطان وجعله يسرع بإعلان الحرب عليه ، فبعثت الدولة العثمانية إلى بلاد الشام جيشا كبيرا تحت قيادة حافظ باشا وذلك لمقاتلة القوات المصرية ، وطردها من هناك . ونتيجة لذلك زحف إبراهيم باشا بقواته حيث تجمع الجيشان بالقرب من سهل "نزيب" .

وهناك فى الحادى عشر من ربيع الثانى ١٢٥٥هـ الموافق الرابع والعشرين من يونيو ١٨٣٩ دارت معركة حامية انتهت بهزيمة القوات العثمانية[4] ، وفتح أبواب عاصمة الخلافة على

مصراعيها أمام القوات المصرية . هذا فى الوقت الذى توفى السلطان العثمانى محمود الثانى[٥] وخلفه السلطان الناصر عبد المجيد ، وفى الوقت الذى قام قائد الأسطول العثمانى بتسليم سفنه بكامل ذخائرها ومعداتها إلى محمد على ، مما كان له أكبر الأثر فى إسراع الدول الأوربية بالتدخل لوقف تداعى أركان السلطنة ، خاصة بعد أن انتهزت روسيا الفرصة ، وحاولت بسط حمايتها الفعلية على تركيا ، بحجة منع امتداد نفوذ مصر إلى ضفاف الدردنيل والبسفور ، وتأسيس محمد على دولة قوية تقوم على أنقاض عرش آل عثمان ، فأعلنت عن استعدادها للدفاع عن عرش السلطنة مما قلقل التوازن الأوربى ، وفتح باب المسألة الشرقية على مصراعيه .

وكان أن جاهرت إنجلترا بعدائها لمصر معلنة ضرورة المحافظة على كيان الدولة العثمانية ، وإخضاع محمد على بالقوة وإجباره على إعادة بلاد الشام للسلطان ، ورد الأسطول التركى إلى الدولة العثمانية .

هذا عن إنجلترا أما بالنسبة للنمسا فقد عارض وزير خارجيتها "مترنيخ" فكرة التساهل مع محمد على ، خاصة وأنه كان يرى فى وقوف محمد على ضد الدولة العثمانية ما يتناقض مع مواقفه وسياساته الخاصة بمقاومة الحركات الاستقلالية ، ورفضه فكرة الخروج على السلطة الرسمية . لذلك طالب أوربا باتخاذ قرار عاجل لوقف أطماع محمد على التوسعية[٦] .

وبالنسبة لروسيا كانت سياستها المناقضة للسياسة الفرنسية تجعلها تقف فى الخط المناهض لمحمد على[٧] .

أما فرنسا فبالرغم من الصداقة بينها وبين محمد على ، فإنها وجدت أنه يصعب عليها معاداة أوربا من أجله ، وأنها على غير استعداد لخوض غمار الحرب ضد إنجلترا تأييدا لأطماعه[٨] لذلك حاولت ترجيح كفتها السياسية على الإنجليز والروس حتى يمكن أن يكون لها موطأ قدم فى بلاد الشام[٩] .

ونتيجة لذلك اتفق سفراء الدول الأوربية بما فيهم فرنسا على إرسال مذكرة للسلطان العثمانى عبد المجيد الذى كان قد بدأ اتصالاته مع محمد على من أجل الصلح ، يطالبونه بألا يبرم أمراً فى شأن المسألة المصرية قبل إطلاعهم عليه ، خاصة وأنهم بصدد إعداد مشروع لتسوية المسألة تسوية نهائية[١٠] .

والغريب هو أن تشترك فرنسا فى هذه المذكرة ، فتناقض سياستها تجاه المسألة المصرية[11] على الرغم من أن فرصتها فى التدخل للوساطة بين الطرفين كانت سانحة ، وربما لو حدث ذلك لحصل محمد على على شروط أفضل ، ولكان موقفه أقل إذلالا مما حدث . لقد جعلت فرنسا محمد على يعتمد عليها ، ثم تركته وحيدا فى الميدان بلا أى سند ، مما أتاح لانجلترا فرصة الانفراد بالعمل ، وأدى إلى نجاحها فى تأليب باقى الدول ضده . وانتهى الامر بعقد معاهدة لندن فى ١٥ يوليو ١٨٤٠ (١٢٥٧هـ) وهى التى ألزمت محمد على بالتخلى عن بلاد الشام فيما عدا الجزء الجنوبى منه ، وإرجاع الجزيرة العربية إلى الدولة العثمانية والاكتفاء بمصر[12] كى يحكمها هو وأكبر أفراد أسرته من بعده ، بحيث تنقل إلى الأرشد فالأرشد من ذريته عن طريق الوراثة ، وولايتى عكا وصيدا ليحكمها فترة حياته فقط ، وأن ينسحب من سوريا وكريت وبلاد العرب ، وغيرها من الجهات التى بها جنوده فى مدة عشرة أيام ، وإن رفض ذلك بعد انتهاء هذه المدة ، يسقط حقه فى صيدا وعكا . وإن استمر رفضه فى العشرة أيام التالية لرفضه الأول تقوم الدول الأوربية بمساعدة الدولة العثمانية عسكريا ضده .

وقد رفض محمد على شروط هذه المعاهدة وصمم على التمسك بالبلاد التى فتحتها الجيوش المصرية ، وأخذ فى الاستعداد للدفاع عنها ، خاصة وأن فرنسا حرضته على ذلك . وهكذا انتهت فرصة العشرة أيام الأولى بضياع عكا وبدأ العد التنازلى للأيام العشرة الثانية .

ولإرهاب محمد على بدأ الأسطول الانجليزى فى ضرب بيروت بالمدافع ، وفى إذكاء نار الفتن فى لبنان ضد الحكم المصرى ، كما استطاع التحالف الأوربى تأليب أهالى الشام ضد محمد على ووجوده[13] فأمدوهم بالسلاح لإعلان الثورة والعصيان عليه من الداخل ، بينما قامت الأساطيل الأوربية بمحاصرة السواحل المصرية وضربها ، مما أدى إلى تحرج مركز الجيش المصرى بعد أن صار هدفا لنارين : نار الثورة ، ونار أساطيل الحلفاء . وبعد أن تم للحلفاء احتلال الثغور السورية . وتمكنوا من قطع مواصلات الجيش المصرى ، أبحرت بعض السفن الحربية إلى مياه الإسكندرية للقيام بمظاهرة بحرية[14] لإجبار محمد على على الإذعان لمطالب الحلفاء . ولما شعر محمد على بحرج موقفه ، خاصة بعد انسحاب فرنسا من الميدان ، ووجد نفسه محاصرا ومحاطا بالأعداء من كافة الجهات وأنه يقف بمفرده أمامهم ، أضطر إلى إصدار أوامره العاجلة إلى إبراهيم باشا بإخلاء بلاد الشام فورا ، فعاد إبراهيم مسرعا بطريق البر إلى مصر[15] كما رضخ محمد على لفرمان ١٨٤١م الذى يقضى بإخراجه من الجزيرة العربية ،

وبلاد الشام ، وكريت ، وقصر نفوذ على ولاية مصر[١٦] بحيث تنقل بعد وفاته بالإرث لأولاده وأولاد أولاده الذكور ، بشرط أن يتولى الأكبر فالأكبر فيقلده الباب العالى منصب الولاية كلما خلا هذا المنصب من وال[١٧] وبذلك عادت مصر إلى حدودها القديمة ، كما تم تحديد قواتها المسلحة بحيث لاتزيد عن ١٨ ألف جندى ، وأن تدفع للدولة العثمانية ٣٢٠ ألف جنية سنويا .

وهكذا نجحت الدول الأوربية فى تحطيم آمال محمد على وتطلعاته ، وفى تحجيم دوره فى المنطقة العربية . ومع ذلك فإن ماحدث قد رفع مركز مصر من ولاية مثل غيرها من ولايات الدولة العثمانية إلى ولاية ذات امتيازات خاصة أو بمعنى آخر ولاية مستقلة استقلالا مقيدا بقيود السيادة التركية .

الملاحــق

وثيقة رقم (١)

موضوعها : مساندة بعض الأوربيين للثوار ضد قوات محمد على .

مصدرها : محافظ عابدين - محفظة ٢٥٩ - وثيقة رقم (١٧) .

صورة الإفادة الواردة من حضرة محافظ بيروت مكتوبة فى ١٤ ربيع الثانى ١٢٥٦هـ إلى حضرة سليمان باشا .

ابلغت دولتكم فى إفادتى المكتوبة فى ٩ ربيع الثانى ١٢٥٦هـ أننى سأقوم بإجراء تحقيق فيمن يقوم بإعطاء بارود ورصاص للعصاة وبتحريضهم على العصيان هنا بناء على أمر دولتكم المرسل إلى مكتوبا فى ٧ منه فى هذا الشأن ثم أبلغتكم فى ١١ منه الاخبار التى استقيتها على قدر الإمكان فى هذا الشأن فكتبتم لى فى ١٢ منه أمركم الذى أنبأتمونى به بأنكم ستأوونتى بما يجب فى هذا الشأن بعد ساعتين من تاريخ أمركم الأخير هذا رأيت أن أبلغكم ما وصلت إليه التحقيقات التى قمت بها فى هذا الشأن وهو أننى قد علمت أن فرنسيا يسمى انفروا ويكونت مابين عشرين وثلاثين سنة من العمر كان جنديا فى الجيش الفرنسى مقيم بجهات الذوق هو الذى يمد هؤلاء العصاة بالرصاص والبارود ولما زاروه أخيرا وزع على كل منهم قرشين ونصف قرش ومأية درهم بارودا وكمية من الرصاص ومركوبا ووساما صليبيا يسمى قوقادور فوقع الخلاف بينهم لانتفاع فريق من هؤلاء بهذه العطايا مضاعفة حيث وزعت عليهم عشرين ولما انتشر هذا الخلاف فيما بينهم قال لهم اذهبوا الى الحرش الكائن فى طريق بيروت فهاأنذا أيضا قادم إلى هناك من ورائكم فأرسلهم إلى هناك وقد بلغنى أنه وصل اليوم إلى هناك مع أربعماية شخص ومعنى محاولاته هذه هو للاستيلاء على بيروت كما أن وكيل القاصد البابوى البولونى المقيم فى ذوق لاينفك عن معاونة هؤلاء العصاة ولايزال يؤيدهم فى عصيانهم هذا كما سمعتم به دولتكم وأن هذين الشخصين من طائفة الجيزويت أى ممن نبذتهم ملة النصارى لغلوهم فى الزهد والرياء فتمكنا من المقام بين هؤلاء العصاة ومن التأثير فيهم فشرعا فى إحداث غائلة كهذه الغائلة ومعنى كلمة القاصد فى الديانة المسيحية هو مطران فريق من النصارى الكاثوليك فمن المسلم به أن كافة القسس من هذا المذهب لن يخالفوا وكيل

قاصدهم هذا وسيبقونه حتما وأنه ورد إلى أخيرا كتاب من شخص فرنسى تسمى باسم عبد الله كان ضابطا برتبة البكباشى فى آلاى المدرعين ثم استقال من الخدمة العسكرية الا لأنه منمها وقد قال فى الكتاب أنه سرد إلى أمر من حضرة الباشا السر عسكر خاص به فيطلب إرساله إليه ثم وصف العصيان القائم فى الجبل . وقد كان امضاء الكتاب بعنوان «د. ميناق الذى فى الاجازة» ولما كان بلغنى أن شخصا يلم بالعربية الماما تاما يقيم مع الكونت المومأ إليه كان قد سافر من طرابلس إلى بيروت ومنها إلى الجبل فلعل هذا الشخص هو عبد الله المذكور لانطباق هذه الأوصاف عليه ومن البدهى أن شخصا آخر ساردونيا عدا هؤلاء الأعوان يقوم بمعاونة أولئك العصاة . هذا وبينما كنت مشغولا بكتابة هذه الإفادة إذ بأمركم العالى الصادر فى ١٣ ربيع الثانى ١٢٥٦هـ . ورد الى فتلوته فإذ بدولتكم تشيرون إلى عدم ايتائى إياكم بأخبار منذ نحو يومين إلا التى ما قصرت فى ابلاغكم ماحدث هنا منذ نحو يومين حيث اننى أبلغتكم فى افادتى المكتوبة فى ١٢ ربيع الثانى ١٢٥٦هـ وصول الأورط الى هنا وكيفية وقوع الحرب وهذا عدا ما كتبته فى ١١ الجارى كما أبلغتكم بتاريخ افادتى هذه التى لاتعتبر الا افادة كتبت فى ١٣ ربيع الثانى ١٢٥٦هـ لقرب التاريخين من البعض ما سبق ذكره فى متن الافادة فاذن لست مقصرا فى ابلاغكم الأخبار والأمور التى تحدث هنا بل مبادرا الى ابلاغكم اياها يوما فيوما وانه لايزال الأوروبيون يخرجون كل يوم من بيروت [illegible]ختلطون بالعصاة ثم يعودون الى بيروت ولما كان هذا مما يثير اشاعات خطرة بين النا[illegible] يجعلهم فى حيرة من أمرهم عدا أنه يمكن كل شخص خبيث ممن لا اخلاق له من ابداء ا[illegible] خبيثة التى تخطر بباله فى هذا الشأن بين الناس كيفما خطرت له مثلما حدث ذل[illegible] ثورة جزيرة المورة فاننى قد رأيت من الصواب أن يتفضل دولتكم باصدار أمر إلى قناصل الدول ببيروت يمنع خروج رعاياهم من بيروت واختلاطهم بالعصاة منعا لوقوع هذه الاشاعات وظهور هذه الأخطار الخبيثة بين الناس وعلى كل حال .. فالرأى لدولتكم .

يستخلص من هذه الوثيقة مايلى :

١- الاستعلام عن طريقة إمداد العصاة بالبارود .

٢- التوصل الى أن أحد الفرنسيين قام بمد العصاة بالرصاص والبارود .

٣- قيام شخص سردينى بمعاونة العصاة .

٤- اختلاط بعض الأوربيين بالعصاة واستنفارهم ضد قوات محمد على .

الموضـــوع العاشـــر

موقف الدولة العثمانية من توسعات محمد على في بلاد الشام (دراسة في وثائق عابدين)

تعتمد هذه الدراسة على مجموعة منتقاة من وثائق عابدين الخاصة ببلاد الشـــام والتى ترجمت من التركية إلى العربية تحت اشراف الحكومة المصرية فى عهد الملـــك فؤاد بهدف أحياء ذكرى والده إسماعيل وجديه إبراهيم ومحمد على.

والواقع أن بلاد الشام كانت مطمح أنظار محمد على منذ حروبه فى الجزيـــرة العربية[1] فقد طلب من السلطان إضافة منصب ايالة الشام إلى منصـــب والـــى مصـــر مبررا ذلك بإمكانية جمع الجنود من هناك، وتكوين الجيوش لمحاربة رجالات الدعـــوة السلفية، ولكن طلبه كان مصيره الإهمال.

ولما قامت حرب المورة كرر محمد على طلبه إلى السلطان بأن يضـــاف إليـــه حكم سورية بجانب حكمه لمصر تعويضا عما تكبده من خسائر فى هذه الحرب، ونظرا لرفض السلطان لهذا الطلب للمرة الثانية حاول محمد على ضـــم هـــذه البـــلاد بـــالقوة لاستغـــلال مواردها التى تفتقر إليها مصر، وحتى تكون حاجزا حصينا بيـــن مصـــر والدولة العثمانية إذا ما فكرت الأخيرة فى محاربته.[2]

وعـــن التوقيـــت الذى اختـــاره محمـــد علـــى لمحاربـــة السلطـــان، ومحاولته اقتناص بلاد الشـــام منه فيمكـــن القول أنه اختار الوقت المناسب لذلك.

---

[1] أسد رستم: المحفوظات الملكية المصرية- بيان بوثائق الشام- بيروت، ١٩٤٠، ص ١٢٣.
[2] عبد الرحمن الرافعى: عصر محمد على، القاهرة، النهضة المصرية، ١٩٥١، ص ٢٤٤.

ففى الوقت الذى كانت فيه الدول الأوربية منهمكة فى مسائلها الداخليه وتتنازع كل منها السـيادة على أوربا بعد تصـفية الامبراطوريـة النابليونية وفى الوقت الذى أصبحت فيه الدولة العثمانية تمثل رجل أوربا المريض المنهوك القوى نتيجة للثورات الداخلية التى لاحقتها فى كل جانب ولحروبها المتعددة التى خرجت منها منهوكة القوى .

وفى الوقت الذى قامت فيه الدولة العثمانية بتصفية الانكشارية الذين كانوا بمثابة العمود الفقرى للجيش العثمانى انتهز محمد على حاكم مصر كل هذه الفرص لاظهار قوته أمام السلطان محمود الثانى وبخاصة أن جيشه كان فى حالة طيبة ، ولأنه كان قد اجتذب اليـه الأمير بشير الشهابى كبير أمراء لبنان فى ذلك الوقت[1] .

وقد تذرع محمد على فى ذلك بنزاعه مع عبد الله باشا الجزار والى صيدا[2] الذى كان قد شجع الآلاف من الفـلاحين المصريـين الهاربين من عسف جباة ضرائب السلطة فى مصر باللجوء الى ولايته ورفضه تسليمهم اليه[3] فاتهمه بسوء نيته تجاهه ، وعدم وفائه بدين عليه وابتزازه لأموال بعض التجار المصريين واستيلائه على تجارتهم فى بلاد الشـام مدعيا أنها لبعض التجار من أهل [illegible][4] ومساعدته على تهريب بعض البضائع من الجمارك المصرية ، ومن هنا قرر ارسال

---

(1) نفسـه ص ٢٤٨ .

(2) ولاية صيدا كانت قاعدتها عكا ولذلك سميت احيانا بولاية عكا .

(3) Dodwell, H. : The Founder of Modern Egypt A. Study of Muhaimmad Ali, Cambridge at the University Press 1931 p. 108.

ويذكر محمد كرد على أن عدد هؤلاء كان ستة آلاف ، وأن عبد الله باشا امتنع عن تسليمهم لمحمد على بحجة أن قطريهما يتبعان سلطان واحد .
للتفاصيل انظر : خطط الشام جـ ٣ ، بيروت — دار العلم للملايين ١٩٧٠ ص ٥١ .

(4) أسد رستم : المصدر السابق جـ ١ ص ١٢١ .

حملة لتأديبه ، وعين ابنه ابراهيم باشا قائدا لها وبالرغم من محاولات السلطان العثمانى التدخل لاصلاح ذات البين ورغبته فى اطفــاء فتيل الحرب بينهما(٥) فان محمد على كان مصرا على تأديب هذا الوالى ، فأرسل طلائع جيشه الى عكا فى ١٤ اكتوبر ١٨٣١ فاستولت فى طريقها على يافا وحيفا دون مقاومة تذكر(٦) ، وفى ٨ ديسمبر من نفس السنة ضربت الحملة المصرية حصارها حول عكا وأرسل ابراهيم باشا انذارا الى والى عكا يطالبه فيه بتسليم القلعة حقنا للدماء(٧) ونتيجة لرفض عبد الله باشا لهذا الانذار أمر ابراهيم باشا بضرب عكا بالقنابل من جميــع الجهــات(٨) .

وحرصا على عدم انفلات الأمر من الدولة العثمانية كرر السلطان محاولاته لرأب الصدع بين الجانبين المتحاربين ، فأرسل مندوبا الى محمد على ينصحه بالعدول عن الحرب منعا لسفك دماء المسلمين ، وحرصا على عدم اقلاق الرعية محذرا له من عواقب الاستمرار فى الحرب ولما دارت المفاوضات بين المندوب السلــطانى ومحمد على تظاهر الأخــير بالاخلاص للدولة العثمانية ، وألح أن الهدف من حربه هو المحافظة على شرف مصر الخالد واعادة مجدها فى ظل الدولة العثمانية ، وانه فى حربه يحارب حاكما — شبه مستقل — خارجا عن طاعة الدولة(٩) كما ألح

---

(٥) محافظ عابدين . محفظة رقم ١٤ (بحربرا) ملخص الوثيقة رقم (٢١) بتاريخ ١١ ربيع الأول ١٢٤٦ هـ .

(٦) أسد رستم : المصدر السابق جـ ١ ، ص ١٢٨ الوثيقة رقم ٣٤٠ .

(٧) نفسه ص ١٣٩ . الوثيقة رقم ٢٣١ .

(٨) داود بركات : البطل الفاتح ابراهيم وفتحه الشام ١٨٣٢ القاهرة : الطبعة الرحمانية . د.ت ص ٧ ، ص ٩ والجدير بالذكر أن القنابل وقتئذ لم تكن سوى كتل من الحديد والفولاذ المستدير التى تدك وتهدم ولا تنفجر .

(٩) عبد الرحمن الرافعى : المرجع السابق ص ٢٥٠ ، ص ٢٥٣ .

على لسان ابنه ابراهيم بأنه لا مانع من تسوية الموقف اذا قامت الدولة العثمانية بعزل عبد الله باشا والى عكا وتعيين والى آخر حائزا ثقة محمد على .

ولما تعثرت المفاوضات نتيجة لعدم موافقة السلطان على مطالب محمد على ، أمر الأخير ابنه ابراهيم بمواصلة الحرب وتشديد الحصار على عكا حتى يتم فتحها غير آبه بنصائح السلطان ولا بوعيده ، ومن هنا اتهمه السلطان ببذر بذور الفتنة والفساد بين الناس واستصدر فتوى بأن محمد على وابنه ابراهيم قد خانا الدولة ومرقا عن دين الله وذلك لاستنفار الأهالى ضدهما ، كما أمر بعزل محمد على عن منصبه ، مما أحدث ضجة عنيفة داخل الأوساط الدينية فى مصر حول شرعية حكمه ، وقد واجه محمد على هذه الضجة بالعنف فأعدم كل من وصل الى مسامعه أنه أثار هذه الضجة ، ومن بينهم بعض علماء الأزهر [١] .

ونظرا لفشل المحاولات السلمية مع محمد على طلب السلطان من والى حلب اعداد العدة لمحاربته وتأديبه فى نظير تنصيبه حاكما عاما على بلاد الشام ، وأن تكون له اليد الطولى فى تصريف أمورها[٢] .

ولكى يتفادى محمد على المصاعب التى يمكن أن تواجه قواته أمام حصون عكا ، وتوفيرا لجهودها القتالية أوعز الى ابنه ابراهيم بمحاولة استمالة أفرادها من جنود عبد الله باشا بالمال عن طريق دفع رواتبهم المتأخرة ووعدهم بالحماية والتأمينات الكافية ولكن ابنه لم يرحب بهذه الفكرة بل رأى أنه من العار فعل ذلك[٣]

---

(١) محافظ عابدين : محفظة رقم ٢٣٢ ترجمة الوثيقة رقم (٥٨) بتاريخ ١٣ رمضان ١٢٤٧ (رسالة من ابراهيم باشا الى محمد على) .

(2) Dodwell : op. cit., p. 110.

(٣) محافظ عابدين : محفظة رقم ٢٤١ ترجمة الوثيقة رقم ٤٤ بتاريخ ٣ رجب ١٢٤٧ هـ (مكاتبه من ابراهيم باشا الى محمد على) .

ونتيجه لذلك طلب ابراهيم من والده ضرورة الاهتمام بالأسطول المصرى وتجهيزه بالمدافع والأسلحة اللازمة بعد أن أثبت عدم كفاءته فى دك حصون عكا ، وحتى يستطيع مناوأة الاسطول العثمانى وعرقلة جهوده فى مساعدة المدافعين عن عكا(1) .

وخلال تلك الفترة بدأت الدولة العثمانية استعدادتها للهجوم على القوات المصرية المحاصرة لعكا بهدف تطويقها وطردها من بلاد الشام مما أدى الى تحرج الموقف ، وجعل ابراهيم باشا يتحرك بجزء كبير من قواته لمواجهة الجيوش العثمانية قبل وصولها الى عكا(2) تاركا بعض القوات أمام عكا لمتابعة حصارها .

وقد نجح ابراهيم باشا فى — خلال حروبه مع القوات العثمانية — انتزاع طرابلس منهم ، وتعقبهم فى حمص وهزيمتهم فى سهل الزراعة مما أوقع الاضطراب فى صفوفهم وألجأهم الى الفرار(3) .

وخلال غياب ابراهيم باشا عن قواته المحاصرة لعكا انتهز عبد الله باشا الفرصة فأمر بخروج قواته من معاقلها والهجوم على القــوات المصرية ، وقد نجح فى تدمير بعض استحكامات هذه القوات وردها الى الوراء ، مما جعل ابراهيم باشا يسرع فى العودة الى عـكا ، ويعيد احكام حصارها برا وبحرا .

ولـما طال أمد الحصار أرسل ابراهيم باشا رسولا الى والى عكا للتفاوض معه فى أمر الكف عن سفك الدماء ، وبأن يقوم بتسليم القلعة

(1) محافظ عابدين : محفظة رقم ٢٣٢ ترجمة الوثيقة رقم ٥٨ بتاريخ ٢٣ رمضان ١٢٤٧ .

(2) الرافعى : المرجع السابق ص ٢٥٤ .

(3) سليمان أبو عز الدين : المرجع السابق ص ٨٢ — ٨٣ .

فى مقابل أعطائه الأمان ، لكن عبد الله باشا رفض هذه الفكرة ، وقام رجاله باطلاق نيران بنادقهم على هذا المندوب(١) ، مما جعل ابراهيم باشا يقوم بالهجوم على القلعة فى محاولة منه للضغط على رجالها ، وبالرغم من نجاح جيشه فى الاستيلاء على السور الشرقى من قلعة عكا وتدمير المدافع الموجوده عليه(٢) فانه لم يتمكن من احتلال المدينة بل تم تراجعه لشدة استبسال المدافعين ، واصابة بعض ضباطه بجراح(٣) ، ولتحرج الموقف طلب ابراهيم باشا من الأمير بشير الشهابى القدوم اليه — ومعه بعض قواته — الى عكا للمساعدة ، ولما تباطأ الأمير بشير فى الأمر شكاه ابراهيم الى والده ، فأرسل محمد على الى الأمير بشير كتابا يلومه على تأخره وينذره بسوء العاقبة اذا خالف عهده معه ووعده له وتوعده بأنه اذا أحجم عن الانضمام لابراهيم فانه سيجرد عليه خمسا من الآلايات(٤) لتخريب مساكنه وزرع أرضها تينا ، وقبل وصول هذا الكتاب الى الأمير بشير كان قد تحرك على رأس مائه فارس الى عكا(٥) .

وبالرغم من ذلك فان محمد على كان قلقا من جراء عدم سقوط القلعة(٦) وثبات المدافعين عنها مما جعله يستدعى ... من قواته الموجودة

---

(١) محافظ عابدين : محفظة رقم ٢٣٤ ترجمة الوثيقة التركية رقم ٤٨ بتاريخ ١٠ ذى الحجة ١٢٤٧ (مكاتبة من ابراهيم باشا يكن الى محمد على) .

(٢) أسد رستم وفؤاد البستانى : المصدر السابق ص ٨٣٢ .

(٣) محافظ عابدين : محفظة رقم ٢٣٢ ترجمة الوثيقة التركية رقم ١١٠ بتاريخ ١١ شوال ١٢٤٧ هـ .

(٤) أسد رستم : المصدر السابق ج ١ . الوثيقة رقم ٣٦٢ ص ١٣٥

(٥) داود بركات : المرجع السابق ص ١١ .

(٦) محافظ عابدين : محفظة رقم ٢٣٢ ترجمة الوثيقة التركية رقم ٥٤ . بتاريخ ٢١ رمضان ١٢٤٧ .

فى كريت للمساعدة ، كما فكر فى الحضور بنفسه الى عكا لمراقبة الموقف هنـــاك [1] .

والسؤال المطروح هل ترجع الصعاب التى واجهها ابراهيم باشا وقواته الى مناعة أسوار عكا واستبسال جنودها فقد أم أن هناك أسبابا أخـــرى .

الواقع أن الخطة التى سلكها الباب العالى ضد محمد على بتجريده من منصبه واباحة دمه ، قد أثارت الرأى العام الاسلامى ضده وشجعت المدافعين عن عكا على الصمود ، وجعلت بعض علماء المسلمين يصبون لعناتهم على محمد على ويتهمونه بالخروج عن طاعة السلطان مما زاد من اصرار والى عكا على المقاومة .

ونتيجة لطول أمد الحصار ، وعدم قدرة القوات المصرية على اقتحام عكا تزايدت الشائعات بين الناس داخل مصر حول مصير الحملة مما جعل محمد على يصدر فى ٨ مارس ١٨٣٢ أوامره المشددة بحرمـــان اذاعة أنباء حصار عكا داخل مصر ، وبضرب أعناق مروجى الشائعات ولمـــا لم يرتدع بعض المرجفين لأوامره أمر بضرب أعناق أربعة منهم وزج بعشرين آخرين فى غيابات السجون ليكونوا عبرة لكل « الذين لا يستطيعون أن يمسكوا لسانهم » وقد عرضت الحكومة على الناس جثتين كتب عليهما العبارة الآتية « هذا هو العقـــاب الذى يحل بمن يقولون السوء عن الحكومة خفية »[2] .

وعن محاولات كل من محمد على وعبد الله باشا لرفع روح قواتهما الموجودة داخل أسوار عكا وخارجها فقد أرسل محمد على أمرا الى

---

(1) محافظ عابدين : محفظة رقم ٢٣٤ ترجمة الوثيقة التركية رقم ٦٧ بتاريخ ١٦ ذى الحجة ١٢٤٧ (مكاتبة من ابراهيم باشا الى محمد على) .

(2) بيير كربيتس : ابراهيم باشا ــ ترجمة محمد بدران . القاهرة ــ مطبعة لجنة التأليف والترجمة ١٩٣٧ ص ١٥٩ .

قواته يبلغهم فيه تحياته وثقته فيهم وآماله الكبيرة التى ينتظرها منهم من حيث اظهار الشجاعة وبذل التضحية والثبات والغيرة والاجتهـاد خلال الزحف على عكا مذكرا اياهم بالانتصارات التى حققوها فى العديد من المعارك السابقة ، ومبشرا لهم بقرب سقوط عكا(١) .

أما عن عبد الله باشا ، فقد استصدر من علماء عكا ورجال الدين فيها فتوى تتضمن أن من يموت من عساكر محمد على فمصيره الى النار(٢) ، ومن يموت من عساكره فمصيره الجنة وقد استند علماء عكا فى اصدار هذه الفتوى على ما أصدرته الدولة العثمانية من أن محمد على وابراهيم باشا قد خانا الدولة ، ومرقا عن دين الله .

ولما كان السيف وامتشاق الحسام هما الطريق الوحيد الموصل لتحقيق النصر ، فقد قام ابراهيم باشا بمعاينة الأعمال العسكرية التى كلف بها جنوده ، واتخذ التدابير اللازمة لسرعة نقل ذخائر جيشه ومهماته الى المواقع الجديدة كما هدد المتخاذلين من ضباطه بالعقاب الصارم(٣) وطالبهم بأن يكونوا صناديد عندما يحمى وطيس المعركة ، كما استدعى من الاسكندرية الكولونيل « روماي » الايطالى ، الذى كان قد علا نجمه خلال حصار قلعة موسولينى باليونان ، فوصل مع بعض زملائه الى معسكر عكا وبدأوا فى تغيير شكل الحصار(٤) وبناء طوابى المدفعية المناسبة والاقتراب من سور المدينة حتى تصل قنابل المدفعية اليها بطريقة سليمة(٥) .

---

(١) أسد رستم وفؤاد البستانى : المصدر السابق جـ ٣ ص ٨٣٤ .

(٢) محافظ عابدين : محفظة رقم ٢٣٥ وثيقة رقم ١٤٠ بتاريخ ٢١ محرم ١٢٤٨ هـ .

(٣) محافظ عابدين : محفظة رقم ٢٣٤ ترجمة الوثيقة التركية رقم ٦٧ بتاريخ ١٦ ذى الحجة ١٢٤٧ هـ .

(٤) داود بركات : المرجع السابق ص ١٣ .

(٥) أسد رستم وفؤاد البستانى : المصدر السابق ص ٨٣٤ .

ونتيجة لتدهور الأحوال فى عكا ، وتناقص أفراد حاميتها وقلة المواد الغذائية ، وتفشى الأمراض بين الناس راودت عبد الله باشا فكرة التفاوض مع ابراهيم باشا فى أمر الصلح ، فرفع أعلاما بيض فوق أسوار عكا ، وقد وافق ابراهيم باشا على هذه المبادرة وأمر جنوده بايقاف الضرب خصوصا بعد أن ارسل عبد الله باشا مندوبا عنه للتفاوض[1] ، ونظرا لتعثر المفاوضات عدل حاكم عكا عن فكرة الصلح وبخاصة بعد أن ابلغته الحكومة العثمانية بقدوم قوات جديدة من جيشها لمساندته[2] ونتيجة لذلك أمر ابراهيم باشا جيوشه باستمرار اطلاق النار على عكا حتى يتم فتحها عنوة[3] ، وقد أخذت هذه القوات تصلى عكا نارا حامية ليلا ونهارا لمدة ثلاثة أيام متتالية وبعدها قاد ابراهيم باشا الهجوم على عكا ، وبعد كر وفر تمكنت القوات المهاجمة من الصعود الى القلعة عن طريق برج الباب وناحية الزاوية وأخذت فى التشديد على المدافعين حتى ضعفت مقاومتهم[4] وظهر الضجر والسآمة عليهم وسقط العلم من أيديهم وتم احتلال القلعة[5] فى ٢٧ مايو ١٨٣٢ ، وبذلك زالت أكبر العقبات أمام القوات المصرية الزاحفة على بلاد الشام بعد صمود دام أكثر من ستة شهور .

ونتيجة لدخول القوات المصرية مدينة عكا وصل وفد من أعيانها وعلمائها الى ابراهيم باشا طالبا الرحمة والعفو والأمان ، فوافق ابراهيم على طلبهم ، ووعدهم بتأمين الأهالى فى أرواحهم وأموالهم[6]

---

(١) حيدر الشهابى : من تاريخ الأمير حيدر المسمى الروض النضير ج ٢ ، القاهرة . مطبعة السلام . ١٩٠١ ص ١٠٢٢ .
(٢) سليمان أبو عز الدين : المرجع السابق ص ٨٠ .
(٣) حيدر الشهابى : المصدر السابق ص ١٠٢٥ .
(٤) محافظ عابدين : محفظة رقم ٢٣٤ ترجمة الافادة رقم ١٣٠ بتاريخ الأحد ٢٧ ذى الحجة ١٢٤٧ هـ .
(٥) محافظ عابدين : محفظة رقم ٢٣٤ ترجمة الوثيقة التركية رقم ١٥١ بتاريخ ٣٠ ذى الحجة ١٢٤٧ هـ (مكاتبة من ابراهيم باشا الى سامى بك) .

الموضـــوع الحادى عشر

السلطان عبد الحميد الثانى وفكرة الجامعة الإسلامية ١٨٧٦-١٩٠٩م

السلطان عبد الحميد بن عبد المجيد هو السلطان الرابع والثلاثون والخليفة السادس والعشرون من خلفاء بنى عثمان . ولد فى عام ١٢٥٩هـ وبالتحديد فى ٢١ سبتمبرمن عام ١٨٤٣م ونشأ فى حياة مليئة بالكبت والحذر خصوصا وأن والده كان يكرهه ويفضل إخوته عليه[١] ، كما أن والدته قد توفيت ، وكان لا يزال فى الثامنة من عمره ، يضاف إلى ذلك أن خلع عمه عبد العزيز ثم انتحاره ثم خلع أخيه مراد الخامس قد زادا من حذره وتخوفه ولو كان من أقرب المقربين إليه . ونتيجة لفقدان عبد الحميد لوالدته فى الصغر عهد بحضانته إلى عجوز من نساء القصر ، ثم إلى إحدى زوجات والده واسمها "برلستوخانم" حيث لم تكن تنجب أولادا فتبنته ، وأخذت فى تربيته .

ونظرا لكل هذه الأمور مال عبد الحميد إلى العزلة والانفراد بنفسه ، وكان يتهرب دوما من إخوته ولا يشاركهم فى ألعابهم ، وقضى أيام صباه بين الخصيان والعبيد والجوارى[٢] ، وقد تولى عبد الحميد أمور السلطنة فى ١٨ من شعبان ١٢٩٣هـ الموافق ٦ من سبتمبر ١٨٧٦م ، وكانت مدة حكمه اثنين وثلاثين (٣٢) عاما وخمسة أشهر وستة وعشرين يوما ، وهو من السلاطين العثمانيين القلائل الذين عمروا كثيرا وحكموا طويلا حيث مات عبد الحميد فى العاشر من فبراير ١٩١٨م عن عمر يناهز الخامسة والسبعين عاما[٣] .

١- مؤلف تاريخى هام : عصر السلطان عبد الحميد ، وأثره فى الأقطار العربية ، دمشق ، المكتبة الهاشمية ، الطبعة الثانية ، جـ٣ ص ٦٥-٦٨ .

٢- الهلال : السنة السابعة عشرة من أكتوبر ١٩٠٨ إلى يوليو ١٩٠٩ ص٥١٥-٥١٨ .

٣- مؤلف تاريخى هام : ص٦٥ .

وقد واجهت السلطنة العثمانية فى عصر عبد الحميد أزمات متعددة استغلتها الدول الأوربية فى إثارة القلاقل ضدها خصوصا فى ولاياتها غير الإسلامية فحركت الفتن السياسية فى كريت وصربيا وبلغاريا ، كما بدأت توجه التهديدات للسلطنة وتطالبها بالمسارعة فى إجراء الإصلاحات يضاف إلى ذلك أن روسيا أخذت فى إشهار الحرب على السلطنة لإجبارها على تعديل معاهدة باريس بغية الحصول على مكاسب إقليمية جديدة لها[1] ، ورغبة منها فى تخليص نصارى البلقان من حكم المسلمين باعتبارها حامية الأرثوذكسية فى ذلك الوقت يضاف إلى ذلك رغبتها فى تحقيق حلمها التاريخى فى الوصول إلى المياه الدافئة[2] كل ذلك أدى إلى تكوين تكتل مسيحى من "الروسيا" ورومانيا والجبل الأسود والصرب ضد الدولة العثمانية ، واتخذ الصراع بين الجانبين شكل الصراع الصليبى بين المسيحية والإسلام حيث ركز النصارى اهتمامهم على نسف الأحياء الإسلامية فى المناطق التى اقتحموها ، وعلى قتل سكانها وهتك أعراضهم ، وتخريب المساجد[3] .

ونتيجة لذلك رأى السلطان عبد الحميد أن الوسيلة المثلى لمواجهة هذه الهجمات الصليبية هى جذب عواطف المسلمين إليه[4] ، والعمل على كسب ولائهم فبدأ فى إحاطة نفسه بإطار من التقى والتقشف ، كما بدأ يقرب إليه الفقهاء ورجال الدين الإسلامى[5] . يضاف إلى ذلك انه جنح إلى الاستفادة من منصبه كخليفة لتعزيز سلطته الدنيوية ، ودفع مؤامرات أوربا عن بلاده ومن هنا بدأ فى الدعوة إلى الجامعة الإسلامية ، وتقريب مجموعة من علماء العرب وأشراف مكة إليه[6] ، كما اعتمد على الداعية الإسلامى جمال الدين الأفغانى فى الترويج لهذه الدعوة على مستوى العالمين العربى والإسلامى . هذا إلى جانب قيام نامق كمال بتهيئة الأذهان فى أوساط المتحدثين بالتركية .

١- محمد جميل بهيم: فلسفة الحكم العثمانى جـ٢ ، بيروت ١٣٧٣هـ/١٩٥٤م ص١٦١ .

٢- محمود صالح منسي: حركة اليقظة العربية فى الشرق الأسيوى ، القاهرة ، دار الفكر العربى ، ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م ص٧١ .

٣- عبد العزيز الشناوى: الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها جـ٢ ، القاهرة ، الأنجلو المصرية ، ١٩٨٠م ص١٠٧٤-١٠٧٥ .

٤- مذكرات السلطان عبد الحميد: ترجمة وتعليق محمد حرب، القاهرة ، دار الأنصار ١٩٧٨ ص٧ .

٥- جورج انطونيوس: يقظة العرب، ترجمة أحمد حيدر الركابى ،دمشق، مطبعة الترقى ص٦٧ .

٦- بيهم : المرجع السابق جـ٢ ، ص١٧٨-١٧٩ .

وأخذ السلطان على عاتقه تنفيذ الفكرة عمليا ، وقيادتها بصفته خليفة للمسلمين ، وعدها أعذب الآمال فى إنقاذ الدولة وإحيائها من جديد ، وخير سلاح يحارب به النفوذ الاستعمارى الغربى الزاحف على العالم الإسلامى[١] .

وقد اتسعت دلالات معنى الجامعة الإسلامية فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر لتشمل مفاهيم عدة ، فبعض المصلحين رأى فيها دعوة للرجوع بالدين إلى ما كان عليه السلف الصالح وآخرون فسروها على أنها دعوة لتحديث المفاهيم الإسلامية وتطويرها وتفسيرها بشكل يساير تطور الحياة الحديثة ، ويتمشى مع المفاهيم الواردة من مدنية الغرب وثقافته وقسم ثالث رأى فى حركة الجامعة الإسلامية دعوة إلى إحياء الخلافة القرشية من جديد ، لكن من غير أن يكون لهذا الخليفة سلطة دنيوية بل يكون مجرد رمز دينى لوحدة المسلمين[٢] ، ثم امتزجت هذه المفاهيم عندما دعا الأفغانى إلى جامعة إسلامية تقوم على دعائم أساسية تتركز فيما يلى :

١ - ضرورة التمسك بالخلافة كنظام دينى ، ونظام سياسى حتى يمكن مقاومة التيارات الأوربية التى اشتد ساعدها داخل بلاد المسلمين ، وتخليص العالم الإسلامى بعامة، وأقاليم شمالى إفريقية ، والشرقين الأدنى والأوسط بخاصة من السيطرة الأوربية المالية والسياسية والعسكرية[٣] .
٢ - إيجاد حد أدنى من التضامن السياسى بين المسلمين ، لاستعادة ما فقد من ديارهم والحفاظ على ما تبقى بأيديهم منها[٤] .
٣ - الحج إلى المسجد الحرام فى مكة المكرمة حيث الكعبة المشرفة لما فى ذلك من تربية دينية توصل العقيدة ، وتثبتها فى نفوس المسلمين فى كافة أنحاء المعمورة[٥] .

وقد اتخذ الأفغانى فى سبيل نشر أفكاره وسائل عدة كالخطابة والكتابة ، ومقابلة الحكام ، وتكوين الجمعيات ، وعانى فى سبيل ذلك الكثير من مرارة النفى ومظاهر التضييق ، وظل مناديا بفكرة الجامعة الإسلامية برغم كل الصعاب ، ودعا المسلمين إلى

١- الشناوى : المرجع السابق جـ٣ ، ص١١٩٩-١٢٠٠ .
٢- أحمد فهد الشوابكة : حركة الجامعة الإسلامية ، الأردن ، الزرقاء ، مكتبة المنار ، الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م ص٥ .
٣- الشناوى : المرجع السابق جـ٣ ، ١٩٨٣م ص١١٩٥-١١٩٦ .
٤- الشوابكة : المرجع السابق ص١٣٢ .
٥- الشناوى : المرجع السابق ص١١٩٥-١١٩٦ .

الوحدة الصحيحة جاعلين أمامهم الأعظم فى ذلك القرآن الكريم[1].

وفى الوقت الذى ظهرت فيه فكرة الجامعة الإسلامية ظـــهرت فـــى أركـــان الدولـــة العثمانية حركات أخرى لمناهضة هذه الفكرة فظهرت حركة الجامعة الصقلبيـــــة ، وحركـــة الجامعة الجرمانية ، ونتيجة لذلك عمل السلطان عبد الحميد على توحيد العناصر المتعـــددة فى الدولة من ترك وعرب وأكراد وغيرهم بهدف تكوين جبهة واحدة تستطيع الصمود أمـــام الأطماع الأجنبية ، فأحاط نفسه بمجموعة من الأكراد والأرنؤط وعنى بتربية أبناء العشـــائر تربية إسلامية ، كما رأى ضرورة امتداد أواصر الأخوة الإسلامية إلى كـــل مســـلمى آســـيا وافريقية سواء فى الصين أم الهند أم أواسط افريقيا أم غيرها[2] .

وعلى الرغم من أن هذه السياسة قد حققت بعض أهدافـــها واســـتطاعت أن تزعـــج بعض الدول الأوربية مثل بريطانيا وفرنسا ، وكلفتهما جهدا كبيرا فـــى ســـبيل مقاومتـــها ، وأدت إلى إحراج موقفيهما[3] ، فإن نجاح حركة الجامعة الإسلامية ظـــل مرهونـــا بتواجـــد السلطان عبد الحميد على العرش .

وحتى تزداد هيبة السلطان عبد الحميد الدينية بين المسلمين رأى ضرورة الاهتمـــــام بتيسير أمور أداء فريضة الحج لهم عن طريق إنشاء خط حديدى بين دمشق والمدينة ، وقد قيل إن عزت باشا العابد – السورى الأصل والذى كان سكرتيرا ثانيا للسلطان عبد الحميـــد – هو الذى أدخل فى روع السلطان إمكانية تقوية الخلافة بهذا المشروع الذى يمكن أن يشد من قبضة الدولة على الأماكن المقدسة ، ويعززها بإذكاء شعور المســـــلمين فـــى مختلـــف أرجاء العالم هذا بالإضافة إلى تسهيل سفر الحجاج وتذليل ما يواجههم من صعوبـــات فـــى ذهابهم وإيابهم[4] .

١- عبد المنعم الجميعى : عبد الله النديم ودوره فى الحركة السياسية والاجتماعية ، القـــاهرة ، دار الكتـــاب الجـــامعى ، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م ص٢٤٢ .

٢- مذكرات السلطان عبد الحميد ص٧ .

٣- بيهم : المرجع السابق جـ٢ ، ص١٧٩-١٨١ .

٤- الشوابكة : المرجع السابق ص١٨١-١٨٦ .

وقد ظلت الدعوة إلى الجامعة الإسلامية تتأرجح صعودا وهبوطا وقوة وضعفا حتـــى حدثت ثورة تركيا الفتاة فى عام ١٩٠٨ وخلع السلطان عبد الحميد ،فتعثرت حركة الجامعـة الإسلامية فى مسيرتها[١] خصوصا بعد تعصب جماعة الاتحاد والترقى للحركة الطورانيـــة، وانسياق الشريف حسين بن على وراء وعود بريطانيا بإقامة خلافـــة عربيـــة ، وموقــف المعارضة الشديد الذى اتخذه النصارى فى الولايات العربية ضد فكرة الجامعة الإسلامية[٢]

١- لوثروب ستودارد : حاضر العالم الإسلامى جـ١ - ترجمة عجاج نويهض ، بيروت ، دار الفكر ، الطبعة الرابعة ١٣٩٤هـ/١٩٧٣م ص٣٠٥-٣٠٨ .

٢- الشناوى : المرجع السابق ص١٢٩٧-١٢٩٩ .

الحركات السياسية والفكرية فى العالم العربى
بين فكرة الجامعة الاسلامية وحركة التتريك

- محاولات السلطان عبد الحميد استخدام الرابطه الدينية فى مواجهة اعدائه .
- سكة حديد الحجاز .
- فكرة الجامعة الاسلامية بين الأفغانى وعبد الحميد .
- الكواكبى والدعوة إلى انتقال الزعامة للعرب .
- الجمعيات السرية ودورها فى الدعوة للحركة العربية .
- الثورة العربية الكبرى وأحوال العرب السياسية خلالها .
- اتفاقية سايكس بيكو .
- تصريح بالفور .
- احوال العالم العربى خلال الحرب العالمية الأولى وفى اعقابها .
- العرب ومؤتمر الصلح في باريس .

الموضــوع الثانى عشر

بعد تفاقم الاعتداءات الأوربية على العالم العربى منذ أواخر القرن الثامن عشر الميلادى، وتسابق الدول الاستعمارية فى السيطرة عليه، شعر المسلمون بمدى الخطر الذى يحيق ببلادهم، ورأوا ضرورة جمع كلمتهم فى شتى بقاع الأرض للوقوف فى وجه أعداء الاسلام ومن ثم استيقظت لديهم فكرة احياء الوحدة الاسلامية الكبرى لتوحيد الجهود فى مواجهة الاستعمار فنشأت فكرة الجامعة الاسلامية.

لقد كان مبعث ولاء المسلمين للسلطنة العثمانية دينيا حيث كانوا مكلفين شرعا بطاعة السلطان العثمانى باعتباره الخليفة والأب الروحى للمسلمين [1] خاصة وان الفكرة المتسلطة على العقول فى ذلك الوقت كانت تقتضى ضرورة طاعة السلطان " حيث له عليهم الولاية العامة والطاعة التامة والسلطان الشامل، وله حق القيام على دينهم، فيقيم فيهم حدوده وينفذ شرائعه، وله بالأولى حق القيام على شئون دنياهم أيضا " ولم يكن هناك ما يسمى جنسية عربية، فكلمة عثمانى كانت تنطق على كل من يقطن البلاد العثمانية ومنها البلاد العربية [2] .

ونظرا لتأزم الأمور فى العالم العربى رأى السلطان عبد الحميد أهمية استخدام الرابطة الدينية لمقاومة معارضيه فى الداخل ومواجهة أعداء الاسلام فى الخارج وذلك بابراز السمات الدينية لمنصبه بصفته خليفة للمسلمين وبغرض تسخير قوة الدين لغاياته السياسية وحتى يضمن التفاف العالم العربى حوله، وجمع كافة الشعوب الاسلامية بما فى ذلك الشعوب الخاضعة للاستعمار الأوربى وخاصة أهالى شمال افريقية الخاضعين لفرنسا، ومسلمى الهند الخاضعين لبريطانيا وغيرهم [3] ونتيجة لذلك حاول السلطان عبد الحميد كسب ود القوميات المختلفة داخل السلطنة العثمانية وخاصة العرب فاغدق بالعديد من المناصب ومظاهر التكريم على بعض الشخصيات العربية، وانفق الأموال الطائلة على اصلاح وتزيين المساجد فى مكة المكرمة والمدينة المنورة والقدس الشريف، ولكى يزيد من سيطرته على الأراضى المقدسة عين وال على الحجاز من قبله بقصد اخضاع هذه البلاد لحكمه المباشر، وسارع فى الاعلان أن سلطته الزمنية تستند إلى سلطته الدينية فهو ظل الله فى الارض وأمير المؤمنين، وخادم الحرمين يضاف إلى ذلك أنه حاول اقناع الرأى العام الاسلامى أن الخلافة والسلطنة متكاملتان حتى إذا ما استعادت الخلافة مكانها اللائق بها عمد إلى تسخيرها لتكون قوة دافعة لتحقيق أغراضه السياسية .

ولكى يجذب السلطان عبد الحميد قلوب عامة المسلمين اليه احاط حياته الخاصة باطار من التقى والتقشف، كما احاط نفسه برهط من الفقهاء ورجال الدين الذين يتمتعون بشهرة واسعة بين ابناء المسلمين كما أخذ فى التقرب من العرب بشكل واضح فأدخل بعضهم فى خدمته الخاصة، وشكل فرقه مختارة منهم ضمها إلى حرسه الخاص كما وضع بعضهم فى مراكز بارزة من السلطنة مثل عزت باشا العابد السورى الذى صار من سكرتارية السلطان [4]، وابى الهدى الصيادى الذى كان من اشد المقربين اليه والسؤال المطروح هو: لماذا قرب السلطان عبد الحميد العرب بالذات اليه اثناء دعوته لفكرة الجامعة الاسلامية ؟

---

[1] عن انتقال الخلافة لآل عثمان انظر. محمد أنيس: الدولة العثمانية والشرق العربى ص١٢

[2] عبد المنعم الجميعي: عبد الله النديم ودوره فى الحركة السياسية والاجتماعية، ١٩٨٠ص٢٣١

[3] Antonius,G:the Arab Awakening ١٩٣٨ P.٧٥

[4] منسي: المرجع السابق ص٧٤

الواقع ان السلطان عبد الحميد كان يعى قيمة العرب فى مساندته لدعوتهم خصوصا وأن منهم رسول الله، وفيهم نزلت الرسالة وبلغت للناس أجمعين وإلى جانب ذلك فقد اهتم السلطان عبد الحميد بأمور الحج فدفع شريف مكة لنشر دعوته بين الحجاج كما اهتم بمشروع خط سكة حديد الحجاز الذى يمتد من دمشق إلى المدينة فمكة، وذلك بهدف تسهيل أمور الحجاج ظاهرا، ولرغبته فى رفع مكانته كخليفة فى العالم الاسلامى كله بينما كان السبب الحقيقى يتعلق بالعديد من العوامل السياسية والعسكريةخاصة وانه يمكنه من نقل قواته إلى شبه الجزيرة العربية راسا مما يسهل له تقوية قبضته عليها وتشديد سيطرته خاصة على الحجاز واليمن .

ولأجل تنفيذ هذا المشروع عين السلطان لجنة برئاسة عزت باشا العابد، كما وجه نداء إلى العالم الاسلامى يوضح فيه فكرة مد هذا الخط الحديدى، ويطلب من المسلمين الاكتتاب لتغطية نفقاته .

وقد جذب هذا المشروع انظار العرب، وأثار حماسا كبيرا فى مختلف جهات العالم الاسلامى فانهالت التبرعات من كل مكان لانشاء هذا الخط حتى وصل ماقدمه ابناء العالم الاسلامى من هبات للمشروع ثلاثه ملايين من الجنيهات التركية أى ما يوازى ثلث التكاليف. وقد قام المهندسون الألمان فى عام ١٩٠١ وبتشجيع من السلطان ببناء هذا الخط الحديدى الممتد من دمشق، وقد انتهى العمل فيه فى عام ١٩٠٨ عندما امتد إلى المدينة المنورة [1] ولكنه سرعان ما توقف نشاطه بسبب قيام الحرب العالمية الأولى ونسف الانجليز لجزء كبير منه .

ونتيجة للحماس الاسلامى لهذا المشروع وتأييد عامة المسلمين للخلافة شعر السلطان عبد الجميد بالارتياح وقد ظل معظم زعماء المسلمين على ولائهم للدولة العثمانية باعتبارها دولة الاسلام الكبرى التى تظل المسلمين بظلالها، ولم يفكروا فى الانفصال عنها، بل كان جل ما يسعون اليه هو ادخال الاصلاحات السياسية والاقتصادية فى نظام الدولة حتى تتمكن من النهوض والتقدم فى مواجهة الأطماع الاستعمارية .

والسؤال الذى يطرح نفسه هو: هل كان السلطان عبد الحميد أول الداعين إلى فكرة الجامعة الاسلامية؟الواقع انه قبيل اعتلاء عبد الحميد العرش بسنوات قام جمال الدين الأفغانى بالدعوة إلى الجامعة الاسلامية بهدف أن يرتفع بالشعوب الاسلامية إلى مستوى الأمم الحرة الناهضة وأن يعمل على تحرير الشرق من سيطرة الغرب الأوربى ونظرا لأهمية الدور الذى قام به فى الدعوة إلى الجامعة الاسلامية فاننا سنقوم بالتعريف به وبأهم اعماله .

تتضارب الروايات حول مولد جمال الدين فمنها من قال أنه افغانى مولود فى افغاستان، ومنها من قال انه فارسى مولود فى همدان .

والواقع أن كل من تقرب من جمال الدين عرف انه من أفغاستان، وأن مولده كان فى أسد اباد عام ١٢٥٤هـ الموافق ١٨٣٨م [2]، وانه عندما شرع السلطان عبد الحميد فى الدعوة إلى سياسته الاسلامية كان الافغانى فى أوجه نشاطه يتنقل بين أوربا وفارس وتركيا لدعوة المسلمين إلى التكاتف والتآزر فى مواجهة اعداء الأمة الاسلامية .

وحركة الجامعة الاسلامية التى دعا اليها الافغانى هدفت إلى وقف الزحف الاستعمارى عن طريق تنظيم الحكومات الاسلامية القائمة، وادخال الأفكار والنظم الغربية التى تساعد على التطور ثم توحيد

[1] توفيق برو : المرجع السابق ص٤٥.

[2] لوثروب ستودارد: حاضر العالم الاسلامى، المجلد الأول الطبعة الرابعة ١٩٧٣م ص٢٨٩

صفوف المسلمين لمواجهة التيار الاستعمارى الزاحف وإلى جانب ذلك فقد نادى الافغانى بتقوية الروابط بين البلدان الاسلامية، واقامة العدل والشورى والتمسك بهدى القرآن، كما اقترح انشاء حلف اسلامى تتزعمه الدولة العثمانية، وكانت خطته تتضمن تحويل الامبراطورية العثمانية إلى مملكة الممالك بتنظيمها على أساس لامركزى، ومن أجل ذلك طالب الافغانى السلطان عبد الحميد بتحويل الولايات العثمانية إلى خديويات كما كان متبعا فى مصر حتى تقوى الروابط فيما بينها ، ويؤدى ذلك إلى انضمام بلدان مثل ايران وافغانستان والامارات الاسلامية فى الهند إلى الامبراطورية العثمانية فى شكلها الجديد وبذلك يمكن حماية بلاد المسلمين من سيطرة الغرب المسيحى [1] .

ولترويج فكرة الجامعة الاسلامية انشأ الافغانى فى باريس جريدة العروة الوثقى فى عام ١٨٨٤ وكتب فيها العديد من المقالات التى تدعو إلى اتحاد المسلمين، وضرورة جمع كلمتهم منها مقال عنوانه"الجنسية والديانة الاسلامية" الذى دعا فيه الافغانى إلى ضرورة التأثر بحياة المسلمين الأوائل وسيرة السلف الصالح بقوله "هذا ما أرشدتنا اليه سير المسلمين من نشأة دينهم إلى الآن، لايعتدون برابطة الشعوب وعصبيات الأجناس، وانما ينظرون إلى جامعة الدين، لهذا ترى العربى لا ينفر من سلطة التركى، والفارسى يقبل سيادة العربى، والهندى يذعن لرياسة الأفغانى، ولا اشمئزاز عند أحد منهم، ولا انقباض،وان المسلم فى تبدل حكوماته لا يأنف ولا يستنكر ما يعرض عليه فى أشكالها وانتقالها من قبيل إلى قبيل مادام صاحب الحكم حافظا بشأن الشريعة [2] .

وأوضح الأفغانى أن رابطة الدين هى الرابطة القومية التى يتمسك بها المسلمون فقال "علمنا وعلم العقلاء أجمعون أن المسلمين لا يعرفون لهم جنسية إلا فى دينهم واعتقادهم" كما طالب المسلمين بالتمسك برابطة الدين بقوله" اعتصموا بحبال الرابطة الدينية التى هى أحكم رابطة اجتمع فيها العربى بالتركى، والفارسى بالهندى ، والمصرى بالمغربى، وقامت لهم مقام الرابطة النسبية حتى أن الرجل منهم ليتألم لما يصيب أخاه من عاديات الدهر، وان تناءت دياره وتقاصت أقطاره هذه صلة من أمتن الصلات ساقها الله اليكم، وفيها عزتكم ومنعتكم وسلطانكم وسيادتكم فلا توهنوها [3] .

وعلى كل حال فانه ما كاد السلطان العثمانى عبد الحميد الثانى يبدأ الدعوة إلى الجامعة الاسلامية حتى وجد التأييد والعون من الأفغانى الذى كان يرى ضرورة توحيد العالم الاسلامى تحت حكم خليفة واحد، ولايهتم بجنس ذلك الخليفة سواء أكان تركيا أم افغانيا أم عربيا، ولكن ذلك العون لم يستمر طويلا خاصة بعد أن اتضح أن افكار كل منهما تسير فى مسار يخالف مسار أفكار الآخر ففى حين كان الافغانى يسعى إلى العثور على حاكم مسلم يستطيع عن طريقه تجديد العالم الاسلامى، وهذا ما جعله يتطلع إلى السلطان العثمانى لمحاولة استخدام نفوذه فى سبيل خدمة الاسلام كان السلطان عبد الحميد - على العكس - تراوده الآمال فى استخدام الأفغانى وافكاره عن الجامعة الاسلامية فى جمع شتات المسلمين حول عرشه تحقيقا لمصالحه وللمحافظة على سلطانه، وإلى جانب ذلك فان الأفغانى فى دفاعه عن الاسلام كان ينادى بجعل اللغة العربية هى اللغة الاولى فى الدولة العثمانية، خاصة وان اللسان العربى هو لسان الدين، ويدفعه ذلك إلى حد المطالبة بتعرب الدولة العثمانية لانها لو تعربت واتقى من بين الامتين النعرة القومية، وزال داعى

---

[1] منسى: المرجع السابق ص٧١-٧٢

[2] جمال الدين الافغانى ومحمد عبده: العروة الوثقى والثورة التحريرية الكبرى.مقال بعنوان "الجنسية والديانة الاسلامية"

[3] العروة الوثقى: مقال التعصب

النفور والانقسام بين التركى والعربى، وصاروا أمة عربية بكل ما فى اللسان من معنى ومافى الدين الاسلامى من عدل ومافى سيرة أفاضل العرب من اخلاق وفى مكارمهم من عادات لكان اعادة عصر الرشيد للمسلمين ميسورا

ونتيجة لذلك بدأ السلطان عبد الحميد يشك فى نوايا الأفغانى ، ويخشى أن يكون هدفه العمل على استقلال البلاد العربية عن السلطنة العثمانية [1]

وعلى أى حال فقد كان السلطان عبد الحميد يشعر بالارتياح لأن ابناء العالم العربى فى ذلك الوقت كانوا يميلون إلى تأييد الخلافة على أساس أن فى ذلك تأييدا للاسلام، ووقوفا فى وجه الأطماع الاستعمارية ولذلك فان اليقظة العربية التى برزت فى ذلك الوقت كان هدفها الرغبة فى الاصلاح فى ظل الدولة العثمانية دون التفكير -آنذاك -فى اقامة دولة عربية مستقلة [2] ولكن ذلك لم يستمر طويلا فسرعان ما ظهرت أفكار عبد الرحمن الكواكبى التى تدعو إلى الغاء حق السلطان العثمانى فى الخلافة وإلى المناداة بتنصيب خليفة ينتمى الى قريش وأن يكون مركزه مكة (ام القرى) وطالب بجمع كلمة المسلمين فى ظل هذه الخلافة، كما تخيل الكواكبى فى كتابه "ام القرى" أن اثنين وعشرين شخصا يمثلون علماء وفقهاء المسامين فى اثنين وعشرين قطرا من الاقطار الاسلامية اجتمعوا فى مكة المكرمة لأداء فريضة الحج، وبعد تبادل الآراء فيما بينهم فى أكثر من اثنتى عشر جلسة رسمية اتفقوا على تشكيل جمعية غايتها بعث الاسلام واعلاء كلمة الله. ثم اخذوا يرسمون خطط الاصلاح لاستعاده امجاد الأمة الاسلامية فى عصورها الزاهرة [3] ورأوا انشاء جمعية تحوز رضا الحكومات الاسلامية ويكون دورها النهوض "بالأمة من وهدة الجهالة والترقى بها فى مدارج المعارف [4] " .

وكان من الطبيعى أن تساعد الأفكار التى نادى بها الكواكبى على انتقال الزعامة إلى العرب فشكلت جمعيات عربية وضعت مناهج محددة هدفها حماية حقوق العرب، فشكل نجيب عازورى فى باريس عام ١٩٠٤ منظمة اطلق عليها رابطة الوطن العربى وكان هدف هذه المنظمة تخليص بلاد الشام والعراق من السيطرة العثمانية بمساندة فرنسا، وقد وضع عازورى افكاره فى كتاب اسماه " يقظة الأمة العربية .

والسؤال المطروح هو لماذا تزايدت فى هذا الوقت بالذات فكرة الانفصال عن الدولة العثمانية، وبدأ صداها يتردد بسرعة بين ابناء الوطن العربى ؟

الواقع انه بعد نجاح جمعية الاتحاد والترقى فى السيطرة على زمام الأمور بالدولة العثمانية بدأ افرادها فى تبنى فكرة تمييز العنصر التركى على العنصر العربى، ومحاولاتهم القضاء على اللغة العربية لغة القرآن الكريم، واحلال اللغة التركية محلها، وابعادهم عن مقوماتهم الثقافية وروحهم العربية، يضاف إلى ذلك ان حكومة الاتحاديين كانت ترى ان تكون السيادة للعناصرالتركية على العرب [5] وترويج المصلحة التركية على المصلحة العربية، وتمجيد العنصر التركى ورفعه فوق العناصر الأخرى، مما أدى إلى ذعر العناصر العربية، ورفضها لفكرة الدعوة إلى الوحدة العثمانية التى طلب منها قبولها والاخلاص

(١) محمد عمارة: الأعمال الكاملة لجمال الدين الافغانى ص٧٦

(٢) منسى:المرجع السابق ص٧٦

(٣) عبد الرحمن الكواكبى: أم القرى، وهو ضبط مفاوضات ومقررات مؤتمر النهضة الاسلامية المنعقد فى مكة المكرمة ١٣١٦هـ بيروت، دار الرائد العربى ص٧-٨.

(٤) نفسه ص١٨

(٥) عمر عبد العزيز: تاريخ المشرق العربى ص٤٢٧

لها، والاندفاع نحو الفكرة العربية [1] خاصة بعد أن اتضح للعرب أن استمرار التعاون مع الاتحادين بات مستحيلا، وانه يجب عليهم اتخاذ الخطوات اللازمة للدفاع عن حقوقهم والمحافظة على مصالحهم.ونتيجة لذلك تشكلت الجمعيات السرية التى اعلنت معادتها للدولة العثمانية، وللاتحاديين كما تشكلت بعض الجمعيات والنوادى العلنية ذات البرامج المعتدلة وكانت هذه الجمعيات فى ظاهرها أدبية علمية، وفى باطنها سياسية تحررية ومن أهم هذه الجمعيات نذكر :

١- جمعية المنتدى الأدبى :

أسست فى الآستانة فى صيف عام ١٩٠٩ من بعض الموظفين والمبعوثين والكتاب والطلاب وكانوا فى معظمهم من السوريين وكانت مركزا يلتقى فيه العرب من زوار العاصمة والمقيمين فيها، وقد تمتعت هذه الجمعية بنفوذ سياسى كبير ، وانحصرت مساهمتها فى تنمية الدعوة للحركة العربية وتوسيع مداها، كما كان لها فروعا مختلفة فى بلاد الشام والعراق هذا إلى جانب نشاطها فى القاهرة. وظلت هذه الجمعيه تزاول انشطتها حتى اغلقتها الحكومة التركية فى عام ١٩١٥ [2] .

٢- حزب اللامركزية الادارية العثمانية :

تأسس فى عام ١٩١٢ بالقاهرة بهدف اقامة نظام لامركزى فى الولايات العربية داخل اطار الدولة العثمانية وتعبئة الرأى العام العربى لتأييد هذا الطلب وقد كان لهذا الحزب فروعا فى معظم بلاد الشام. ولم يمض عام على تأسيس هذا الحزب حتى أصبحت لجنته تنطق بلسان العرب وتعرب عن أمانيهم [3]

٣- الجمعية القحطانية :

جمعية سرية انشئت فى عام ١٩٠٩، واشترك فى تأسيسها عزيز المصرى، وبعض الضباط العرب، وكان هدف القائمين عليها تحويل الامبراطورية العثمانية إلى دولة ثنائية بحيث تتكون من الأقاليم العربية دولة واحدة لها برلمانها، وحكومتها المحلية، ولغتها العربية يتولى حكمها السلطان العثمانى إلى جانب حكمه للدولة التركية وظلت هذه الجمعية تزاول نشاطها السرى حتى نشوب الحرب العالمية الأولى [4] .

٤- جمعية العربية الفتاة :

تأسست هذه الجمعية على أيدى الطلبة العرب فى باريس عام ١٩١١ ثم انتقلت إلى بيروت فى عام ١٩١٣ وبعد ذلك انتقلت إلى دمشق وبقيت بها حتى عام ١٩٢٠ تقريبا. وكان هدف هذه الجمعية فى بداية الأمر النهوض بالوطن العربى، وتمتعه بالحكم الذاتى فى ظل الدولة العثمانية ثم تغير هدفها بعد نشوب الحرب الأولى، وأصبح انشاء دولة عربية ذات سيادة وبعيدة عن النفوذ التركى [5] .

وإلى جانب هذه الجمعيات وجدت جمعيات أخرى محدودة الأهمية ابرزها جمعية "الجامعة العربية" التى انشأها محمد رشيد رضا صاحب المنار والذى كان يرى أهمية التعاون بين العرب والترك وجمعية

---

[1] انطونيوس: المرجع السابق ص١١٤

[2] أمين سعيد: الثورة العربية الكبرى حـ١ ص٩

[3] انطونيوس: المرجع السابق ص١١٧-١١٨

[4] توفيق على برو : العرب والترك فى العهد الدستورى العثمانى ١٩٠٨-١٩١٤ ص٣١٩ -٣٢٢

[5] أمين سعيد: المرجع السابق حـ١ ص٩

بيروت الاصلاحية التى تكونت فى أواخر ١٩١٢ وكانت اللامركزية هى الأساس الذى ارتكزت عليه مطالبها كما كان من بين مطالبها أن يكون تعيين الموظفين من أهالى البلاد الذين يعرفون العربية وجمعية العهد التى اسسها مجموعة من الضباط العرب برئاسة عزيز المصرى فى عام ١٩١٣ والتى كانت تهدف إلى إقامة مملكة ثنائية بمعنى الحصول على الاستقلال الداخلى للبلاد العربية فى ظل الخلافة العثمانية، ومع ذلك فان هذه الجمعية لم تنجح فى تحقيق اهدافها بسبب تعارض خطتها مع سياسة الاتحاديين الذين أمروا بالقبض على عزيز المصرى ومحاكمته مما أدى إلى غليان الشعور العربى ضد العثمانيين حتى صدر العفو عنه .

هذه كانت أهم الجمعيات التى ألفها الأحرار العرب بهدف ابراز الكيان العربى داخل الدولة العثمانية، ومن أجل توحيد الجهود بين هذه الجمعيات عقد المؤتمر العربى الأول فى عام ١٩١٣ بباريس واشترك فيه مندوبون عن كافة الجمعيات الوطنية العربية. وقد جاء فى الدعوة لعقد هذا المؤتمر أنه فى مقدمة الاسباب التى دعت الحاجة اليه حالة الفوضى والاضطراب التى شملت البلدان العربية نتيجة لانكار مطالبها، واعلن ان المسائل التى سيدور حولها البحث فى المؤتمر هى :

١- حقوق العرب فى الدولة العثمانية .

٢- ضرورة الاصلاح على اساس اللامركزية .

٣- الحياة الوطنية ومناهضة الاحتلال .

وقد اكد المتحدثون رغبتهم فى المحافظة على كيان الدولة العثمانية شريطة الاعتراف بحقوق العرب السياسية .

ومع ذلك فان الاتحاديين حاولوا منع اقامة هذا المؤتمر باقناع الحكومة الفرنسية بعدم السماح بعقده فى أراضيها ولما عجزوا عن ذلك حاولوا تهدئه مشاعر العرب الثائرة باعطائهم بعض الوعود حول استخدام اللغه العربية كأداة للتعليم فى المدارس الابتدائية والثانوية ، واشغالهم ببعض الوظائف [1] أما بخصوص اللامركزية قد عارضتها حكومة الاتحاديين .

هذه كانت أحوال العالم العربى قبيل الحرب العالمية الأولى والتى اتسمت الحركة العربية خلالها بمحاولة التوفيق بين مطالبها وبين الولاء للدولة العثمانية ولكن سيطرة جمعية الاتحاد والترقى على زمام الأمور فى تركيا بعد خلع السلطان عبد الحميد ومحاولات الاتحاديين تتريك العرب واذابة قوميتهم داخل القومية التركيه والقضاء على اللغه العربية، واعتبار الاتراك سادة والعرب مسودين.كل هذه الأمور دفعت العرب إلى التفكير فى الانفصال عن الدولة العثمانية ومن هنا دخلت حركتهم فى طور جديد، وساعدهم على ذلك قيام الحرب العالمية الأولى، وانضمام الدولة العثمانية بجانب اعداء بريطانيا .

ونتيجة لذلك قام الاتراك بمحاولات عدة للقضاء على هذه الحركة، فساقوا زعماءها الى مجالسهم العرفية فى عالية لبنان، كما أصدروا حكم الاعدام على اكثرهم ونفذ الحكم فى ساحتى دمشق وبيروت العموميتين، كما ارسلت الدولة العثمانية الوالى جمال باشا إلى بلاد الشام الذى نشر جواسيسه لتتبع أخبار رجال الحركة العربية مما كان له اكبر الأثر على زيادة الغليان ضد الحكم التركى واصرار العرب على التخلص منه .

---

[1] أمين سعيد - المرجع السابق حـ١ص٣٨ - ٣٩.

الثورة العربية الكبرى واحوال العرب السياسية خلالها :

عندما نشبت الحرب العالمية الأولى فى عـام ١٩١٤ انضمت الدولـة العثمانيـة إلـى جـانب دولتـى الوسط (المانيا والنمسا) ضد دول الوفاق الثلاثى بريطانيا وفرنسا وروسيا ونتيجـة لذلك رأت بريطانيـا أن من مصلحتهـا الاستعانة بـالعرب السـاخطين علـى الحكـم العثمـانى، وتشـجيعهم علـى الثـورة ضـد الاتـراك والانضمام إلى جانب بريطانيا وحلفائها فى مقابل بعض الوعـود البراقـة خاصـة وان موقـف العرب أصبـح مهما لاستراتيجية بريطانيا لأن الاتراك كانوا فى مركز يستطيعون به تهديد المصـالح البريطانيـة فـى قنـاة السويس ومنطقة الخليج العربى ولاسباب دينية وسياسية واستراتيجية وقع اختيار بريطانيا على الشـريف حسن بن على أمير مكة الذى كان يتطلع لاقامة دولة عربيـة بمسـاعدة بريطانيـا [1] ولكـى تحقـق بريطانيـا أهدافها دخلت عن طريق معتمدها البريطانى فى القاهرة السير "هـنرى مكـاهون" فـى مفاوضـات سـرية مـع الشريف حسين الذى كانت تسيطر عليه فكرة انشاء دولة عربية كبرى، والذى كان بينه وبين الاتراك جفاء كبير، وقد كان للشريف حسين ثلاثه ابناء هم على وعبد الله وفيصل، وكان كل من هؤلاء الثلاثـة ينشـدون القضاء على نظام المركزية فى الدولة العثمانية، وحصول الحجاز على استقلال ذاتى تحت اشراف والدهم

ولما كان الأمير عبد الله ثانى انجال الشريف حسين نـائبا عن مكة فى مجلس المبعوثان العثمانى، وعلى علاقات طيبة مع الخديو عباس الثانى [2] فقد اعتاد أن يمر بالقاهرة فى غدوه إلى استنبول ورواحـه منها. وحدث فى ربيع ١٩١٢ أن زار الأمير عبـد اللـه القـاهرة وحـل ضيفـا علـى الخديـو وخـلال ذلـك زار المعتمد البريطانى اللورد كتشنر الخديو وتم التعارف بينه وبين الأمـير وبعـد انتهـاء المقابلـة لحـق كتشـنر بالأمير ومعه السير "رونالد ستورز" السكرتير الشرقى للقنصلية البريطانية. وقد روى الأمير عبد الله ذلك فى مذكراته بقوله "بعد وصولى إلى عابدين. جاءنى التشريفاتى على بك شاهين وقال اللورد كتشنرهنا وقـد جاء لزيارتك، وكانت مباغته خفت عاقبتها على سياسة والدى مع الاتراك وبالطبع لم استطع رفـض زيـارة تكريمية [3] ".

وبعد أن استقبل الأمير عبد الله اللورد كتشنر، ودار بينهما الحديث اعرب له كتشنر عـن ارتيـاح الحكومة البريطانية لحالة الأمن فى الحجاز، وطلب منه ابلاغ والده بأن الحكومة البريطانية لا توافـق علـى تغيير منصب امارة مكة، ولما حاول الأمير عبـد اللـه معرفـة موقـف الحكومـة البريطانيـة فـى حالـة وقـوع صدام بين العرب والترك لم يجد ردا شافيا من كتشنر خاصة وانه رفض التورط فى خطة محددة لمساعدة الشـريف حسـين وبعـد انصـراف المنـدوب البريطـانى حـاول الخديـو عبـاس الثـانى اقنـاع الامـير عبـد اللـه بضرورة رد الزيارة لكتشنر [4] وعلى الرغم مـن رغبـة الأمـير عبـد اللـه فـى رد الزيـارة فقد استأذن أولا المندوب العثمانى بالقاهرة حتى لا يكون هنـاك مجـالا للتـاويل وبعد الموافقه زار الأمـير عبـد اللـه اللـورد كتشز فى مقره بالوكالة البريطانية ودارت الأحاديث بينهما حـول شئـون الحجـاز، والعلاقـة بين العثمـانيين

---

[1] محمود منسى: وعد بلفور، القاهرة، دار الفكر العربى ص٦٨

[2] عقد الأمير عبد الله علاقات صداقه مع الخديو عباس الثانى منذ عام ١٩٠٩ عندما كان الخديو يؤدى فريضه الحج، فقـد رافقـه اثنـاء تواجده فى مكة، وتبودلت الزيارات بينهما لدرجه أن الأمير كان ينزل ضيفا على الخديو اثناء مروره بالقاهرة فى طريقه إلى استنبول. سليمان موسى: الحركة العربية–سيرة المرحلة الأولى للنهضة العربية الحديثة ١٩٠٨-١٩٢٤ص٦٦

[3] مذكرات الملك عبد الله، عمان، منشورات مجلة الرائد الطبعة الثانية ص٩٩

[4] مذكرات الملك عبد الله ص١٠٠

ووالده، ومدى محاولات الاتراك التدخل فى المسائل الدينيه، وعلى الرغم من أن هذه الزيارات لم تسفر عن نتائج محددة إلا أنها أوضحت للانجليز مدى اتساع الخلاف بين العرب والترك [1] .

ولما قامت الحرب الأولى فى اغسطس ١٩١٤ ترك كتشنر منصبه بالقاهرة وشغل منصب وزير الحربية البريطانية ومع ذلك لم يغب الموقف فى الشرق الأوسط عن خاطره، فابرق إلى "ستورز" للاتصال بالشريف حسين للتعرف على المعسكر الذى سينضم اليه العرب فى حالة دخول تركيا الحرب بجانب الألمان ومن ثم بدأت سلسلة الاتصالات بين الطرفين والسؤال المطروح هو لماذا كانت انجلترا شديدة الرغبة فى وقوف العرب بجانبها ؟

الواقع ان وقوف العرب بجانب بريطانيا ضد تركيا، يضطر الاتراك إلى حجز جزء من قواتهم العسكرية فى البلاد العربية بعيدا عن جبهات القتال الرئيسية، والى جانب ذلك فان قيام الثورة فى الجزيرة العربية يمكنه ان يفصل بين القوات العثمانية الرئيسية فى الشمال وبين القوات العثمانية فى جنوب الجزيرة خاصة فى اليمن وعسير يضاف الى ذلك أن المسلمين فى كافة انحاء العالم كانوا يدينون بالولاء للخلافة فى الدولة العثمانية، وان مركز الشرافه الدينى فى مكة يمكن أن يحول ولاء مسلمى الهند وغيرهم من الخلافة العثمانية الى الخلافة العربية، ومن الآستانه إلى مكة .

وعلى أى حال فقد أصبح مصير البلدان العربية بين شقى الرحى فهل يستغل العرب فرصة انشغال تركيا بالحرب ويثورون ضدها أم يقفون بجانبها ويحصلون على ثقتها الواقع ان الأمير فيصل كان من انصار الوقوف بجانب تركيا، وان السلامة كل السلامة فى التعاون مع الاتحاديين خاصة وان الاطماع الفرنسية فى سورية والانجليزية فى جنوب العراق كانت بادية للعيان على حين كان الأمير عبد الله يرى فى الثورة ضد الاتراك السبيل لتحقيق الأمانى العربية، ومن هنا حاول اقناع والده باستمرار المحادثات مع الانجليز، وخلال ذلك استقر رأى الشريف حسين على ضرورة كسب الوقت ومحاولة استطلاع آراء زعماء العرب فى شبه الجزيرة والشام للتعرف على مدى استعدادهم للثورة فجرت الاتصالات بين الشريف حسين وبين جيرانه العرب فاتصل بالادارسه فى عسير، وآل رشيد فى حائل وآل سعود فى الرياض والامام يحى بن حميد الدين فى اليمن، وخلال ذلك اكتشف ان الموقف فى شبه الجزيرة يشجع على الثورة [2] والى جانب ذلك فقد كانت هناك تيارات فى سوريا والعراق تدعو إلى الثورة ضد العثمانيين ونتيجة لذلك ارسل الشريف حسين ابنه فيصل لاجراءات الاتصالات مع الاحزاب العربية بالشام خاصة حزب العربية الفتاة والوقوف على وضع السوريين وحالتهم النفسية وقد حل الأمير فيصل ضيفا فى دمشق على "عطا الله باشا البكرى: الذى عقد "حزب العربية الفتاة" أول اجتماع فى بيته، وقد تأكد لفيصل فى هذا الاجتماع استعداد البلدان السورية للقيام بالثورة ضد الاتراك [3] كما اطلع اعضاء الحزب على نيه الثورة عند الشريف حسين وكانت نتيجة هذا الاجتماع التمهيدى الاتفاق بين الفريقين على القيام بثورة عامة فى وقت واحد تكون نتائجها انشاء دولة عربية كبرى تشمل الحجاز والعراق وسورية تحت لواء الشريف حسين [4] والى جانب ذلك فقد طلب زعماء جمعيتى العربية الفتاه والعهد من الأمير فيصل تسليم والده المخطط الذى يوضح

---

(1) سليمان موسى: مرجع سابق ص٦٧.

(2) من المعروف ان اليمن اعلنت ولاءها للعثمانيين.

(3) مذكرات الملك عبد الله ص١٤١

(4) فيصل بن الحسين فى خطبه واقواله ص٣٩-٤٠

حدود البلدان العربية فى آسيا والتى يجب أن يدور على اساسها الحوار مع الانجليز وقد عرفت هذه الافكار باسم "بروتوكول دمشق" وقد نص فيها على ان حدود البلاد العربية التى يجب أن تعترف بريطانيا باستقلال العرب فيها تتمثل فيما يلى :

فى الشمال من خط مرسين أطنه إلى خط عرض ٣٧شمالا، ومنه على طول الخط بيرجيك -أورفة - ماردين - مديات وجزيرة ابن عمر - عمادية حتى حدود فارس. وفى الشرق تتمثل فى الحدود مع ايران حتى الخليج، وفى الجنوب المحيط الهندى باستثناء عدن، وفى الغرب البحرين الأحمر والمتوسط حتى مرسين، والغاء الامتيازات الأجنبية، وعقد تحالف دفاعى بين بريطانيا والدول العربية المستقله ومنح بريطانيا الافضلية فى الشئون الاقتصادية وقد حمل الأمير فيصل هذه الشروط الى والده فى يونيو ١٩١٥، ولم تمر اسابيع قليلة حتى بدأت المراسلات المعروفة بمراسلات الحسين مكماهون، والتى هدف الانجليز من ورائها اشعال الثورة العربية ضد الاتراك وقد ارسل الشريف حسين مذكرته الى السير هنرى مكماهون فى ١٤يوليو ١٩١٥ موضحا المقترحات العربية ودارت الاتصالات بينها وقد قطعت بريطانيا على نفسها من خلالها وعدا بالعمل على استقلال البلدان العربية إلا أنها أعربت عن بعض التحفظات على هذه الحدود خاصة بالنسبة لمرسين والاسكندرونة واجزاء من بلاد الشام فذكرت أن لها مصالح فى جنوب العراق لاينبغى أهمالها كما أن لفرنسا مصالح فى بعض المناطق بسورية وفيما عدا ذلك فان بريطانيا على استعداد للاعتراف باستقلال العرب وتأييده وتقديم كافة المساعدات اللازمة لتحقيق ذلك ، .

وطالت المفاوضات بين الطرفين دون أن يتمكن الحسين من الحصول على ضمانات كافية من الانجليز .واستقر الامر على أن يقوم الشريف حسين بالثورة على الاتراك والانضمام إلى الانجليز وحلفائهم فى نظر أن تتعهد بريطانيا بسيادته على البلدان العربية من جبال طوروس شمالا حتى المحيط الهندى جنوبا ، وألا تعقد بريطانيا صلحا مالم يشمل شروطا تتضمن ذلك . ونتيجة لذلك بدأ الحسين يمهد للثورة على العثمانيين فأرسل ابنه فيصل إلى دمشق لاثارة الأهالى واشعال نار الثورة ضد الاتراك وذلك بناء على إشارة منه بعد أن يهيئ الأمر لاعلان ثورته فى الحجاز .

وقد حدد يوم السبت العاشر من يونيو ١٩١٦ موعدا لبدء الثورة فى مكة ، فاطلق الشريف حسين بنفسه فى ذلك اليوم الرصاصة الأولى على قلعة الاتراك فى مكة ايذانا باعلان الثورة ، وتمكنت قواته فى فترة وجيزة من تثبيت اقدامها فى الحجاز ، واجبار القوات التركية الموجودة هناك على الاستسلام باستثناء المدينة المنورة التى ظلت بها الحامية التركية حتى أواخر الحرب تقريبا وعلى الرغم من محاولات الاتراك استرجاع مكة المكرمة فانهم فشلوا فى ذلك .

وقد شرح الحسين موقفه فى بيانه الأول الذى ناشد فيه المسلمين جميعا بالثورة على الاتراك مستندا فى ذلك إلى العاملين القومى والدينى فندد بارهاب الاتحاديين وتعليقهم المشانق فى بلاد الشام كما هاجمهم لخروجهم على الاسلام وبذلك عطل الدعوة إلى الجهاد التى اذاعها الاتراك فى البلاد العربية ، كما ناشد الشريف حسين العرب بمساندة القوات البريطانية فى مجهوداتها بحجة أنها تعمل على تحرير بلادهم من الحكم التركى [1] .

وبايعاز من الشريف حسين نفسه نودى به ملكا على البلاد العربية فى ٢ نوفمبر ١٩١٦ ، ولكن الحلفاء لم يعترفوا له بهذه الصفة ، بل اعترفوا به ملكا على الحجاز فقط حتى لايتعرضوا لغضب أمراء

[1] انطونيوس : المرجع السابق ص ٢٣٢ ، ٢٥١ .

العرب الآخرين .

وعلى أى حال فقد نجح فيصل بن الحسين فى اعداد قواته للقتال ، واجتذاب العديد من القبائل اليه مما مكنه من نسف سكة حديد الحجاز بين معان والعقبة واحتلال ينبع والزحف شمالا والاستيلاء على العقبة ثم التقدم شمالا لمحاربة الاتراك فى منطقة شرق الاردن وبذلك قدم للحلفاء مساعدات هامة . هذا فى الوقت الذى تمكن فيه الانجليز من دخول العراق ، ونجاح اللورد اللنبى فى احتلال القدس ثم دخول القوات العربية منتصرة إلى دمشق فى أول اكتوبر ١٩١٨ ورفع اعلامها فوق اسوار مبانيها الحكومية وذلك قبل دخول القوات البريطانية بقيادة اللنبى اليها ثم زحفها شمالا والاشتباك مع الاتراك ، ونجاحها فى دخول حمص وحلب وحماه ، وتخليص كل البلاد السورية فى الحكم العثمانى .

اتفاقية سايكس بيكو :-

وفى الوقت الذى كانت فيه بريطانيا تفاوض العرب طالبة معونتهم لها فى مقابل مساعدتها لهم فى الحصول على استقلالهم كانت تتبع فى ذلك الوقت سياسة ذات وجه آخر حيث كانت تخطط مع فرنسا وروسيا لاقتسام أملاك الدولة العثمانية واستعمارها حيث أعد المفاوض البريطانى " مارك سايكس " Mark Sykes عضو مجلس العموم والذى اشتهر بتضلعه فى شئون الشرق ورحلاته فى معظم انحاء الدولةالعثمانية - والمفاوض الفرنسى " جورج بيكو " - الذى كان قنصلا عاما لدولته فى بيروت خلال الاعوام التى سبقت الحرب - مشروعا حددا فيه مصير الممتلكات العثمانية فى آسيا والمناطق التى تعتبرها كل من الدولتين منطقة نفوذ لها . ولما كانت لهذه التسوية أهمية مباشرة لروسيا فقد انتقل سايكس وبيكو إلى بتروجراد فى مارس ١٩١٦ للحصول على موافقة الحكومة الروسية [١] .

وقد انتهت هذه المباحثات بتلك الاتفاقية المعروفة باسم اتفاقية سايكس بيكو أو الاتفاقية السرية الانجليزية الفرنسية الروسية ، والتى تنص على تحديد المناطق العثمانية التى تعتبرها كل من هذه الدول الثلاث منطقة نفوذ خاصة بها وتضمنت مايلى :-

١- استعداد بريطانيا وفرنسا للاعتراف بدولة عربية مستقلة تشمل بعض مناطق العراق وشرق الاردن وقطاع دمشق أو اتحاد من الدول العربية يؤلف من الاراضى الداخلية بين العراق والشام بحيث يكون الأفضلية للدولة صاحبة العلاقة بها فى النواحى الاقتصادية .

٢- تحصل فرنسا على القسطنطنية والأراضى الواقعة حول البسفور وجزء من شرق الأناضول بجوار الحدود الروسية .

٣- تحصل فرنسا على سورية ولبنان مع جزء كبير من جنوب الاناضول بما فى ذلك ولاية " أطنه " " ومرسين " " والاسكندرونة " هذا بالاضافة إلى منطقة الموصل فى شمال العراق .

٤- تحصل بريطانيا على المنطقة الممتدة من شرق الاردن حتى العراق حيث تدخل بغداد والبصرة ، وجميع البلاد الواقعة بين منطقة الخليج ضمن مناطق نفوذها كما تحصل على ميناءى حيفا وعكا فى فلسطين .

٥- تنشأ ادارة دولية فى فلسطين يحدد شكلها بالاتفاق مع ممثلى الحلفاء وممثلو شرق مكة [٢]

[١] مصطفى ماهر وكمال رضوان : المانيا والعالم العربى بيروت ١٩٧٤ .

[٢] منسى : حركة اليقظة العربية فى الشرق الآسيوى ص ٣٥٠ .

وبمراجعة نصوص هذه الاتفاقية يتضح مايلى :-

١- ان اتفاق سايكس بيكو جاء مناقضا تماما لاتفاق الحسين مكماهون مما يؤكد ازدواجية السياسة البريطانية والتوائها.

٢- ان هذا الاتفاق كان بمثابة وثيقة وليدة للأطماع الاستعمارية فى أبشع صورها ، كما أنه كان مثالا بارزا للمخاتلة ونكث العهود .

٣- ان هذا الاتفاق قسم منطقة الشرق العربى الأسيوى بطريقة تهدف إلى اقامة العقبات فى طريق وحدته كما انه وضع المناطق الأكثر رخاء وتقدما فى سورية والعراق تحت السيطرة الأجنبية ، بينما سمح للمناطق الداخلية فقط بأن يقام فيها دولة عربية تتمتع بقدر من الحكم الذاتى .

والغريب فى الأمر أن العرب لم يعلموا بأمر هذه الاتفاقية عند توقيعها بل ظلت سرية حتى قامت الثورة البلشفية فى روسيا ، ونشرت جريدتا الأوزفستيا والبرافدا نصوص هذه الاتفاقية فى ٢٣ نوفمبر ١٩١٧ وقد بادرت تركيا إلى استغلال الفرصة فارسلت نص الاتفاق إلى الشريف حسين بن على ، وطالبته بالعودة إلى جانب العثمانيين بعد أن انكشف غدر الانجليز والفرنسيين للعرب ، وعقد صلح بين العرب والترك .

وبعد أن وصل نبأ الاتفاق إلى الشريف حسين ظهر عليه الاضطراب والانفعال ، وطلب تفسيرا له من المندوب السامى البريطانى الذى عمد إلى التضليل فلم يؤكد صحة ما اذيع حول الاتفاق أو ينكره بل اقنع الشريف حسين بأن هذا الاجراء من جانب تركيا مثالا جديدا للدسائس بينهما غايته اثارة النفور بين العرب والحلفاء [1] وأن كل مافى الامر ان " الوثائق التى وجدها البلاشفة فى وزارة الخارجية فى بتروجراد لاتؤلف اتفاقية عقدت بالفعل ، ولكنها تسجيل لرسائل ومحادثات مؤقتة تبودلت بين بريطانيا العظمى وفرنسا وروسيا وانها اجريت فى الأيام الأولى للحرب وقبل الثورة العربية [2]

ونتيجة لذلك استمر الحسين فى تأييده لبريطانيا وحلفائها ضد الدولة العثمانية، معتقدا أن بريطانيا ستقف بجانبه إلا أن الامور قد اتضحت له بعد ذلك خاصة وان بوادر النصر بدأت تلوح فى جانب الحلفاء وهكذا كانت اتفاقية سايكس بيكو طعنة أليمة وجهتها بريطانيا إلى العرب الذين وقفوا بجانبها خلال محنتها.

تصريح بالفور :

لم تكن اتفاقية سايكس بيكو هى الطعنة الوحيدة التى وجهتها بريطانيا للعرب، بل وجهت اليهم طعنة اخرى تمثلت فى تصريح بالفور عام ١٩١٧ والذى وعد فيه اليهود بمساعدتهم على اقامة وطن قومى لهم فى فلسطين العربية ونص هذا التصريح عبارة عن خطاب موجه من وزير الخارجية البريطانى "آرثر جيمس بالفور" إلى اللورد روتشيلد يقول فيه "إن حكومة جلالة الملك تنظر بعين العطف إلى تأسيس وطن قومى للشعب اليهودى فى فلسطين وستبذل جهدها لتسهيل تحقيق هذه الغاية، على أنه يفهم بوضوح انه لن يؤتى بعمل من شأنه أن يغير الحقوق المدنية والدينية التى يتمتع بها الطوائف غير اليهودية

---

(١) انطونيوس : المرجع السابق ص ٢٨٤ - ٢٨٥ .

(٢) G. Antonius , The Arab Awakening p. ٢٥٧.

المقيمة الآن فى فلسطين، ولا الحقوق أو الوضع السياسى الذى يتمتع به اليهود فى البلدان الأخرى [1]
ويرجع اصدار هذا التصريح إلى الآتى : -

١- زيادة حدة التنافس بين بريطانيا وفرنسا من أجل السيطرة على فلسطين، وتحول اتجاه الحكومة البريطانية من مجرد الاهتمام الودى بالصهيونية والتشجيع شبه الرسمى إلى ما يقرب من التعهد والالتزام، ومن أجل ذلك ظهر وعد بلفور الذى مكن الطريق امام بريطانيا بعد انتصارها فى الحرب للمطالبة بأن تكون فلسطين من حصتها فى الغنائم حتى تتمكن من تنفيذ ذلك الوعد وأدى إلى ترحيب الصهاينة باقامة حكم بريطانى فى فلسطين وتأييدهم الفعلى للانجليز حتى يتمكنوا من تحقيقه .

٢- جهود حاييم وايزمان chaim weizman زعيم الصهاينه فى بريطانيا واستاذ الكيمياء فى جامعة مانشستر فى الحصول على وعد من بريطانيا بتحقيق وطن قومى لليهود فى فلسطين اعترافا من القادة الانجليز له بخدماته العلمية فى تحضير مادة الاستون التى تدخل فى صناعة الذخائر والمتفجرات .

٣- رغبة الحلفاء فى كسب ود اليهود الألمان إلى جانبهم حتى يحصلوا منهم على الاسرار الحربية لألمانيا، ويقومون بدور المخرب والمناوىء لاعداء بريطانيا.

٤- رغبة الانجليز فى توسيع حدة المشاكل بين العرب حتى لا يتمكنوا من النهوض فى اعقاب الحرب، مما أثار الحيرة والفزع فى نفوس العرب الذين فسروا الوعد على انه بمثابة انكار لحرية العرب السياسية فى فلسطين ونقضا للعهود التى قطعها الانجليز لهم، كما رأوا فى هذا التصريح اعتداء على جزء من اراضيهم وسلب حقوق أهلها وتسليمه للصهاينة.

كل ذلك أدى الى صدمة عنيفة وتزايد الشعور بالعداء للانجليز.

أحوال العالم العربى السياسية أثناء الحرب وفى أعقابها :

حدثت الحرب العالمية الأولى في الوقت الذى كانت فيه معظم البلدان العربية واقعة تحت الحكم الاستعمارى فقد كانت بريطانيا تحتل عدن منذ عام ١٨٣٩ وتسيطر على مشيخات وامارات الخليج العربى هذا بالاضافه إلى قيامها باحتلال مصر في عام ١٨٨٢ وكانت فرنسا تحتل الجزائر منذ ١٨٣٠ وتونس منذ عام ١٨٨١ومراكش منذ عام ١٩١٢ وكانت ايطاليا تحتل ليبيا منذ عام ١٩١١ أما عن بلاد الشام والعراق وشبه الجزيرة العربية فقد ظلت بعيدة حتى هذه الفترة عن الاستعمار الاوربى وان كان أهلها يئنون من نير الحكم التركى، ويعملون على التخلص منه، ونيل استقلالهم وبعد انتهاء الحرب وانتصار الحلفاء على المانيا وحلفائها خرج الاتراك من بلاد الشام والعراق والجزيرة العربية، وتأهبت قوات الثورة العربية للامساك بزمام الامور، فدخلت القوات العربية دمشق في ٣٠سبتمبر ١٩١٨وأعلنت فيها الحكومة العربية [2] ولكن انجلترا وفرنسا كانتا تبيتان للعالم العربى غير ماكان يتمناه، ولما كان مصير البلاد العربية بعد الحرب لايمكن تقريره إلا في مؤتمر الصلح المنعقد في فرساى فقد وصل زعماء العرب ومنهم الأمير فيصل بن الحسين الى هناك وظل يعلق الامال على تحقيق المطالب العربية في مؤتمر الصلح، والدفاع عن مصالح الأمة العربية

---

[1] منسي: تصريح بلفور ص٩٨ - ٩٩ .

[2] للتفاصيل انظر خيرية قاسمية : الحكومة العربية في دمشق ، بيروت ١٩٨٢،ص٤٦ .

العرب ومؤتمر الصلح :

وصل الأمير فيصل بن الحسين إلى باريس في يناير ١٩١٩ على رأس الوفد الحجازى في مؤتمر الصلح فوجد أن هناك ثلاث عقبات تعترض الأمانى العربية وهى:

١-اطماع بريطانيافى فلسطين والعراق

٢-أطماع فرنسا في سورية

٣- الأطماع الصهيونية في فلسطين

أمابالنسبه للجزيرة العربية فقد كانت تقريبا بمنأى عن هذه الأطماع اللهم حرص بريطانيا على الاحتفاظ بمحمياتها في الخليج وإلى جانب هذه العقبات فقد كان الفرنسيون لايريدون الاعتراف بالأمير فيصل بحجة انهم لم يعترفوا بالحجاز كدولةمستقلة، كماانهم يعترضون على تدخله في أمور البلاد السورية.ونظرا لتعقد الأمور سافر الأمير فيصل إلى لندن للبحث عن مخرج فاستقبل هناك بترحيب كبير، ولكنه فوجىء بأن اتفاق سايكس بيكو كان حقيقة وبأنه ليس في خيال الروس كما ردد الانجليز من قبل. وبعد مشاورات ومداولات سمح للأمير فيصل بدخول مؤتمر الصلح، وحجز مقعدين للحجاز فشارك بمذكرة وجهها إلى اعضاء المؤتمر طالب فيها الاعتراف باستقلال وسيادة الشعوب العربية القاطنة في آسياواستند في ذلك إلى مبادىء الرئيس الامريكى ولسون في حق الشعوب في تقرير مصيرها بنفسها كما اعترض على مشروع تقسيم البلاد العربية ووصف الانتداب عليها بأنه مخل بالأمن العام في الشرق كله وطالب بتعيين لجنة امريكية بريطانية فرنسية وعربية للنظر في المسائل المتعلقة بالجلاء ، واستطلاع رأى الأهالى ورغباتهم حول تقرير مصيرهم [1]

وقد وافق المؤتمر على اقتراح فيصل بارسال لجنة دولية إلى بلاد الشام ، ونظرا لرفض فرنسا وبريطانيا الاشتراك في هذه اللجنة ، وتحمس الرئيس الامريكى " ولسن " لها أرسلت الحكومة الامريكية لجنة " كنج كراين [2] " للتعرف على رغبات العرب ومطالبهم . وقد بدأت اللجنة أعمالها فدخلت دمشق واجتمعت بذوى الشأن فيها ، كما اخذت في استقصاء الامر ، فوجدت أن هناك شبه اجماع على طلب الاستقلال . وخلال ذلك وتأكيدا للرغبة في استقلال بلاد الشام عن النفوذين الفرنسى والبريطانى تقدم بعض زعماء الشام باقتراح الى الأمير فيصل مؤداه تشكيل مجلس وطنى واجراء انتخابات عامة حتى يثبت السوريون أمام اللجنة الامريكية أمانيهم وآمالهم لتقدمها اللجنة الى مؤتمر السلام [3] . ونتيجة لذلك اجتمع فى دمشق في مارس ١٩٢٠ المجلس الوطنى الذى أصبح يعرف بالمؤتمر السورى العام والذى أصدر عدة قرارات تتركز في :-

١-اعلان استقلال سوريا ولبنان والأردن كدولة واحدة على أن يكون نظام الحكم فيها ملكيا دستوريا ، وتنصيب الأمير فيصل بن الحسين ملكا عليها .

٢- اعلان استقلال العراق والمناداة بالأمير عبد الله بن الحسين ملكا عليها .

٣- رفض اتفاقية سايكس بيكو ، ووعد بلفور وكل مشروع يهدف إلى تقسيم بلاد الشام وانشاء دولة يهودية فى فلسطين .

---

(1) ذوقان قرقوط : المشرق العربى في مواجهة الاستعمار قراءة في تاريخ سوريا المعاصر ص٨٥.

(2) نسبه إلى هنرى كنج ، وشارلس كراين .

(3) كامل الغزى : نهر الذهب في تاريخ حلب حـ٣ دمشق ، ص٧٣٥ .

٤- رفض نظام الانتداب الذى يعطى لبريطانيا وفرنسا حق الوصاية السياسية على البلاد العربية .

٥- مناشدة الرئيس الأمريكى ولسن بالوقوف في وجه الممارسات الاستعمارية ضد البلاد العربية .

وعلى الرغم من ذلك فان هذه القرارات لم تأت بالنتائج المرجوة خاصة وأن الجيوش الانجليزية كانت تحتل العراق وفلسطين ، كما كانت تسيطر الجيوش الفرنسية على شواطىء الشام ، وإلى جانب ذلك فان قرارات لجنة كنج كراين بعدالة الأمانى القومية للعرب ، وتوصيتها بوحدة سورية تحت رئاسة الأمير فيصل قد ذهبت ادراج الرياح وأخذت كل من انجلترا وفرنسا فى تدبير المؤامرات لسلب العرب حقوقهم والمساومة على اقتسام سورية والعراق فيما بينهما [1] فابلغت الحكومة الانجليزية الأمير فيصل باتفاقها مع فرنسا وطالبته بالسفر إلى باريس لمشاورة الحكومة الفرنسية في المطالب العربية ، وقد قابل الأمير فيصل الرئيس الفرنسى كليمنصو ، وعقد معه اتفاقا عارضه أهالى الشام وواجهوه بثورة عارمة . ولما لم يجد الحلفاء بدا من كشف النقاب عن مؤامرتهم ومصارحة العرب بما يدور فيما بينهم اجتمع المجلس الأعلى للحلفاء في " سان ريمو " في ٢٥ ابريل ١٩٢٠ وقرر وضع العراق تحت الانتداب البريطانى ، بالاضافة إلى فلسطين مع تنفيذ وعد بلفور ، وكذلك وضع سورية ولبنان تحت النفوذ الفرنسى مما أدى إلى استياء الشعور العربى ، وازدياد الكراهية للدول الأوربية .

وهكذا أنشب الانجليز والفرنسيين مخالبهم في العراق والشام هذا بالاضافة إلى نكث بريطانيا بوعودها للمصريين فانكرت عليهم حقهم في الحرية والاستقلال بعد أن اعترف مؤتمر الصلح بالحماية االبريطانية على مصر . وبذلك دخل العرب مرحلة جديدة من تاريخهم تتسم بالكفاح ضد الاستعمار الأوربى وأطماعه .

---

[1] نجيب الأرمنازى : سورية من الاحتلال حتى الجلاء ، بيروت ص١١ .

الموضــوع الثالث عشر

الدولة العثمانية خلال الحرب الأولى وظهور أتاتورك

دخلت الدولة العثمانية غمار الحرب الأولى فى عام ١٩١٤م إلى جانب دول الوسـط المكونة من ألمانيا والنمسا والمجر ضد دول الحلفاء المكونة من بريطانيا وفرنسا والروسيا وإيطاليا . ويرجع أسباب انضمام العثمانيين بجانب ألمانيا إلى ما يلى :

١ - إن صفحتهم كانت بيضاء مع العثمانيين بعكس بريطانيا وفرنسا وروسيا وإيطاليا التى اقتلعت أجزاء من أراضى الدولة العثمانية ، ومزقـت إمبراطوريتـها[١] واستهدفت تمزيق أركانها ، وضرب الشعوب الإسلامية عَقَديًّا واقتصاديا . فروسـيا القيصرية كانت ترمى إلى تمزيق تركيا وتعمل على انتزاع مضيق الدردنيل الذى يربـط البحـر الأسود بالبحر المتوسط منها ، كما كانت تسعى للاستيلاء على استنبول . وبريطانيـا كانت تعمل على انتزاع العراق وفلسطين من تركيا ، وتوطيد أقدامها فـى مصـر[٢] وفرنسا كانت تريد بجانب استيلائها على الجزائر وتونس ومراكش الاستيلاء علـى الشام ، أما إيطاليا فبعد استيلائها على ليبيا فإن تطلعاتـها تجـاه ممتلكـات الدولـة العثمانية لم تتوقف .

٢ - تزايد المصالح الألمانية داخل الدولة العثمانية بشكل كبير خلال العقـود القليلـة التـى سبقت وقوع الحرب فكانت هناك قروض ألمانية ، وسكة حديد برليـن بغـداد التـى يتولى الألمان تنفيذها ، كما كان تحديث الجيش الألمانى يتم على أيدى خبراء من الألمان

١- عمر الديراوى : الحرب العالمية الأولى ، بيروت ، دار العلم للملايين ، الطبعة الثامنة ١٩٨٢ ص١٢٨ .

٢- هيئة من اللجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفيتى : تاريخ الحزب الشيوعى فى الاتحاد السوفييتى (حزب البلشفيك) ، بيروت ، منشورات الفارابى ، ١٩٥٤ ص٢٣٢ .

وبتسليح ألمانى[1] مما هدد سيطرة إنجلترا على منطقة الشرق الأدنى .

٣ - عروض ألمانيا المتعددة لحل مشاكل الدولة العثمانية جعل العديد من أعضاء الـــوزارة العثمانية يميلون إليها ويرغبون فى الوقوف بجانبها[2] .

٤ - إقحام أعضاء الاتحاد والترقى للدولة العثمانية فى حرب ليس لها فيها ناقة ولا جمل .

ومع أن الحكومة الإنجليزية قد بذلت جهودها لضمان حياد تركيا خشية انضمامها إلى ألمانيا وذلك بتقديم التزامات تتضمن استقلالها وعدم تجزئتها[3] ، فإن الحزب الحـــاكم فـــى تركيا كان يريد الانضمام إلى جانب ألمانيا .

ولكى تكسب الدولة العثمانية الوقت الذى يمكنها من الاستعداد لدخول الحرب بـــدأت فى مماطلة الحلفاء فى الرد على مطلبهم بخصوص الوقوف علـــى الحيـــاد فـــى الحـــرب ، وعرضت عليهم شروطها كى لا تنضم إلى الألمان ومنها :

١ - إلغاء الامتيازات الأجنبية فى أراضيها .

٢ - إعادة جزر الأرخبيل إلى السلطة العثمانية .

٣ - حل القضية المصرية .

٤ - وقوف بريطانيا وفرنسا ضد أطماع روسيا فى الدولة العثمانية .

وبعد ثلاثة أيام من تقديم هذه الشروط جاء رد الحلفاء كما يلى :

١ - يرى الحلفاء إمكانية إلغاء الامتيازات الأجنبية عدا الامتيازات القضائية التى يكون فـــى إلغائها مساس بحقوق الأجانب القاطنين فى ممتلكات الدولة العثمانية .

٢ - يرى الحلفاء أن يترك طرح مناقشة قضية جزر الأرخبيل إلى وقت ملائم .

٣ - ترك حل القضية المصرية إلى ما بعد الحرب ، حتى يمكن حلها بطريقة مرضية لجميـــع الأطراف .

١- عبد العزيز نوار وعبد المجيد نعنعى : التاريخ المعاصر - أوربا من الثورة الفرنسية إلى الحرب العالميـــة الثانيـــة ، بيروت ، دار النهضة العربية ١٩٧٣ ، ص٤٤٣ .

٢ - المجموعة التاريخية المصورة : تاريخ الحرب العظمى ١٩١٤-١٩١٨م جـ٦ ، تصريح لطلعت باشا وزير الداخليـة التركى تحت عنوان "موقف تركيا قبل إعلان الحرب" ص٢٢ .

٣- وليم لانجر : موسوعة تاريخ العالم - ترجمة محمد مصطفى زيادة جـ٧ ، القـــاهرة ، النهضـــة المصريـــة ١٩٦٩ ص٢٣٩٢-٢٣٩٣ .

٤ – تعهد الحلفاء بتأمين سلامة الدولة العثمانية وتأييد استقلالها[١] .

وعلى كل حال فبعد أن بدأت الدولة العثمانية فى استكمال استعداداتها حيث قامت بتعبئة نصف مليون جندى ، وتدريب حوالى ربع المليون[٢] ، أعلنت عن عزمها الاشتراك الفعلى فى الحرب إلى جانب دول الوسط ، كما أعلن السلطان العثمانى بصفته خليفة المسلمين الجهاد ضد الحلفاء فى كافة البلدان الإسلامية التى يسيطرون عليها ، وأصدر أوامره بمهاجمة الحلفاء فى الجبهات التالية :

١ – الجبهة القوقازية الأناضولية .
٢ – الجبهة البلقانية .
٣ – جبهة الخليج العربى والعراق وفارس .
٤ – جبهة قناة السويس والشام .
٥ – جبهة اليمن[٣] .

وقد قام الأتراك فى بداية الحرب بأعمال حربية باهرة بمساندة الألمان[٤] فقام الأسطول التركى بضرب الموانى الروسية على البحر الأسود ، كما بدأت القوات التركية فى صد الزحف الروسى على القوقاز ، والتقدم نحو روسيا فى محاولة لتطويق جيشها[٥]، كما حاولت التقدم تجاه قناة السويس .

ثم تطورت الأمور فى ربيع عام ١٩١٥ فتجمدت الجبهة الألمانية الفرنسية بعد أن توقفت ألمانيا عن محاولتها للاستيلاء على الأراضى الفرنسية نتيجة لعدم التمكن من تحقيق أى انتصار فعلى ، كما تعرض الروس لانكسار شديد ، يضاف إلى ذلك قيام الإنجليز بتركيز ضرباتهم على الجبهة التركية ومحاولتهم احتلال شواطىء الدردنيل[٦] ، واستمر القتال هناك عدة أشهر ولكى يتمكن الحلفاء من وقف الدعوة إلى الجهاد التى أطلقها السلطان العثمانى ، وتشتيت شمل الصف الإسلامى قام الإنجليز بالاتصال

١- المجموعة التاريخية : المرجع السابق جـ٤ تحت عنوان "الحلفاء يسترضون تركيا" ص٢٠-٢١ .
٢- المجموعة التاريخية : المرجع السابق جـ٥ مقال تحت عنوان "المعارك الحربية فى القوقاز" .
٣- نوار ونعنعى : المرجع السابق ص٤٤٨ .
٤- كارل بروكلمان : الإسلام فى القرن التاسع عشر- ترجمة نبيه فارس ومنير بعلبكى ، بيروت ، دار العلم للملايين ، الطبعة الثامنة ١٩٧٩م ص٦٠٣-٦٠٤ .
٥- المجموعة التاريخية : المرجع السابق جـ٥ مقال تحت عنوان "المعارك الحربية فى القوقاز" .
٦- أمين سعيد : ملوك المسلمين المعاصرون ودولهم جـ١ ، القاهرة ، مطبعة الحلبى ١٣٥٢هـ/١٩٣٣م ص٢١١ .

بالشريف حسين أمير مكة المكرمة ، وعرضوا عليه التعاون ضد الأتراك فى نظير وعودهم له بتخليص العرب من نير الحكم التركى[1] ، ونتيجة لذلك دخل الشريف حسين الحرب ضد الأتراك واستطاع الاستيلاء على معظم مدن الحجاز ، كما استطاعت جيوش الثورة العربية إحباط حملة تركية ألمانية اتجهت إلى الجزيرة العربية ، وحالت بينها وبين السيطرة على عدن[2] . أما عن جبهة العراق وفلسطين فقد كانت قدرات الأتراك على الصمود أمام الجيوش البريطانية محدودة ، خصوصا وأن الثورة العربية الكبرى كان لها أكبر الأثر فى الحد من قدرتهم على المواجهة حيث فصلت القوات التركية المتمركزة فى اليمن عن القوات الرئيسية فى الحجاز والشام وسقطت العقبة فى يد الإنجليز فى ٦ من يوليو ١٩١٧ . والقدس فى ٩ من ديسمبر ١٩١٧م ثم تلى ذلك سقوط دمشق وبغداد[3] .

وعن جبهة الدردنيل فقد ظلت الحرب مستعرة ، ولم تكمل الغلبة لواحد من الطرفين . وإن كان مصطفى كمال قد استطاع تملك زمام الموقف وتعبئة الروح المعنوية والقتالية لدى جنوده خصوصا بعد أن حل محل القائد الألمانى "ساندروس[4]" .

ونتيجة لخروج الدولة العثمانية من الحرب مكسورة الجناح ممزقة الأوصال فقد اتفق الحلفاء فى مؤتمر "سان ريمو" فى ابريل ١٩٢٠م على اقتسام البلدان العربية التابعة لتركيا فيما بينهم ، كما اتفقوا فى معاهدة "سيفر" على تقسيم أملاك الدولة العثمانية الأوربية فيما بينهم أيضا فأعطيت اليونان معظم أملاك الدولة العثمانية الأوربية عدا القسطنطينية وبحر مرمرة ، وجعلت القسطنطينية تحت وصاية لجنة دولية ، وأجبر السلطان العثمانى وحيد الدين على التوقيع على هذه المعاهدة[5] التى لو نفذت بنودها لكانت تركيا أثرا بعد عين مما جعل الرأى العام التركى يثور على السلطان وأدى إلى إبراز دور كمال أتاتورك ورجاله الذين تمكنوا من دحر القوات اليونانية وتفريق شملها ، يضاف إلى ذلك أن الانجليز الذين أرادوا أن يجعلوا من أتاتورك بطلا فى نظر الشعب التركى حتى يتمكن من القبض على زمام الأمور فى تركيا ويساعد على تحقيق مطالبهم انسحبوا فجأة وبطريقة مريبة من ساحل غاليبولى وتركت سفنهم الحربية مواقعها بسرعة

١- عبد العزيز نوار : تاريخ العرب المعاصر مصر والعراق ، بيروت ، دار النهضة العربية ١٩٧٣ ص٨٥ .

٢- زاهية قدورة : تاريخ العرب الحديث ، بيروت ، دار النهضة العربية ١٩٧٥ ص٢٥٢ .

٣- نوار ونعنعى : المرجع السابق ص٤٦٩ .

٤- دراجبرت فون ميكوش : مصطفى كمال المثل الأعلى - ترجمة كامل مسيحه - بيروت ، المكتبة الأهلية ، ١٣٥٢هـ/١٩٣٣م ص١٣٢-١٤٥ .

٥- نوار ونعنعى : المرجع السابق ص٤٩٠ .

مذهلة[١] مما أدى إلى استرداد الأتراك للعديد من المواقع وانتصار قوات أتاتورك[٢] . ونتيجة لذلك بدأ نجم أتاتورك فى البزوغ وبدأ الناس يتحدثون عن شجاعته وبطولته ، وانتهى الأمر بعقد معاهدة لوزان ١٩٢٣م التى أبقت لتركيا الأناضول وأدرنة والقسطنطينية وأخرجت ما بيدها من البلدان العربية[٣] .

وفى أعقاب ذلك أعلن مصطفى كمال فصل السلطنة عن الخلافة ثم قام بانقلاب ضد السلطان وحيد الدين ، وعزله بالقوة وأحل محله خليفة عثمانى آخر وهو السلطان عبد المجيد بن عبد العزيز فى عام ١٣٤٠هـ الموافق ١٧ من نوفمبر ١٩٢٢م ، وفى أعقاب ذلك بدأ التخطيط لإلغاء الخلافة وإعلان علمانية الدولة ، فقرر مصطفى كمال إعلان الجمهورية ، وتم اختياره رئيسا لها[٤] . وفى عام ١٣٤١هـ الموافق أول مارس ١٩٢٤م قام مصطفى كمال بدعوة المجلس الوطنى ، وتقرر فيه طرد الخليفة وإلغاء الخلافة ، وفصل الدين عن الدولة ، والأخذ بالقانون المدنى السويسرى ليكون بديلا عن القانون الإسلامى فى الأحكام الشرعية[٥] ، ونقل عاصمة الدولة إلى أنقره ، ونتيجة لذلك غادر السلطان عبد المجيد آخر خليفة عثمانى تركيا إلى سويسرا[٦] ، كما ألغيت الوظائف الدينية والشرعية ، وأصبحت الأوقاف ملكا للدولة مما أثار موجة عنيفة من السخط والغضب فى كافة الأوساط الإسلامية .

وهكذا زالت الدولة العثمانية من الوجود ، وأصبحت أثرا بعد عين .

١- على حسون : الدولة العثمانية وعلاقاتها الخارجية ، بيروت ، المكتب الإسلامى ، الطبعة الأولى .

٢- دا جوبرت فون ميكوش : المرجع السابق ص١٣٧ .

٣- لوثروب ستودارد : حاضر العالم الإسلامى - ترجمة عجاج نويهض ، بيروت ، دار الفكر ، الطبعة الرابعة ١٣٩٤هـ ص٣٢٦-٣٢٧ .

٤- محمد محمد توفيق : كمال أتاتورك ، القاهرة ، دار الهلال ، ١٩٣٦ ص١٣٩ .

٥- محمود شاكر : مواطن الشعوب الإسلامية فى آسيا - تركيا ، بيروت ، مؤسسة الرسالة ص٥٤ .

٦- محمد توفيق : المرجع السابق ص١٤٠ .

الموضــوع الرابع عشر

الدولة العثمانية ما لها وما عليها

من المعروف أن لكل دولة مزايا تذكر لها ، ومــآخذ تسـجل عليـها وأن المـؤرخ الصادق هو بمثابة القاضى الذى يحكم بالحيثيات وشـهادة الشـهود ، لذلـك فليـس مـن الموضوعية إغفال مزايا الدولة العثمانية والاقتصار على تسجيل عيوبها أو العكس بل يجب على المؤرخ أن يتعرض للجانبين معا دون التحيز لهذا الجانب أو ذاك .

ومن المعروف أن تاريخ آل عثمان بما فيه من حسنات وسيئات هو فى الواقع يعـد حلقة من تاريخ المسلمين ، كما يعد مرحلة طويلة من مراحل تـاريخ العـرب الحديـث ولا سيما فى الشرق الأدنى[1] . فلم ينظر العرب إلى الدولة العثمانية على أنها دولة أجنبيـة أو مغتصبة أو مستعمرة لبلادهم إلا فى بداية القرن الحالى ، خصوصا وأن العثمانيين مسـلمون ، والدين السائد فى البلاد العربية هو الإسلام ، كما أن الدولة العثمانية حملت لواء الخلافـة الإسلامية بعد هزيمتها للمماليك فى موقعتى مرج دابق والريدانية ، ونقل الخليفة المتوكـل على الله آخر الخلفاء العباسيين من مصر إلى استنبول[2] .

وحتى تتضح الصورة حول إيجابيات وسلبيات الحكم العثمانى ينبغى أن نقسـم أدوار هذا الحكم إلى مرحلتين أساسيتين : مرحلة القوة . وهى المرحلة التى شيد فيها العثمـانيون دولتهم على أسس سليمة مكنتهم من فرض سيطرتهم على مناطق كبيرة فى آسيا وأوربـا وافريقية . وكانت نظرة العثمانيين خلالها لا تخلو من الشعور بالقوة والتفـوق علـى مـن عداهم من البشر ، وحيث كانوا يعتمدون فيها على موقف المؤمن من غير المؤمن المدعـم بتفوق عسكرى كاسح ، لذا فقد بنت الدولة العثمانية قواعدها على أنها دولة عسكرية وكـل أفرادها – حتى ولو كانوا من العلماء والشيوخ – يعد محاربا عند الحاجة ، وهـذه الفـترة يمكن أن تتوقف عنـد مـوت السـلطان سـليمان القـانونى ١٥٦٦م ومرحلـة الضعـف

١– محمد جميل بيهم: فلسفة التاريخ العثمانى جـ٢ ، بيروت ، ١٣٧٣هـ/١٩٥٤م ص٨ .

٢– للتفاصيل انظر محمد بن أحمد بن اياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور جـ٣ ، القاهرة ، المطبعة الكبرى ببولاق ، ١٣١٢هـ ص١٢٠ ، ص١٤٧ .

وهى التى تميزت بالهزائم العسكرية المتلاحقة التى برزت منذ هزيمة كارلويتز Karlovitz[1] 1699-1702م حيث اتضح من خلالها مدى تخلف القوات العثمانية عن ركب الحضارة الحديثة وعجزها عن رد كيد أعداء المسلمين[2] . ويمكن القول بأن هذه المرحلة استمرت حتى سقوط الخلافة .

ومن خلال هاتين المرحلتين يتضح أن السلاطين الأوائل من من آل عثمان كانت فى الواقع لهم أياد بيضاء فى رفع شأن الإسلام وما وصل إليه من عظمة وسؤدد وسيادة. كما تحمل الأواخر منهم مسئولية المصير المؤلم الذى آلت إليه الدولة فى عهدهم ، وأدى فى النهاية إلى انهيارها[3] .

فمن المعروف أن العثمانيين فى فتوحاتهم لأوربا نظروا إلى أنفسهم على أنهم مسلمون قبل كل شىء ، فكان ولاؤهم يتجه إلى الدين الإسلامى أولا[4] حيث كان الدين والدولة عندهم شيئا واحدا ، والقرآن والسنة هما المصدران الأصيلان فى أى تحرك منهم أو عليهم ، ومن هنا فتحوا للإسلام العديد من الأمصار التى لم يطأ إليها قدم مسلم من قبل[5] ، مما كان له أثر طيب فى نفوس المسلمين ، ففى القاهرة ودمشق كانت تقام الأفراح والزينات عقب كل انتصار يحرزه العثمانيون .

وقد اقترنت حركة الفتوحات العثمانية سواء فى الأناضول أم فى أوربا باسم الإسلام ومن هنا نظر الأوربيون إلى الفتوحات العثمانية على أنها فتوح إسلامية ، فباسم الإسلام واصل عثمان مؤسس الدولة العثمانية جهوده فى نشر الإسلام فى مناطق الثغور، وواصل عمليات الجهاد الإسلامى المنظم ضد الكيانات المسيحية المجاورة له .

وباسم الإسلام تمكن مراد الأول ثالث أمراء آل عثمان ٧٦٢-٧٩٢هـ/١٣٦٠-١٣٨٩م من دخول البلقان وتحقيق العديد من الانتصارات التى توجت بفتح مدينة

١- تنازلت بعدها الدولة العثمانية عن المجر وترنسلفانيا وبعض المناطق الأخرى لروسيا والنمسا وبولندا.

٢- سيد مصطفى : الإصلاح العثمانى فى القرن الثامن عشر - نقد حالة الفن العسكرى والهندسة والعلوم فى القسطنطينية ١٨٠٣م - تحقيق خالد زيادة ، بيروت المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، الطبعة الأولى ١٩٧٩م ص١١ .

٣- مجموعة من المؤلفين : عصر السلطان عبد الحميد الثانى وأثره فى الأقطار العربية ١٨٧٦-١٩٠٩م، دمشق ، المكتبة الهاشمية ، الطبعة الثانية د . ت ص٩ .

٤- عبد العزيز الشناوى : الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها جـ١ ، القاهرة ، الأنجلو المصرية ١٩٨٠م ص١٠ .

٥- ول ديورانت : قصة الحضارة - ترجمة عبد الحميد يونس ، جـ٤ من المجلد السادس ، القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ص١٠٩ .

"أدرنة" ١٣٦١م[١] وهزيمة القوى النصرانية ونقل العاصمة من بروسه إلـى أدرنـة التـى عمرت بالمساجد والمدارس وأصبحت نقطة انطلاق لمواصلـة الفتوحـات الإسـلامية فـى أوربا[٢] .

وباسم الإسلام استولى الجيش العثمانى على العديد من مدن شرق أوربا ومن أبرزهـا صوفيا عاصمة بلغاريا التى تم الاستيلاء عليها فى عام ٧٨٧هـ/١٣٨٥م[٣] .

وباسم الإسلام استمرت الفتوحات العثمانية فى البلقان وتساقطت مدنها أمام ضربـات العثمانيين ، ووصل العثمانيون إلى المورة وأخضعوها لحكمهم وأصبحت معظم بلاد البلقـان تحت الحكم العثمانى[٤] .

وباسم الإسلام فتح محمد الثانى القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطيـة فـى عـام ٨٥٧هـ/١٤٥٣م مصداقا للحديث الشريف "لتفتحن القسطنطينية فلنعم الأمير أميرها ولنعـم الجيش ذلك الجيش[٥]" ذلك الفتح الذى يعد نقطة تحول فاصلـة ليـس فقـط فـى تـاريخ العثمانيين[٦] بل وفى تاريخ الصراع بين النصرانية والإسلام فبعد هذا الفتـح المبيـن أمـر محمد الفاتح أن يؤذن فيها ، واتجه إلى القبلة وصلى كما حول كاتدرائية آيا صوفيـا إلـى مسجد وأطلق على القسطنطينية اسما إسلاميا جديدا وهو إسـلامبول[٧] بمعنـى عاصمـة الإسلام ، وبنى محمد الفاتح مسجدا كبيرا يحمل اسمه ، كما بنى عشرة مسـاجد أخـرى[٨] ألحق بها مدارس للتعليم ومستشفيات للفقراء ولم تتوقف جهود الفـاتح علـى ذلـك بـل استطاع القضاء على الإمارات المسيحية فى الأناضول ، وتحويـل آسـيا الصغـرى كلـها

١- أرنولد توينبى: تاريخ البشرية جـ٢ - ترجمة نقولا زيادة ، بيروت ، الأهلية للنشر ١٩٨٨م ص١٨٧.

٢- أحمد عبد الرحيم مصطفى: فى أصول التاريخ العثمانى ، بيروت، دار الشروق ، الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م ص٤٨-٥٠ .

٣- عبد الكريم رافق : العرب والعثمانيون ١٥١٦-١٩١٦م ، دمشق ، الطبعة الأولى ١٩٧٤م ص٣٤ .

٤- كارل بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية - ترجمة نبيه أمين فارس ومنير البعلبكى ، بيروت ، دار العلم للملايين ١٩٨٤م ص٤٢٧-٤٢٨ .

٥- ورد فى مسند أحمد ، وفى مستدرك الحاكم (حديث صحيح) وانظر أيضا جلال الدين السيوطى: الجامع الصغير فـى أحاديث البشير النذير ، المجلد الثانى ، بيروت ، دار الفكر ، الطبعة الأولى ١٤٠١هـ/١٩٨١م ص٤٠٢ رقم ٧٢٢٧.

٦- سيد مصطفى : المرجع السابق ص ٩ .

٧- حملت القسطنطينية على مر تاريخها أسماء عديدة منها استامبول واستانبول ودار السعادة ودار الخلافة والآستانة .

٨- منها مسجد "أبو أيوب الأنصارى" انظر دليل الآستانة ص٣ .

إلى مناطق عثمانية .

وباسم الإسلام شرع هذا السلطان ينفذ مشروعا خطيرا وهو الاستيلاء على روما مقر البابوية مقسما أن يقدم الطعام بيده إلى حصانه وهو واقف على مذبح الكنيسة البابوية فى روما مما أزعج العالم المسيحى كله الذى لم يتنفس الصعداء إلا بعد وفاة هذا القائد المسلم فى عام ٨٨٦هـ/١٤٨١م .

وباسم الإسلام تعددت مظاهر الطابع الإسلامى فى السياسة العامة للدولة العثمانية بدءا بالمراسيم التى كانت تتخذ عند تقليد السلاطين العثمانيين عرش السلطنة حيث كان السلطان الجديد يتسلم عرش السلطنة فى موكب رسمى يتجه إلى مسجد أبى أيوب الأنصارى ، ويتسلم فى جو دينى سيف الجد الأكبر للسلاطين العثمانيين السلطان عثمان الأول(١) .

وباسم الإسلام تردد فى القوانين العامة التى أصدرها السلاطين ، وفى مراسيم التنظيمات العثمانية ما يؤكد حرص الدولة على الظهور بمظهر المدافع عن الشريعة الإسلامية والمتبنى لأحكامها(٢) .

وباسم الإسلام استولى السلطان سليمان القانونى على بلجراد ورودس وبودابست ووصلت قواته إلى فينا آخر نقطة وصل إليها العثمانيون فى فتوحاتهم بأوربا(٣) .

وباسم الإسلام قدم السلطان العثمانى أبو يزيد الثانى ١٤٨٠-١٥١١ المعاونة للسلطان المملوكى قانصوه الغورى بعد تحطيم أسطوله فى موقعة ديو البحرية فأمده بالأسلحة والأخشاب اللازمة لبناء أسطول جديد . وتجهيز حملة أخرى لمواجهة البرتغاليين استنقاذا للأماكن الإسلامية المقدسة(٤) ، كما انضم إلى الأسطول المملوكى بعض البحارة والضباط من الأسطول العثمانى للوقوف معا ضد البرتغاليين(٥) .

وباسم الإسلام أوقفت الدولة العثمانية المخطط الصليبى الذى كان يستهدف دخول البرتغاليين البحر الأحمر ، والاستيلاء على جدة والزحف على مكة المكرمة لهدم الكعبة

١- كارل بروكلمان : الأتراك العثمانيون وحضارتهم ، بيروت . ١٩٤٩ ص٤٦ .

٢- أحمد فهد الشوابكة : حركة الجامعة الإسلامية ، الزرقاء ، الأردن ، الطبعة الأولى ١٩٨٤م/١٤٠٤هـ ص١٤ .

٣- أحمد محمود الساداتى: تاريخ الدول الإسلامية بآسيا وحضارتها ، القاهرة ، دار الثقافة للطباعة والنشر ١٩٧٩م ص٢٥٥ .

٤- ابن اياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، جـ٤ ص٢٠١-٢٠٣ .

٥- محمد عبد المنعم الراقد: الغزو العثمانى لمصر ونتائجه على الوطن العربى ، القاهرة ، مؤسسة شباب الجامعة ص١٢٣-١٢٥ .

المشرفة ، ثم مواصلة الزحف منها على المدينة المنورة لنبش قبر الرسول صلى الله عليه وسلم ومواصلة الزحف إلى تبوك وصولا إلى بيت المقدس حيث المسجد الأقصى وقبة الصخرة ، فقامت الدولة العثمانية بوضع خطة جديدة تمثلت فى اتخاذ الموانى اليمنية – خصوصا عدن – خط دفاع لمهاجمة المراكز البرتغالية فى الهند ، والدفاع عن سواحل البحر الأحمر ، كما استطاعت دحر الأسطول البرتغالى بالقرب من جدة عام ٩٢٣هـ ، وتحطيم كل المحاولات التى بذلها البرتغاليون لتكوين جبهة مسيحية ، وذلك بالتحالف مع الأحباش ضد القوى الإسلامية فى البحر الأحمر وشرقى افريقية[١] .

وباسم الإسلام قامت الدولة العثمانية بتوحيد أقطار العالم الإسلامى فى إطار سياسى واحد ، وتأليف جبهة إسلامية واحدة بعد أن كانت كيانات متنافرة ، وتكاد تكون متباعدة بين بعضها منذ أن تلاشت الوحدة الإسلامية نتيجة ضعف الخلافة وسقوطها فى عام ٦٥٦هـ على يد المغول[٢] ، وأصبحت رابطة الدين هى الرابطة الأساسية بين البلاد العربية بعضها مع بعض وبين الدولة العثمانية .

وباسم الإسلام اهتمت الدولة العثمانية بأمور الحجاز – وكان من أبرز مظاهر ذلك هو اهتمامها بالأماكن الإسلامية المقدسة – حيث به قبلة المسلمين ، ومهبط الرسالة ، ومنزل الوحى ، وملتقى قلوب المسلمين فقد أمر السلطان سليم الأول بوضع ثلث ما كان يجبى من مصر للإنفاق على خدمة الحرمين الشريفين ، كما أضاف لهذه المهمة أيضا خراج اليونان مما أضفى على البلاد الحجاز مركزا دينيا مرموقا ، كما أولت الدولة العثمانية قوافل الحج والاشراف عليها ، وتيسير الحج أمام الراغبين فيه اهتماما خاصا فاهتمت بالطرق ، وحفرت الآبار على طول طرق الحج ، وأقامت المخافر ، وكانت تشرف على قواعد الحج الرئيسية التى كانت تخرج من كافة أنحاء الدولة فى مواعيد محددة[٣] .

وباسم الإسلام تدخلت الدولة العثمانية لنجدة أهالى الخليج العربى الذين طلبوا منها المعاونة فى عام ٨٥٧هـ/١٥٥٠م لمواجهة الخطر البرتغالى على بلادهم ، فبعث السلطان سليمان القانونى بحملات منظمة من السويس إلى الخليج العربى لمعاونة إخوانه فى الإسلام ، وسار على نهجه بقية السلاطين من بنى عثمان حتى عام ٩٨٩هـ/١٥٨١م

١- الشناوى : المرجع السابق جـ١ ص٢١ .

٢- رأفت الشيخ : تاريخ العرب الحديث ، القاهرة ، دار المعارف ، الطبعة الأولى ١٩٧٥م ص٣١ .

٣- مركز البحوث والدراسات العربية والإسلامية : قدسية الحرمين الشريفين ، القاهرة ، هجر للطباعة والنشر ، مقال للدكتور الصفصافى المرسى تحت عنوان "قوافل الحج فى الدولة العثمانية" ص٦٣-٦٤.

واستطاعت هذه الحملات أن تنزل العديد من الهزائم بالبرتغاليين[1] .

وباسم الإسلام وقفت الدولة العثمانية ضد الأطماع البرتغالية وحالت دون تحقيقها فى أرض الإسلام وذلك بعد أن عجز المماليك وغيرهم من الوقوف أمام تهديدات البرتغاليين خصوصا بعد معركة ديو البحرية ١٥٠٩م فقامت بإغلاق البحر الأحمر فى وجه السفن النصرانية ، ولم يسمح لها بتسيير سفنها فى القسم الشمالى من البحر الأحمر ، أو بالإبحار فى هذا البحر فيما وراء ثغر المخا جنوبى الحديدة فى اليمن ، وكانت ذريعتها فى ذلك أن أهم الأماكن الإسلامية فى العالم على الإطلاق تقع فى الحجاز ، ويطل ساحل هذا الإقليم على البحر الأحمر ، لذلك يجب ألا تبحر منه غير السفن الإسلامية[2] ، وظلت الدولة العثمانية متمسكة بذلك الموقف حتى أواخر القرن الثامن عشر[3] ومعنى ذلك أن الدولة العثمانية قدمت أعظم خدمة للإسلام حيث وقفت فى وجه الزحف الصليبى البرتغالى للبحر الأحمر والأماكن الإسلامية المقدسة ، وكانت الملجأ للعالم الإسلامى وقت الملمات .

وباسم الإسلام تقدم العثمانيون لمساعدة عرب شمالى افريقية فى الصراع الصليبى مع الأسبان والبرتغاليين الذين حاولوا احتلال هذه الأقاليم وتحويلها إلى المسيحية فأعلن السلطان سليم الدعوة إلى الجهاد فى شمالى افريقية وأمر بتكوين كتائب المجاهدين[4] حتى استقرت الأمور للإسلام والمسلمين هناك .

وباسم الإسلام ساندت الدولة العثمانية أهالى طرابلس فى مقاومة الخطر الصليبى على بلادهم بعد أن أرسلوا إلى السلطان سليمان القانونى يلتمسون منه التدخل لإنقاذهم لتحرير بلادهم من الأسبان الذين استولوا عليها[5] وفرسان القديس يوحنا الذين استهدفوا تغيير الوجه الإسلامى لبلادهم . وقد أرسل السلطان سليمان قواته للمحافظة على هذه البلاد العربية الإسلامية[6] حتى استقرت الأمور هناك .

١- نوال الصيرفى : النفوذ البرتغالى فى الخليج العربى ، الرياض ، دارة الملك عبد العزيز ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م ص١٤٤-١٤٥ .

٢- الشناوى : المرجع السابق جـ٢ ، ص٦٩٨-٦٩٩ .

٣- محمد أنيس : الدولة العثمانية والشرق العربى ، القاهرة ، الأنجلو المصرية ١٩٨٥ ص١٢٨ .

٤- عبد الكريم رافق : المرجع السابق ص٧٦-٧٧ .

٥- الشناوى : المرجع السابق جـ٢ ص٩٢٨-٩٢٩ .

٦- المجلة التاريخية المصرية : المجلد الخامس والعشرون ١٩٧٨ مقال للدكتور ناصر سعيدونى تحت عنوان "طبيعة الكتابات التاريخية حول الفترة العثمانية من تاريخ الجزائر ص١٤٩-١٥٠ .

وباسم الإسلام قام العثمانيون بملاحقة فرسان القديس يوحنا وطردهم من رودس[١] ثم من ليبيا عام ١٥٥١م وكذلك قيامهم بكسر شوكة الأسبان فى حوض البحر المتوسط الغربى[٢]

وباسم الإسلام وقفت الدولة العثمانية أمام زحف الصفويين الشيعة الذين تمكنوا من الاستيلاء على العراق ، ونشر المذهب الشيعى فى الأناضول ، وراحوا يحملون الناس قسوا على الدخول فى مذهبهم ، ولا يترددون فى إفناء مدن بأسرها ، والقضاء على العلماء والأعلام زرافات ووحدانا حين يرفضون الاستجابة لدعوتهم ، ويتمسكون بالمذهب السنى[٣] .

وكان من نتيجة ذلك قيام السلطان العثمانى سليم الأول بغزو فارس والالتقاء مع الصفويين بوادى جالديران[٤] فى أواخر عام ٩٢٠هـ/١٥١٤م فى معركة رهيبة استطاع فيها العثمانيون هزيمة الصفويين فى جالديران ودخول عاصمتهم تبريز[٥] فى ١٤ من رجب ٩٢٠هـ وضم ولايتى ديار بكر وكردستان إلى بلاده والاستيلاء على خزائن الشاه، والقضاء على المد الشيعى فى الأناضول[٦] والعمل على انحساره فى العراق ، وبذلك استطاع العثمانيون حماية المذهب السنى من خطر الزحف الشيعى الذى كان الشاه اسماعيل الصفوى يأمل فى نشره فى كافة أنحاء المشرق العربى والقضاء على المذهب السنى . ولم يكتف العثمانيون بذلك بل خاضوا العديد من المعارك مع الفرس دفاعا عن العراق الذى كان الفرس يتطلعون إليه دائما . ويرغبون فى صبغته بالصبغة الشيعية ولو بحد السيف[٧] . وبالرغم من أن ذلك كلفهم العديد من الرجال والعتاد[٨] فقد تمكنوا من حصر المذهب الشيعى فى فارس ، ولم يسمحوا بتسربه إلى البلدان العربية الواقعة تحت

١- ول ديورانت : المرجع السابق جـ٤ المجلد السادس ص١٢٧ .
٢- رأفت الشيخ : المرجع السابق ص٣٢-٣٣ .
٣- أحمد الساداتى : المرجع السابق ص١٥٢ .
٤- يقع بين بحيرة أرمية وتبريز بآذربيجان .
٥- الشناوى : المرجع السابق جـ٢ ص٩٦٤ .
٦- مما يذكر أن السلطان سليم قتل نحو الأربعين ألفا من الشيعة . انظر محمد فريد : تاريخ الدولة العلية العثمانية - تحقيق إحسان حقى ، بيروت ، دار النفائس ، الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م ص١٨٩ .
٧- عبد العزيز نوار : تاريخ العراق الحديث من نهاية حكم داود باشا إلى نهاية مدحت باشا ، القاهرة ، دار الكاتب العربى ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م ص٥ .
٨- الساداتى : المرجع السابق ص٢٥٥ .

سيطرتهم[1] ، وبذلك ظهر سلاطين الدولة العثمانية أمام العالم الإسلامى بمظهر المدافع عن الشريعة الإسلامية ، والحماة التقليديين للمذهب السنى .

وباسم الإسلام عد الأتراك أنفسهم حراسا لدولة الإسلام وقد دفعهم ذلك إلى الاحتفاظ بحاميات فى الأقاليم العربية التابعة لهم ، وإذا كان الجندى العثمانى لا يتميز بسرعة اندماجه مع الأهالى فإن طول مدة إقامة الحاميات العثمانية فى عدد من الأقاليم البعيدة عن عاصمة الدولة ، وخاصة فى شمالى افريقية كان يسمح بنوع من الاندماج والمصاهرة[2] .

وباسم الإسلام أصدرت الدولة العثمانية بعد فتحها لمصر فرمانا بمنع اليهود من الهجرة إلى سيناء على أساس أنها تضم الوادى المقدس طوى الذى كلم فيه الله سبحانه وتعالى موسى عليه السلام فقال تعالى: "وكلم الله موسى تكليما[3]" ، وقال : أيضا "ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه[4]" .

وسار سلاطين الدولة العثمانية على هذا المنوال حتى جاء الانجليز وسيطروا على مصر فى عام ١٨٨٢م فتغيرت الأوضاع[5] هناك .

وباسم الإسلام استولى العثمانيون على قسم كبير من الحبشة (١٥٢٩-١٥٤٢) فى المعركة التى دارت رحاها بينهم وبين القوات البرتغالية ، والتى قاتلت فيها القوات العثمانية إلى جانب المسلمين ، بينما قاتل البرتغاليون إلى جانب الأحباش وقد خرجت الحبشة من القتال وقد أصابها الدمار ونقص سكانها[6] .

وباسم الإسلام قام السلطان عبد الحميد الثانى بالدعوة إلى الجامعة الإسلامية خصوصا وأن مبعث ولاء المسلمين للدولة العثمانية كان دينيا ، حيث كانوا مكلفين شرعا بطاعة السلطان باعتباره الخليفة والأب الروحى للمسلمين ، ونائب رسول الله صلى الله

١- الشناوى : المرجع السابق جـ٢ ص٩٦٥ .

٢- جلال يحى : المغرب الكبير جـ٣ ، العصور الحديثة وهجوم الاستعمار ، بيروت ، دار النهضة العربية ١٩٨١م ص٧٠٠ .

٣- النساء : الآية ١٦٤ .

٤- الأعراف : الآية ١٤٣ .

٥- الشناوى : المرجع السابق جـ٢ ص٩٦٦ .

٦- توينبى : المرجع السابق جـ٢ ص١٨٩ .

عليه وسلم ، وعليهم أن يسمعوا له ويطيعوا[1] . ومن هنا رأى السلطان عبد الحميد الثانى استخدام هذا الولاء فى حماية البلدان الإسلامية من الأخطار التى تحيط بها ، وانقاذها من حالة التفسخ والركود الذى تغلغل بين أفرادها فدعا إلى جامعة إسلامية تجمع بين المسلمين مهما اختلفت لغاتهم وبلادهم .

وباسم الإسلام قام السلطان عبد الحميد الثانى بإنشاء سكة حديد الحجاز الذى يصل دمشق بالمدينة المنورة . وبذلك شهدت الأراضى الإسلامية المقدسة لأول مرة فى التاريخ "خطا حديديا" يخدم حجيج بيت الله الحرام ، ويوفر لهم الأمن والسرعة والراحة بعد أن كانوا يستخدمون قوافل الجمال ويتعرضون للعديد من المخاطر ، فكان ذلك أعظم هدية قدمها السلطان عبد الحميد للمسلمين[2] .

وباسم الإسلام وقف السلطان عبد الحميد الثانى ضد استيطان اليهود فى فلسطين ، فعندما عرض عليه هرتزل حل أزمته المالية فى نظير السماح لليهود بالاستيطان فى فلسطين[3] رفض طلبه وحسم الموقف معه بقوله "إنى لا أستطيع أن أتخلى عن شبر واحد من الأرض فهى ليست ملك يمينى بل ملك شعبى ، لقد ناضل شعبى فى سبيل هذه الأرض، ورواها بدمه ، فليحتفظ اليهود بملايينهم[4]" .

ولإحساس السلطان عبد الحميد بعدم توقف الضغوط اليهودية عليه بدأ يهتم بالأوضاع الإدارية فى بيت المقدس فجعلها متصرفية تابعة للباب العالى مباشرة بعد أن كانت تابعة لباشا دمشق ، كما عين محمد شريف رءوف باشا المشهور بشدته متصرفا على القدس[5] . يضاف إلى ذلك أن الدولة العثمانية حافظت على تقاليد الخلافة السابقة فى اعتمادها على القرآن كمصدر للتشريع وإن كانت تحيد عن بنوده فى بعض الأحيان[6] .

كل ذلك جعل العالم الإسلامى ينظر إلى أعمال العثمانيين على أنها مفخرة للإسلام والمسلمين .

هذا عن مشارب الدولة العثمانية فماذا عن مثالبها .

١- محمد شفيق غربال : تاريخ المفاوضات المصرية البريطانية جـ١ ، القاهرة ، النهضة المصرية ١٩٥٢م ص٢٠ .

٢- الشناوى : المرجع السابق جـ٣ ص١٣٢٥-١٣٢٦ .

٣- الشناوى : المرجع السابق جـ٢ ص٩٨٨ .

٤- عبد الحميد الثانى : مذكراتى السياسية ، بيروت ، مؤسسة الرسالة ١٤٠٢هـ ص٢٤ وما بعدها .

٥- سيد مصطفى : المصدر السابق ص١٠ .

٦- الشناوى : المرجع السابق جـ٢ ص٩٧٥-٩٧٩ .

الواقع أن هناك العديد من المآخذ التى أخذت على العثمانيين مثل عدم نجدتهم لأهل الأندلس خلال سقوط غرناطة . ونظام الحكم العثمانى سواء فى داخل مقر السلطنة أو فى الولايات العربية ، وضعف اللغة العربية وضياع هيبة العلماء ، والمآسى التى ارتكبت فى أواخر الحكم العثمانى ضد العرب خصوصا بعد ظهور النعرات القومية كالطورانية أو غيرها وفيما يلى نعرض لذلك :

١ - عدم نجدة أهل الأندلس خلال محنتهم :

تتحمل الدولة العثمانية بصفتها أكبر دولة إسلامية وقت سقوط الأندلس مسئولية عدم تقديم النجدة للغرناطيين الذين ناشدوها مساعدتهم عسكريا فى صراعهم من أجل البقاء، والمحافظة على الدين والملة ، فقد أرسل أهل غرناطة فى منتصف عام ١٤٧٧م إلى السلطان محمد الفاتح يناشدونه التدخل لإنقاذهم ولكنه كان مشغولا عنهم[١] ، كما استنجد الغرناطيون بالسلطان بيازيد الثانى ١٤٨٠-١٥١١م ولكنه لم يقدم لهم النجدة[٢] .

٢ - التنازع على وراثة العرش وتنافر الأسرة المالكة العثمانية :

إن نظام التوارث على العرش يكون له أثر كبير فى استقرار أمور الدولة إذا بنى على أسس ثابتة ومعروفة ، أما فى الدولة العثمانية فإن هذا النظام كان فى حاجة إلى انتظام ففى الفترة الأولى من عصر السلاطين كان نظام الوراثة يقوم على أساس انتقال االعرش من الابن البكر إلى الأكبر فالأصغر من الأبناء ، وهكذا فإن اخوة السلطان وأبناءهم الذين يخرجون من السلطة بمقتضى هذا النظام كانوا كثيرا ما يغتنمون الفرص للخروج على السلطان أملا فى استخلاص العرش لأنفسهم ، يقابل ذلك أن السلطان القائم كان يفقد الثقة باخوته ولا يتورع عن الفتك بهم ، ثم عدل نظام الإرث فى عهد السلطان الرابع عشر أحمد الأول ١٦٠٣-١٦١٧م فأصبح العرش ينتقل من الأكبر فالأصغر من إخوة السلطان بدلا من انتقاله إلى الأكبر فالأصغر من بنيه[٣] ، ثم تغير هذا النظام بأن أصبح للسلطان الحاكم الحق فى أن يختار من يخلفه من بين أبنائه أو من إخوته دون أن يتقيد باختيار الابن أو الأخ الأكبر من أدى إلى ظهور روح التنافر ، وقيام المؤامرات داخل القصور السلطانية لإبعاد أمير عن العرش أو تقريب أمير آخر منه ، وكانت هذه المؤامرات تأتى غالبا من زوجات السلطان اللاتى أنجبن أولادا منه رغبة فى أن يكون

١- الشناوى : المرجع السابق جـ٢ ص٨٩٨ .

٢- هناك من يذكر أن السلطان بيازيد الثانى أرسل أسطولا لنجدة أهل الأندلس ولكن ذلك لم يثبت تاريخيا. انظر ستانلى لين بول : الدول الإسلامية - ترجمة محمد صبحى فرزات - القسم الأول ، دمشق ، مكتب الدراسات الإسلامية ص٦٥

٣- بيهم : المرجع السابق جـ٢ ص١٧ .

ابنهن وليا للعهد ، ونظرا لهذا التصارع للوصول إلى السلطة كان الابن الـذى يصـل إلـى منصب السلطنة كثيرا ما يقوم بقتل جميع منافسيه ، أو يفرض عليهم أن يظلوا سجناء فـى قصورهم لا يخالطون أحدا ومن غريب الأمر أن يصدر السلطان محمد الفاتح قانونـا خـول بمقتضاه السلطان الذى يتولى العرش بأن يقوم بقتل اخوته تأمينا لسلامة الدولـة وأمنـها القومى[1] ، وقد عبر محمد الفاتح عن ذلك صراحة فى سجل القوانين بقولـه "إن غالبيـة المشرعين أعلنوا أن اللامعين من أبنائى الذين يتولون العرش يكون لهم الحق فـى إعـدام إخوتهم تأمينا للسلام فى الدولة وعليهم أن يعملوا طبقا لهذا" وبهذا حكم محمد الفـاتح فـى هدوء بالإعدام على السلالة الملكية ما عدا الكبار منهم ، وثمة سيئة أخرى من سيئات هـذا النظام وهى أن ممتلكات المحكوم عليهم بالإعدام كانت تؤول إلى السلطان مما شجع العديـد من السلاطين على اقتراف هذه الجريمة[2] .

أى صلات رحم هذه التى يقوم فيها الأخ بقتل إخوته خشية على سلطته ؟! ثم جاء بعد ذلـك دور الإنكشارية فى التمثيل بالسلاطين أنفسهم وعزلهم وتنصيب من يجدون فيه عونا لـهم وذلك منذ أوائل القرن السابع عشر الميلادى ، وأبرز الأمثلة على ذلك أنـهم قـاموا بخلـع السلطان مصطفى الأول ، وقتلوا عثمان الثانى وإبراهيم الأول[3] .

٣ - زواج السلاطين العثمانيين من الأجنبيات :

لقد سمح الإسلام للرجل المسلم بالتزوج من النصرانية أو اليهوديـة طبقـا لقولـه تعالى: "اليوم أحل لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حـل لكـم وطعـامكم حـل لـهم والمحصنات من المؤمنات ، والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكـم إذا ءاتيتموهـن أجورهن محصنين غير مسافحين ولا متخذى أخدان ومن يكفر بالايمان قد حبـط عملـه ، وهو فى الآخرة من الخاسرين[4]" .

ولكن قد يقتضى الأمر أحيانا عدم الزواج من الكتابيات خشية تسرب أسـرار الدولـة إلى أعدائها من اليهود والنصارى ، وقد يقتضى الأمر أيضا زواج السلاطين من الكتابيـات لمصالح سياسية فمثلا كانوا يتزوجون من بنات الملـوك والأمـراء النصـارى أو اليـهود ليكسبوا ودهم .

١- الشناوى : المرجع السابق جـ١ ص٣٤٦-٣٤٩ .

٢- ول ديورانت : المرجع السابق جـ٤ المجلد السادس ص١١٥ .

٣- بيهم : المرجع السابق جـ٢ ص١٨ .

٤- سورة المائدة : الآية ٥ .

وعلى الرغم من أن المؤسسين الفاتحين من آل عثمان قد اختاروا الزواج من الأجنبيات لغايات سياسية ، ولتأمين العصبيات فانه سرعان ما تطورت الأمور وأصبحت قصور السلاطين آهلة بالجوارى والسرارى الأجنبيات اللاتى تظاهرن بالإسلام ولكنهن فى الواقع لن ينسين أوطانهن الأولى ولا قوميتهن السابقة فاستغللن وضعهن فى القصر السلطانى واهتممن بخدمة أوطانهن الأصلية على حساب الدولة العثمانية[1] . وقد أوتين من الدسائس ألوانا أودت بعز الدولة ، وسودت صفحات عواهلها مما كان له أكبر الأثر فى تفسخ الأسرة العثمانية المالكة وإضعاف شأنها[2] ، وأبرز الأمثلة على ذلك أن السلطان سليمان القانونى ضم إلى حريمه نحو ثلاثمائة جارية كلهن مشتريات من الأسواق أو أسيرات فى الحرب ، ومعظمهن من أصل مسيحى[3] ، يضاف إلى ذلك انه كانت له محظية شركسية تعرف باسم "وردة الربيع" أنجبت له طفلا أسماه مصطفى ، وعهد إليه بعدة مناصب ، ودربه ليكون وريثا للعرش[4] ، ثم فجأة شغف بروكسلانه الروسية التى انتزعته من محظيته الشركسية فاتخذها زوجة له ، وقتل ابنه وولى عهده مصطفى إرضاء لها بعد أن حبكت له مؤامرة – شاركها فيها رستم باشا الصدر الأعظم[5] – أوغرت فيها صدر أبيه عليه ، وعين ابنه سليم من روكسلانه وليا للعهد بدلا من أخيه الأكبر[6] .

يضاف إلى ذلك أن هذه المرأة استطاعت حجب زوجها السلطان عن قيادة الحملات الحربية بعد أن كان وجوده فى ساحة القتال يثير حماس الجنود ويلهب مشاعرهم[7] . وسار من جاء بعده من السلاطين على منواله مما أدى إلى فتور حماس الجند ، كما بدأ الفساد يدب فى صفوف الإنكشارية الذين كانوا قد اعتادوا على أن لا يخرجوا للحرب إلا والسلطان يقود حملتهم . يضاف إلى ذلك أن السلاطين أصبحوا فى معزل عن معرفة أحوال قواتهم ، ومدى ما وصلت إليه من قوة خصوصا وأن الحاشية السلطانية كانت تحجب عن السلاطين الأمور التى لا تريد أن تصل إلى مسامعها[8] .

١- الشناوى : المرجع السابق جـ١ ص٤٠ .
٢- بيهم : المرجع السابق جـ٢ ص١٣ .
٣- ول ديورانت : المرجع السابق جـ٤ المجلد السادس ص١١٧ .
٤- نفسه ص١٢٦ .
٥- ألقت روكسلانه فى روع زوجها سليمان أن ابنه مصطفى يحاول أن يكسب شعبية تطلعا منه إلى انتزاع العرش ، كما اتهم رستم باشا مصطفى بأنه يتودد سرا إلى الانكشارية ليقفوا بجانبه ضد أبيه مما جعل الشك يساور السلطان فأمر بقتل ابنه . انظر ول ديورانت : المرجع السابق ص١٢٧ .
٦- الشناوى : المرجع السابق جـ١ ص٦١٧ .
٧- نفسه : ص٦١٤ .
٨- بيهم : المرجع السابق جـ٢ ص٢٢ .

٤ – الاعتماد على الانكشارية :

اعتمدت الدولة العثمانية فى عملية التجنيد على جمع أبناء العائلات الأرثوذكسية خصوصا من البلقان فكانت ترسل وكلاءها إلى هذه المناطق حيث يطلبون من قسيس القرية كشفا بأسماء الأطفال الذكور الذى قام بتعميدهم ثم يقومون بجمعهم ، ويتحركون بهم إلى الآستانة حتى تنقطع صلاتهم بذويهم نهائيا[١] . وقد عرفت هذه العملية باسم "الدفشرمه[٢] " Devshirme أو ديوشيرمه وهى كلمة تركية تعنى ضريبة الغلمان .

وقد أعدت الدولة هؤلاء الغلمان ليكونوا فرق مشاه فى الجيش العثمانى وأطلق عليهم الانكشارية[٣] . وقد قامت هذه القوات بدور رئيسى فى الفتوحات العثمانية وصار لا يعول إلا عليها فى الحرب ، ولما أخذت الدولة العثمانية تمر فى مراحل الضعف ترك الحبل على الغارب لزعماء الانكشارية حتى تضخم نفوذهم وتزايد لدرجة أنهم خرجوا عن حدودهم وتعدوا واستبدوا وأصبحوا عبئا ثقيلا على السلاطين أنفسهم خصوصا بعد أن صار بمقدورهم تنصيب السلاطين أو خلعهم[٤] . يضاف إلى ذلك قيامهم فى العديد من المرات بالتمرد ، وسلب أموال الأهالى ، وإشعال النيران فى ممتلكاتهم واقتحام المنازل والاعتداء على من فيها ، واعتراض مواكب السلاطين[٥] والتدخل فى سياسة الدولة العليا، هذا إلى جانب انتهاكهم للشريعة وتمزيق القرآن أثناء ثوراتهم ، وإهمال الصلاة ، وشرب الخمر[٦] ، واستمرت الأحوال على ذلك حتى تمكن السلطان محمود الثانى من القضاء عليهم بقتل أغلبهم فى ٩ ذى القعدة من عام ١٢٤١ الموافق ١٦ من يونيو ١٨٢٦[٧] دون أن يجد البديل الذى يستطيع حماية أراضى الدولة العثمانية والدفاع عنها ضد أعدائها .

١– لتفاصيل ذلك انظر :
H. Gibb and H, Bowen : Islamic Society and the west, vol 1 pp. 56-60 .

2– عمر عبد العزيز : تاريخ المشرق العربى ١٥١٦–١٩٢٢ ، بيروت ، دار النهضة العربية ص٤٢ .

٣– معناها الجنود الجدد ، وقصة هذه الكلمة أنه لما صار لدى السلطان أورخان عدد ليس بقليل من هؤلاء الجند ، سار بهم إلى شيخ طريقة البكطاشية ليدعو لهم بخير ، فدعا لهم هذا الشيخ بالنصر على الأعداء وقال فليكن اسمهم (ينى تشارى) أى الجيش الجديد ثم حرف هذا الاسم فى العربية فصار انكشارى . انظر محمد فريد : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، بيروت ، دار الجيل ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م ص٤٢ . انظر أيضا توينبى : المرجع السابق جـ٢ ص١٨٨ .

٤– سيد مصطفى : المصدر السابق ص١٠ .

٥– لتفاصيل ذلك انظر الشناوى : المرجع السابق جـ١ ص٤٩٤–٤٩٩ .

٦– عمر عبد العزيز : المرجع السابق ص٢٦٨ .

٧– محمد فريد : المرجع السابق ص٤٢ .

٥ – عدم مسايرة الدولة العثمانية للتطور فى أنظمة الحكم وأحداث عصر النهضة:

لم تعمل الدولة العثمانية على تطوير أنظمتها فى الحكم والادارة فظلت أنظمتها جامدة فى حين أخذت أوربا فى تطوير أجهزتها الحكومية منذ عصر النهضة مما أوجد فجوة حضارية بينهما .

ونتيجة لذلك أخذت الشعوب المسيحية التابعة للعثمانيين تتطلع إلى الانفصال ، وبدأت الدول الأوربية تتدخل من أجل اقتسام أملاك الدولة العثمانية[١] فدعت إلى عقد مؤتمرات دولية لبحث ما أطلق عليه المسألة الشرقية .

يضاف إلى ذلك أن العثمانيين لم يسايروا تطورات عصر النهضة فى أوربا مما جعل الفجوة الحضارية شديدة الاتساع بين الشرق والغرب ، وأظهر عجز العثمانيين عن متابعة هذه التطورات .

٦ – الاعتماد على غير المسلمين فى تسيير أمور الدولة العامة :

لقد وجد اليهود والنصارى عند السلاطين العثمانيين صدرا رحبا إذ اعتمدوا عليهم فى جميع أجهزة الدولة خصوصا المناصب الكبرى منها فشكل هؤلاء غالبية الهيئة الادارية فى الحكومة العثمانية[٢] ، كما أسند إليهم قيادة الجيوش ، ووصل بعضهم إلى منصب الوزارة والأمثلة على ذلك متعددة نذكر منها أن السلطان بايزيد الأول ١٣٨٨-١٤٠٣م قد ولى الأمير سيسمان ابن ملك البلغار على ولاية صمصون ، يضاف إلى ذلك أن الباب العالى اعتمد فى اختيار وزرائه على الأوربيين حديثى العهد بالإسلام لا سيما الألبان[٣] . وإلى جانب ذلك فإن العثمانيين سمحوا ليهود الدونمة بتولى الوظائف الهامة فى الدولة ، مما كان له أكبر الأثر فى ضرب الإسلام وتهديم كيانه من الداخل خصوصا بعد أن لبس هؤلاء لباس الإسلام وعاشوا بين المسلمين يظهرون لهم المودة فى حين كانوا فى الباطن يدبرون لهم المؤامرات ، ويكونون التنظيمات المعادية للإسلام بهدف اقتلاع الحكم الإسلامى من جذوره وقد ساعدهم على ذلك صلتهم الوثيقة بحكومة الاتحاد والترقى التى استولت على الحكم بعد خلع السلطان عبد الحميد

٧ –المآسى التى ارتكبها العثمانيون ضد العرب :

ارتكب العثمانيون العديد من المآسى ضد الشعوب العربية بطريقة تبعد حكمهم إلى حد كبير عن روح الإسلام وسماحته ، فقد كانوا فى كثير من الأحيان يشعرون بميزة

١– الشناوى : المرجع السابق جـ٤ ص١٨١٠-١٨١١ .

٢– ول ديورانت : المرجع السابق جـ٤ المجلد السادس ص١١٢ .

٣– بيهم : المرجع السابق جـ٢ ص٣٩ .

مستواهم المستمدة من سلطة عنصرهم على حين كان العرب يشعرون بأنهم أصحاب البلاد الأصليين والأدلة على ذلك متعددة وواضحة ذكرها بعض شهود العيان ومن هؤلاء المؤرخ ابن اياس الذى قال عن جنود السلطان سليم بعد دخولها إلى بلاد الشام "إن عسكر ابن عثمان خرب غيطان الشام ، ونهب الفواكة من فوق الأشجار ، ورعت خيولهم فى الغيطان ، وأكلوا أوراق الأشجار وطردوا الناس عن بيوتهم وسكنوا بها وأخربوا غالب بيوت الشام وحصل منهم لأهل الشام غاية الضرر[1]" . وقال بعد دخول القوات العثمانية مصر إن "ابن عثمان هتك حريم مصر وما خرج منها حتى غنم أموالها ، وقتل أبطالها ويتم أطفالها ، وأسر رجالها وبدد أحوالها وأظهر أهوالها[2]" . يضاف إلى ذلك "أن ابن عثمان كان ينحجب عن عسكره أياما لا يظهر فيها وفى هذه المدة يقتل العسكر خلقا فى المدينة ، ويتجاهرون بالمعاصى والفسوق ، وأنهم لا يصومون شهر رمضان ، ويشربون فيه الخمر والبوزة . ويستعملون فيه الحشيش والشحيب ويفعلون الفاحشة فى الصبيان المرد فى شهر رمضان ، وأن ابن عثمان لا يصلى الجمعة إلا قليلا . وقد أشيعت عن ابن عثمان هذه الأخبار الشنيعة"[3] .

وذكر المؤرخ المصرى عبد الرحمن الجبرتى مفاسد الجند العثمانى بقوله "يأكلون ويشربون جهارا فى نهار رمضان ، ويشربون الحشيش والمسكرات ، ويزنون ويلوطون ويشربون الجوزة ويلعبون القمار جهارا فى نهار رمضان ولياليه[4] " .
وأوضح محمد الادريسى – أمير منطقة المخلاف السليمانى – مفاسد الأتراك العثمانيين بقوله إنهم كانوا "يستبيحون الحرم ، وينتهكون الأعراض ، ويتجاهرون بالمعاصى والخروج عن الحدود التى حددها الله ورسوله غير مبالين ولا متأدبين فلا الصلاة يؤدون ولا الشهر يصومون ، ولا هم فى حكمهم يعدلون"[5] . كل ذلك جعل الأهالى ينفرون منهم. كما ذكر الادريسى أن العثمانيين كانوا يتقاضون الرشوة . ويحتقرون العرب ولغتهم هذا بالاضافة إلى إهمال جميع المصالح العامة وإهانة رجال الدين[6] .

١- ابن اياس : المصدر السابق جـ٣ ص١٤٤ .
٢- نفسه جـ٣ ص١٣٣ .
٣- نفسه جـ٣ ص٨٢-٨٣ .
٤- عبد الرحمن الجبرتى : عجائب الآثار فى التراجم والأخبار جـ٤ ، القاهرة ، المطبعة الشرفية ١٣٢٢هـ ص٢٢ ، ٣١٠ .
٥- محمد الادريسى : هذا بيان للناس وموعظة للمتقين ، رسالة إلى صديق له فى مصر بتاريخ ٦ ربيع الثانى ١٣٣٠هـ
٦- نفسه .

يضاف إلى ذلك أن الادارة العثمانية لم تعمل على إيجاد أى باعث حقيقى لإسعاد رعاياها بل انقسم أبناء الدولة إلى حكام ورعايا ، كما انتشرت الرشوة فى كافة الأوساط الحكومية لدرجة انه كان هناك سماسرة للوزراء خصوصا فى أيام عبد الحميد الثانى ينتشرون فى الولايات ، ويعقدون الصفقات فى شئون الدولة[١] مما كان له تأثيرات سلبية خصوصا على المجتمعات العربية أدت فى نهاية الأمر إلى عدم شعور الأهالى بالولاء للدولة العثمانية[٢] .

ومن مساوىء أنظمة الدولة العثمانية لحكم البلاد العربية ما يلى : -

١ - أن الوالى الذى كان بمثابة نائب السلطان فى البلد الذى يحكمه وكان تعيينه غالبا لمدة عام واحد مما جعل الولاة لا يهتمون بأمور ولاياتهم بل كان جل همهم هو جمع الأموال لأنفسهم والانصراف عن المشروعات العمرانية والإنتاجية التى تتطلب متابعة متوالية لإتمامها[٣] .

٢ - انتشار الرشوة بين أفراد الديوان الذى كان بمثابة الهيئة الحكومية العليا نتيجة لتبنى موظفى الادارة العثمانية بعض الأفكار الخاطئة عن اختصاصهم فصار التقليد المتبع هو الحصول على الترقية بالرشوة والمحسوبية ، كما طرحت المناصب الادارية والمدنية والامتيازات والرتب فى المزاد العلنى ، وساد الاستهتار بين موظفى الدولة والجند الذين فقدوا بالتدريج المثل الأخلاقية التى كانت قد بدت واضحة عليهم فى المراحل الأولى من الحكم العثمانى ، فالباشا الصالح فى نظرهم هو الذى كان يرسل المبالغ المعينة التى تتطلبها خزانة السلطان ، وكانت هذه هى أول خطوة نحو الرشوة فقد عمل الولاة على الاستفادة من وجودهم فى مناصبهم ، وتعويض ما دفعوه من رشاوى هذا بالاضافة إلى تكوينهم للثروات الضخمة[٤] .

٣ - تركيز السلطة فى أيدى بعض الزعماء المحليين الذين حاولوا الاستقلال الذاتى عن الحكومة المركزية مما أدى إلى سلسلة من الاضطرابات والانقسامات داخل الولايات العربية التابعة للدولة العثمانية[٥] .

٤ - لجوء الدولة العثمانية إلى طريقة الالتزام حتى تتمكن من تأمين الأموال اللازمة لها خصوصا وأن الملتزمين كانوا يجمعون من الأهالى ما يفوق الأموال التى

١- بيهم : المرجع السابق جـ٢ ص٤٤ .

٢- رأفت الشيخ : المرجع السابق ص٣٦-٣٧ .

٣- جلال يحي : العالم العربى الحديث ، الاسكندرية ، دار المعارف ١٩٧٤م ص٥١ .

٤- عمر عبد العزيز : المرجع السابق ص١٢٧ .

٥- نفسه : ص١٢٦ .

كانت تطلبها الدولة . فكان الملتزمون كثيرا ما يقترضون الأموال من مصارف استنبول بربا فاحش بغية تأمين المبالغ المقررة عليهم دفع الرشاوى للمسئولين حتى يقع عليهم الاختيار فإذا بلغوا مقر ولايتهم تفننوا فى ابتزاز الأموال من الأهالى فكانوا يفرضون الضرائب الباهظة ، ويطلقون أيديهم فى ممتلكات الأهالى ، ولا يتورعون عن المصادرات، واتهام الأبرياء بالجنايات بغية ابتزاز الأموال مما أدى إلى تخريب القرى والاقطاعات من جراء المظالم التى ارتكبت والاعتداءات ووقوع الأهالى فى شراك الفقر والمظالم[1] ، ويااليت الأمر اقتصر على الأحياء ، فقد قرر رجال الدستور من العثمانيين استيفاء ضريبة على دفن الموتى[2] .

٥ - عدم اهتمام العثمانيين بنواحى التعليم الصحة والعمران فى البلدان العربية خصوصا وأن فكرة الحكم عند العثمانيين كانت بسيطة للغاية وهى ان للدولة وظائف محددة لا يجب أن تتعداها وهى الدفاع عن ولاياتها ، والحفاظ على الأمن وتحصيل الأموال أما فيما عدا ذلك مثل الاهتمام بالتعليم أو الرعاية الصحية أو النواحى العمرانية فقد كانت الدولة العثمانية تعدها خارج نطاق مسئوليتها وتتركها للأفراد والجماعات .

وإلى جانب ذلك فإن الدولة العثمانية التى حكمت العالم العربى حوالى أربعة قرون لم تترك فيه أى أثر من الآثار العمرانية الكبيرة يذكره التاريخ لها فلم تهتم بالمرافق ، ولم يهتم الولاه العثمانيون بحفر ترعة أو إقامة جسور جديدة ، بل جفت بعض الترع القديمة لعدم تطهيرها ، وانهارت الجسور القائمة لعدم العناية بها ، وأغلقت بعض المدارس التى كانت قائمة قبيل الحكم العثمانى ، يضاف إلى ذلك أن العثمانيين فرضوا على أنشطة العرب فى المجالات السياسية والاقتصادية والثقافية جمودا بحيث لم يعد العرب يشاركون العالم بنشاطهم فى هذه المجالات . وإلى جانب ذلك فقد تسبب العثمانيون فى قتل النشاط الاقتصادى المزدهر فى معظم البلدان العربية ، ويرجع ذلك إلى أن الدولة العثمانية لم تتدخل سريعا وبصورة جدية لضرب المعاقل البرتغالية فى الخليج العربى والهند إلا بعد نصف قرن من الزمان[3] تقريبا هذا إلى جانب أن العثمانيين نقلوا إلى بلادهم أكثر ما فى القلعة وأكثر ما فى منازل السلاطين والأمراء المماليك من الذخائر والنفائس والكتب وقد وصف ذلك أحد شهود العيان بقوله: "وأشيع أ ابن عثمان خرج من مصر ومعه ألف جمل

١- بيهم : المرجع السابق جـ٢ ص٤٧-٤٨ .

٢- كان مقدار هذه الضريبة خمسة ريالات وللتفاصيل انظر أحمد السباعى : تاريخ مكة جـ١ ، مطبوعات نادى مكة الثقافى ، الطبعة السادسة ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م ص٥٦٠ .

٣- الشناوى : المرجع السابق جـ٣ ص١٤٤٦-١٤٤٨ .

محملة ما بين ذهب وفضة هذا خارجا عما غنمه من التحف والسلاح والصينى والنحاس والمكفت والخيول والبغال والجمال وغير ذلك حتى نقل منها الرخام الفاخر[1] "

يضاف إلى ذلك أنه نقل العمال المهرة من مصر إلى الآستانة[2] حتى أغلقت الكثير من الورش ، وفقدت مصر أكثر من خمسين صنعة[3] .

٦ - تدهور الدراسات الدينية والفكرية وانحطاط هيبة العلماء :

خلال الحكم العثمانى للعالم العربى ضاق حيز الدراسات الدينية نسبيا ، ولذلك لا نجد فى العصر العثمانى حماس العلماء من أجل إضافة أشياء جديدة تضاف إلى رصيد ما جاء به فحول الفقهاء فيما يتعلق بالشريعة والخلافة والإمامة ونظم الحكم بل انحطت هيبة العلماء ، وتدهورت سمعتهم ، وازداد نمو الفساد فى سلوكهم لدرجة أن الوظائف العليا بينهم كانت تباع للأشخاص غير المؤهلين لتولى هذه المناصب[4] . يضاف إلى ذلك أن إهمال العثمانيين للغة العربية ، وسيطرة اللغة التركية عليها خاصة فى دواوين الحكومة والمعاملات الرسمية قد أدى إلى شيوع العجمة فى التراكيب ، والتردى فى الكثير من الأخطاء النحوية واللغوية[5] ، وانتهى الأمر باستغلال الارساليات التنصيرية للفرصة ، وتشجيعهم لنصارى الشام على حمل لواء النهضة الفكرية فى العالم العربى .

وإلى جانب ذلك فقد أدى تدهور الدراسات الدينية إلى انتشار البدع والخرافات بين المسلمين حتى أصبح الناس لا يعرفون التفرقة بين الصحيح وغير الصحيح فى دينهم ن ونتيجة لذلك راح العلماء العرب الغيورون على دينهم يحاولون إصلاح أمور بلادهم وأبرز مثال على هؤلاء الشيخ محمد بن عبد الوهاب الذى تعد دعوته أولى الحركات الإصلاحية فى الوطن العربى ، والتى بذلت الدولة العثمانية جل جهودها للقضاء عليها .

٧ - تدهور الحركة العلمية فى العصر العثمانى :

سيطرت روح الجمود المطلق على الحركة العلمية فى البلدان العربية إبان الحكم العثمانى فلا نكاد نجد فى العصر العثمانى مؤلفات تتمتع بشىء من الأصالة العلمية وبالتالى لا نجد علماء يماثلون علماء العصر المملوكى مثلا فقد انكب العلماء فى العصر العثمانى على تأليف الملخصات ووضع الحواشى على الحواشى وتخيل غرائب المسائل

١- ابن اياس : المصدر السابق جـ٣ ص١٣٣ .

٢- نفسه ص١٢٢ .

٣- الجدير بالذكر ان السلطان سليمان القانونى قد أمر بإعادة هؤلاء العمال إلى مصر .

٤- عمر عبد العزيز : المرجع السابق ص٢١١ ، ٢٦٧ .

٥- عبد المنعم الجميعى : عبد الله النديم ودوره فى الحركة السياسية والاجتماعية ، القاهرة ، دار الكتاب الجامعى ١٩٨٠ ص٣٩٦ .

النحوية والفقهية ، وصاروا يدعون إلى الاستسلام للأمر الواقع .

ولم يقف الحال على ذلك بل أغلقت معظم المدارس وتدنت الروح العلمية فيما تبقى منها تدنيا ظاهرا بسبب تعصب العثمانيين من جهة ، ونضوب الموارد المالية من جهة أخرى ، وعلى هذا فإنه يمكن القول: إن مرحلة الانحطاط العلمى قد سيطرت على البلدان العربية ، منذ استيلاء العثمانيين عليها[1] ولكن هل هذا يعنى أن نلقى اللوم كل اللوم على العثمانيين فحسب . فالواقع أن هناك بعض المناطق العربية مثل المغرب ونجد وعمان لم تقع تحت طائلة الحكم العثمانى ، ومع ذلك فانه لم ينتابها التقدم مثلها مثل البلدان العربية الأخرى التى دخلت تحت الحكم العثمانى مما يوضح أن الأوضاع التى خيمت على البلدان الشرقية فى ذلك الوقت ، وروح الركون إلى الكسل والخمول الذى انتاب رجالاتها كان لها الدور الأكبر فى ذلك .

٨ - إهمال شئون أمن الحجاج والحرمين الشريفين :

فى الفترة الأخيرة من الحكم العثمانى لم تهتم الدولة العثمانية بشئون حجيج بيت الله الحرام لدرجة أن الأعراب كانوا ينقضون على الحجاج سلبا ونهبا وقتلا ، ويسومونهم سوء العذاب دون أى رادع يردعهم خصوصا وأن العثمانيين لم يرسلوا إلى أرض الحجاز من الجنود ما يحفظ الحج والحجاج ويجعلهم فى مأمن على أنفسهم وأموالهم وأعراضهم[2] .

ومما زاد الطين بله انه عندما قامت ثورة الشريف حسين بن على ضد الأتراك فى شعبان ١٣٣٤هـ/ يونيو ١٩١٦م ودارت رحى المعارك من أجل إخراج الأتراك من مكة أطلق الأتراك نيران مدافعهم من قلعة أجياد المقامة على الجبل صوب الكعبة حتى التهمت النيران أستار البيت العتيق ، وهرع الألوف من المسلمين لإطفاء لهيبها ، وفتح باب البيت والصعود إلى سطحه للتمكن من إطفاء اللهب[3] .

وهكذا انتهك الأتراك حرمة أقدس البقاع فى الأرض ، ومهما برر البعض الأعذار لهم فمن المعروف أن مكة المكرمة كلها حرم لا يجوز القتال فيه .

١- أكرم العلبى : دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين ٩٠٦-٩٢٢هـ / ١٥٠٠-١٥٢٠م ، دمشق ، الشركة المتحدة للتوزيع ، الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م ص١٩٣-١٩٥ .

٢- إبراهيم رفعت باشا : مرآة الحرمين أو الرحلات الحجازية والحج ومشاعره الدينية ، المجلد الثانى ص٧٥-٧٨ .

٣- أحمد عبد الغفور عطار : الكعبة والكسوة منذ أربعة آلاف سنة حتى اليوم ، مكة المكرمة ، ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م ص١١٦ .

٩ – الامتيازات الأجنبية التى منحتها الدولة العثمانية للأوربيين فى البلدان العربية :

من المعروف انه نتيجة لدخول العثمانيين إلى البلاد العربية حرمت هذه البلاد من ممارسة سيادتها خارج نطاق حدودها وأصبحت الدولة العثمانية هى صاحبة الأمر والنهى فى تسيير أمورها ، وقد أعطت هذه الدولة بعضا من الامتيازات لعدد من الدول الأوربية تم استغلالها فى فترة ضعف الدولة لصالح رعايا هذه الدول الذين أخذوا يفسرون هذه الامتيازات تفسيرا تعسفيا ، كما أخذت دولهم تتدخل فى شئون البلدان الإسلامية مستغلة فى ذلك هذه الامتيازات وانتزعت لنفسها العديد من الأطماع[1] .

١٠ – مسئولية الدولة العثمانية عن الاحتلال البريطانى لمصر :

كان لتخبط السياسة العثمانية تجاه المسألة المصرية أكبر الأثر فى تعقدها وضياع استقلالها ومن أمثلة ذلك التخبط عدم موافقة السلطان عبد الحميد على الاشتراك فى مؤتمر الآستانة فى عام ١٨٨٢ الذى تقرر فيه بحث المسألة المصرية مما أبعد الدولة العثمانية عن المشاركة فى تحديد مستقبل مصر ، وترك مصيرها معلقا فى أيدى الدول الأوربية[2].

يضاف إلى ذلك أنها ترددت فى اتخاذ موقف ثابت تجاه كل من العرابيين والخديو ، كما ترددت فى إرسال قوات عسكرية إلى مصر بناء على طلب الخديو ، وتباطأت فى اتخاذ موقف محدد من طلب الخديو المعونة من الانجليز ثم زادت الطين بلة باصدارها منشورا بعصيان عرابى مما قلب ميزان الحماس الشعبى . وأضاع التأييد الإسلامى للثورة العرابية وكان له أسوأ الأثر فى النفوس وأدى إلى إيقاع الفرقة والانحلال فى صفوف العرابيين . وانصراف الناس عن تأييدهم مما أتاح لانجلترا فرصة احتلال مصر[3] .

١١ – مسئولية الدولة العثمانية عن الاحتلال الفرنسى للجزائر :

تباطأت الدولة العثمانية فى ترضية فرنسا عندما طلبت منها التدخل لتأديب داى الجزائر الذى أظهر عداء واضحا للفرنسيين بتحقيره لقنصل فرنسا ، ورفضه تقديم الترضية العلنية ، وكان يجب عليها الإسراع لحسم الموقف خصوصا وأن نذر الحرب كانت واضحة بين فرنسا والجزائر . ومع ذلك فانها قررت عدم التدخل فى القضية فى

١- الشناوى : المرجع السابق جـ٢ ص٧٢٠ .

٢- الشناوى : المرجع السابق جـ٤ ص٢٢٧٥ .

٣- لمزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع انظر بحثنا المعنون " موقف الدولة العثمانية من الثورة العرابية " والمنشور فى العدد السادس والعشرون من المجلة التاريخية المصرية .

أول الأمر نظرا لأنها كانت منهمكة فى إخماد ثورة المورة القائمة ضدها[1] . ونتيجة لذلك انفردت فرنسا بالجزائر ، وقامت باحتلالها فى عام ١٨٣٠م .

١٢ – عدم مسايرة العثمانيين للتطورات التى حدثت فى أوربا إبان عصر النهضة، وعزلهم للعالم العربى عن التطور العالمى الذى بدأ مع بداية العصور الحديثة وذلك عندما فرضوا ستارا حول العالم العربى بحجة حمايته من الغزو العسكرى الأوربى. حقيقة لقد سمحت الدولة العثمانية بوجود تبادل تجارى بين العرب والأوربيين[2] ولكنها أبقت العالم العربى على حالته التى كانت موجودة قبل فتحها له . وفى الوقت الذى تطورت أوربا فى مضمار النهضة تطورا كبيرا أسدلت الدولة العثمانية ستار الجمود حول البلدان العربية بهدف تعويق تقدمها ومنعها من الاقتراب من عصر النهضة الذى بدت آثاره واضحة فى أوربا مما أدى إلى تخلف العالم العربى عن ركب هذه النهضة ، وإضعاف ثقته فى نفسه .

كل هذه الأوضاع جعلت العالم العربى يعيش فى حالة من الجمود فى ظل الحكم العثمانى جعلته يدخل إلى القرن العشرين وهو لم يتخلص بعد من حياة العصور الوسطى. وانتهى الأمر بظهور جماعة الاتحاد والترقى ، وسيطرتها على مقاليد أمور الدولة العثمانية ، وتعصبها للحركة الطورانية التى تستمد أساسها من التركيز على انتساب الأتراك إلى أصول طورانية والدعوة إلى بعث الجنس التركى وتمجيده ، وتخليصه من المؤثرات العربية والفارسية ، ومحاولة تتريك العرب وغيرهم من العناصر التابعة للعثمانيين بجعل اللغة التركية هى اللغة الرسمية فى المدارس والمحاكم والدواوين[3] ، مما أدى إلى نفور العرب ، وشعورهم برغبة الأتراك فى صبغهم بالصبغة التركية .

ولما ألغيت السلطنة وجاء أتاتورك اتخذ من الاجراءات التى باعدت بين الدولة والإسلام عموما ، ومن هذه الاجراءات إلغاء الخلافة ، وإالغاء منصب شيخ الإسلام وحذف عبارة "إن دين الدولة التركية هو الإسلام" والمناداة بتركيا دولة علمانية[4] ، وإلغاء القانون الإسلامى وتبنى قانون الأحوال الشخصية العلمانى ، وإلغاء التقويم الهجرى ، واستبدال العطلة الاسبوعية بيوم الأحد بدلا من الجمعة ، وإلغاء الحروف العربية التى كانت تكتب بها اللغة التركية واستبدالها بحروف لاتينية، ومنع الصلاة والتعبد فى جامع آيا صوفيا ، وتحويله إلى متحف[5] .

١- أرجمند كوران : السياسة العثمانية تجاه الاحتلال الفرنسى للجزائر ١٨٢٧-١٨٤٧م - ترجمة الدكتور عبد الجليل التميمى ، تونس ، الطبعة الثانية ص٢٤-٢٥ .

٢- سيد مصطفى سالم : الفتح العثمانى الأول لليمن ١٥٣٨-١٦٣٥ ، القاهرة ، معهد البحوث والدراسات العربية ، الطبعة الثالثة ١٩٧٨ ص٤٤٢ .

٣- الشناوى : المرجع السابق جـ٣ ص١٢٢٨ .

٤- نفسه جـ١ ص٨٥ .

٥- للتفاصيل انظر على حسون: تاريخ الدولة العثمانية وعلاقاتها الخارجية ص٢٢٧-٣٠٠ .

الخاتمـــــة

****

وهكذا تعرضنا لسلطنة آل عثمان التى استوفت قسطها من الحياة بما فيها من رقـــى وهبوط ، وإساءة وإحسان فاستعرضنا خدماتها للإسلام والمسلمين خلال فترة قوتـــها ومـــا وقعت فيه من أخطاء وتخبط أودى بالعالم الإسلامى إلى الكثـــير مـــن المشـــاكل والأطمـــاع الاستعمارية وذلك خلال فترة ضعفها .

ولكى تتضح الحقيقة ينبغى أن نذكر أن تخلف العالم العربى خلال فترة الحكم العثمانى لم يكن مسئولية العثمانيين وأحدهم ، وإنما كانت هناك عوامل أخرى متعددة يعـــود بعضـــها إلى أوضاع العالم الإسلامى نفسه ، يضاف إلى ذلك أن العثمانيين مدينون أكثر من غـــيرهم للإسلام باعتباره البوابة التى دخلوا منها التاريخ فهو أساس دولتـــهم وحضارتـــهم وإليـــه يرجع كل ما يفخر به العثمانيون .

الملاحـــــق

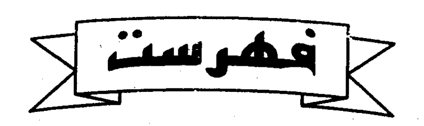
ملحق رقم (١)

بيان بأسماء سلاطين آل عثمان وسنوات حكمهم

	(الجلوس-الوفاة) بالهجرى	(الجلوس- الوفاة) بالميلادى
١- السلطان عثمان بن أرطغرل	٦٩٩-٧٢٦	١٢٢٩-١٣٢٦
٢- السلطان أورخان بن عثمان	٧٢٦-٧٦١	١٣٢٦-١٣٦٠
٣- السلطان مراد بن اورخان	٧٦١-٧٩٢	١٣٦٠-١٣٨٩
٤- السلطان بايزيد بن مراد	٧٩٢-٨٠٥	١٣٨٩-١٤٠٢
٥- السلطان محمد جلبى بن بايزيد	٨١٦-٨٢٤	١٤١٣-١٤٢١
٦- السلطان مراد بن محمد	٨٢٤-٨٥٥	١٤٢١-١٤٥١
٧- السلطان محمد الثانى (الفاتح) ابن مراد	٨٥٥-٨٨٦	١٤٥١-١٤٨١
٨- السلطان بايزيد الثانى ابن مراد	٨٨٦-٩١٨	١٤٨١-١٥١٢
٩- السلطان سليم بن بايزيد	٩١٨-٩٢٦	١٥١٢-١٥٢٠
١٠- السلطان سليمان القانونى ابن سليم	٩٢٦-٩٧٤	١٥٢٠-١٥٦٦
١١- السلطان سليم الثانى ابن سليمان	٩٧٤-٩٨٢	١٥٦٦-١٥٧٤
١٢- السلطان مراد الثالث ابن سليم	٩٨٢-١٠٠٣	١٥٧٤-١٥٩٥
١٣- السلطان محمد الثالث ابن مراد	١٠٠٣-١١٠٢	١٥٩٥-١٦٠٣
١٤- السلطان أحمد الأول ابن محمد	١٠١٢-١٠٢٦	١٦٠٣-١٦١٦
١٥- السلطان مصطفى الأول ابن محمد الثالث	١٠٢٦-١٠٤٨	١٦١٦-١٦١٨
١٦- السلطان عثمان الثانى ابن محمد الثالث	١٠٢٧-١٠٣١	١٦١٨-١٦٢٢
١٧- السلطان مصطفى الأول ابن محمد الثالث	١٠٣١-١٠٣٢	١٦٢٢-١٦٢٣
١٨- السلطان مراد الرابع ابن أحمد الأول	١٠٣٢-١٠٤٩	١٦٢٣-١٦٤٠
١٩- السلطان ابراهيم ابن أحمد الأول	١٠٤٩-١٠٥٨	١٦٤٠-١٦٤٨
٢٠- السلطان محمد الرابع ابن ابراهيم خان	١٠٥٨-١١٠٤	١٦٤٨-١٦٨٧
٢١- السلطان سليمان الثانى ابن ابراهيم خان	١٠٩٩-١١٠٢	١٦٨٧-١٦٩١
٢٢- السلطان أحمد الثانى ابن ابراهيم خان	١١٠٢-١١٠٦	١٦٩١-١٦٩٥

٢٣- السلطان مصطفى الثانى ابن محمد الرابع	١١١٥-١١٠٦	١٧٠٣-١٦٩٥
٢٤- السلطان أحمد الثالث ابن محمد الرابع	١١٤٩-١١١٥	١٧٣٠-١٧٠٣
٢٥- السلطان محمود الأول ابن مصطفى الثانى	١١٦٨-١١٤٣	١٧٥٤-١٧٣٠
٢٦- السلطان عثمان الثالث ابن مصطفى الثانى	١١٧١-١١٦٨	١٧٥٧-١٧٥٤
٢٧- السلطان مصطفى الثالث ابن أحمد الثالث	١١٨٧-١١٧١	١٧٧٣-١٧٥٧
٢٨- السلطان عبد الحميد ابن أحمد الثالث	١٢٠٣-١١٨٧	١٧٨٩-١٧٧٣
٢٩- السلطان سليم الثالث ابن مصطفى الثالث	١٢٢٥-١٢٠٣	١٨٠٧-١٧٨٩
٣٠- السلطان مصطفى الرابع ابن عبد الحميد الأول	١٢٢٣-١٢٢٢	١٨٠٨-١٨٠٧
٣١- السلطان محمود الثانى ابن عبد الحميد الأول	١٢٥٥-١٢٢٣	١٨٣٩-١٨٠٨
٣٢- السلطان عبد الحميد الأول ابن محمود غازى	١٢٧٧-١٢٥٥	١٨٦١-١٨٣٩
٣٣- السلطان عبد العزيز ابن محمود	١٢٩٣-١٢٧٧	١٨٧٦-١٨٦١
٣٤- السلطان مراد خان ابن عبد المجيد	١٢٩٣-١٢٩٣	١٨٧٦-١٨٧٦
٣٥- السلطان عبد الحميد ابن عبد المجيد	١٣٢٨-١٢٩٣	١٩٠٩-١٨٧٦
٣٦- السلطان محمد رشاد ابن عبد المجيد	١٣٣٦-١٣٢٧	١٩١٨-١٩٠٩
٣٧- السلطان محمد السادس (وحيد الدين) ابن عبد المجيد	١٣٤٤-١٣٣٦	١٩٢٣-١٩١٨
٣٨- السلطان عبد المجيد ابن عبد العزيز (خليفة فقط)	١٣٤١-١٣٤٠	١٩٢٤-١٩٢٣

اعلان الجمهورية بقيادة مصطفى كمال (أتاتورك) ١٩٢٣ .



الموضوع	العنـــــوان	الصفحة
تمهيـــــد		٣
الموضوع الأول	السلطان محمد الفاتح وفتح القسطنطينية	٧
الموضوع الثانى	موقف الدولة العثمانية والقوى الأسلامية الأخرى من سقوط الأندلس	١٧
الموضوع الثالث	الأنكشـــــــارية	٢٥
الموضوع الرابع	أثر معركة ديو البحرية على حركة التجارة العربية	٣١
الموضوع الخامس	العثمانيون والعالم العربى	٤١
الموضوع السادس	الحركات الأنفصالية ضد الدولة العثمانية	٥٩
الموضوع السابع	معركة نفارين البحرية	٧٠
الموضوع الثامن	محمد على والخليج العربى	٨١
الموضوع التاسع	القوى الأوربية وحكم محمد على لبلاد الشام	٨٩
الموضوع العاشر	موقف الدولة العثمانية من توسعات محمد على فى بلاد الشام	٩٧
الموضوع الحادى عشر	السلطان عبد الحميد وفكرة الجامعة الأسلامية	١٠٧
الموضوع الثانى عشر	الحركات السياسية والفكرية فى العالم العربى بين فكرة الجامعة الأسلامية وحركة التتريك	١١٥
الموضوع الثالث عشر	الدولة العثمانية خلال الحرب العالمية الأولى وظهور أتاتـــورك	١٢٩
الموضوع الرابع عشر	الدولة العثمانية ما لها وما عليها	١٣٥
خاتمـــــة		١٥٧
الملاحـــــق		١٥٩